الحنين إلى الوطن في الادب العربي حتى نهاية العصر الاموي

محمد إبراهيم حُوّر

مقدمة

هذه رسالة يبحث موضوعها في حقبة من أقدم الحقب في أدبنا العربي ، ولم يكن في نيتي أن يكون موضوع رسالتي في تلك الفترة ، ولا في الفترات القريبة منها ، لأنني صاحب قضية ، ومن المحتم عليّ أن لا يكون بحثي ، ومجال عملي ، إلا فيما يتصل بهذه القضية . كان أملي أن أبحث في موضوع يتصل بفلسطين — وطني . إلا أن نظام الدراسة في قسم الماجستير بكلية الآداب بجامعة بغداد حال بيني وبين تحقيق رغبتي آن ذاك ، حين حظر عليّ دراسة الأدب الحديث المعاصر ، وهو ما كنت أنوي بحثه . ولما اقترح عليّ أستاذي الدكتور جميل سعيد هذا الموضوع — الذي أضعه بين يدي القارىء — وجدت أكثر من دافع دفعني إلى قبوله . من هذه الدوافع ، أن الموضوع له مساس — من قريب وبعيد — بما يدور في نفسي من عواطف وانفعالات نحو وطني المغتصب ، تمثلا ذلك في « الحنين » . ومنها — أيضاً — الرغبة في أن أجعل هذا الموضوع مترابطاً ومتسلسلا منذ أقدم عصور الأدب العربي ، إلى يومنا هذا ، فأكون حينئذ حققت ما صبوت إليه بدقة وتفصيل . ومنها بعد ذلك طرافة الموضوع وجدته . إذ أنه لم يقع بين يدي كتاب قديم أو حديث ، يبحث الموضوع بشكل مفصل ومستقل ، اللهم إلا تلك الإشارات التي سيرد ذكرها خلال الرسالة .

وقد اشتملت الرسالة على تمهيد وأربعة فصول :

أما التمهيد ، فقد تحدثت فيه عن مفهوم الوطن عند غير العرب ، بينت معناه عندهم منذ أقدم العصور ، وتطور هذا المفهوم بتطور الحياة في مختلف جوانبها . ثم انتقلت إلى الحديث عن مفهومه عند العرب ، في أقدم معجماتهم التي وصلتنا . وتطور هذا المفهوم ، من عصر لآخر ، حتى يومنا هذا . ولاحظنا أن لفظة « الوطن » واردة في الأدب العربي ، وفي أقدم نصوصه ، وأن هناك تقارباً شديداً بين لفظتي « الوطن » و « الحنين » .

ثم تحدثنا عن صلة الإنسان بوطنه ، وكيف أن الإنسان مرتبط ببيئته التي

يعيش فيها وينشأ . تؤثر فيه ، ويتأثر بها ، فى سلوكه وتفكيره وملبسه ومأكله ومسكنه . لذلك يكون إلتصاقه بها ، وحبه لها ، وحنينه إليها ، فيما إذا إبتعد عنها . ودللنا على أثر البيئة على الإنسان بعدة أمثلة عند أكثر من أمة من الأمم المختلفة فى بيئاتها ، وظروفها الطبيعية ، التى أثرت تأثيراً كبيراً على سكانها ، فى مختلف جوانب حياتهم .

ثم تحدثنا عن الحنين إلى الوطن فى الأدب الإنسانى ، فظاهرة الحنين إلى الوطن ، إنسانية عامة ، نراها عند كل الأمم ، وفى كل العصور ودللنا على هذا بنماذج مختلفة من الآداب . قديمها وحديثها . ثم أخذنا بتفصيل الحديث عن هذا فى أدبنا العربى .

كما تعرضنا فى حديث قصير إلى العرب والشعر وقد تبين فيه أن العرب أمة عاطفية ، وأن أشعارها جاءت مترجمة لهذه العواطف ، وأن هذه الأشعار لم تخل من الحنين إلى الوطن ، وهذا الحنين حفظ لنا فى ديوان العرب ، شأنه شأن ما اعتز به العربى فى أشعاره الخالدة ، التى دلت على مشاعر القوم وأحاسيسهم ، نحو ما كانوا يحبون ويجلون . ثم تحدثنا عن العرب والوطن . وكيف أن العربى محبٌ بطبعه — لوطنه حانٌ إليه إذا ما نزح عنه ، وقد أشرنا كذلك إلى وطن البدو وتعريفه وتحديده ، وإلى وطن الحضر وتعريفه وتحديده .

ووجدنا من المفيد عدم غض الطرف عن ظاهرة الهجرة عن الوطن ، والدعوة إليها ، عند قسم من الأدباء والشعراء ، فبحثنا دوافعها والظروف التى أدت إليها .

وأما الفصل الأول فكان عن الحنين إلى الوطن فى شعر البدو . وقد ذكرت فيه البادية وظروف العرب فيها ، وتأثيرها فيهم . فهى صحراء جرداء ، تفرض على ساكنها الترحال والانتقال ، وراء الماء والعشب . وتفرض على صاحبها المرور بدياره التى سكن فيها ، وقضى شطراً من حياته بين جنباتها ، فإذا هى أطلال بالية . وإذا هو يقف عليها حين يمر بها ؛ أو يعرج عليها يبكى ويستبكى على أيامه السالفة . من هنا كان شعر الأطلال كثيراً فى الشعر العربى البدوى الجاهلى . وكان يتصل اتصالا مباشراً بموضوعنا : « الوطن ، والحنين إليه » . فهو حنين إلى الوطن فى رأينا ،

ورأى من سبقونا من القدماء والمحدثين . قلنا ذلك ، ولم نغفل ما فى شعر الأطلال من عوامل التقليد ، واقتران ذكر الأطلال بالحبيبة فى أحيان كثيرة . وخرجنا من ذلك ، إلى أن شعر الأطلال عند البدو — فى الأغلب الأعم — هو حنين إلى الوطن ، وهو عند الحضر تقليد للقدماء والسابقين .

تلا ذلك تحليل لقصائد الحنين إلى الوطن عند شعراء البدو ، فى العصرين الجاهلى والإسلامى وقد روعى فى الحديث عن الشعراء وقصائدهم ، التسلسل الزمنى لسنى وفاتهم .

وأما الفصل الثانى فكان عن الحنين إلى الوطن فى شعر الحضر ، وتحليل جمهرة من قصائد الحنين عندهم . ولاحظنا فيه قلة شعر الحنين عند الحضر ، إذا ما قورن بشعر البدو فى الحقبة ذاتها التى درسناها . وكان مرد ذلك يعود إلى استقرار حياة الحاضرة عن حياة البادية ، إضافة إلى إهمالنا لشعر الأطلال عندهم .

أما فصل الحنين إلى الوطن فى شعر المرأة وهو الفصل الثالث فقد بدىء بالحديث عن المرأة والشاعرية . لوحظ فيه أن المرأة تمتاز برقة الشعور ، ورهافة الحس ، وشدة العاطفة ، والعفة والخجل — وإنها فى هذه المشاعر أكثر تدفقاً من الرجل . وأن هذه المشاعر قد انعكست فى أشعارها . فكان شعرها يصطبغ بلون واحد هو لون الحزن والرثاء والحنين ، وكان هذا سبباً فى قلة شعرها ، أو بتعبير أدق ، فى قلة ما وصلنا من شعرها .

وفى تحليل عدد من قصائد الحنين إلى الوطن عندها ، لاحظنا أن المرأة أعنف شعوراً بالحنين إلى الوطن من الرجل . وأن شعرها خال من شعر الأطلال ، الذى كثيراً ما ورد عند الرجل ، ولم يكن بحث شعرها على المنهج ذاته الذى كان عند الرجل ، بتقسيم الشعر إلى بادية وحاضرة ، وذلك لأن معظم الشواعر من البادية . وقليل منهن من الحاضرة . ولم نبحثهن على أساس التسلسل الزمنى ، لأن المصادر لم تصرح بأسماء كثير منهن ولا بتاريخ وفاتهن .

ثم أعقبنا الحديث عن الشعر بالحديث عن النثر فى الفصل الرابع . والتعبير بالنثر عن هذا دون التعبير بالشعر عندهم .

وفصل الحنين إلى الوطن فى النثر العربى ، بدىء بالحديث عن النثر العربى وظهوره ، وعن الإيجاز فيه فى الحقبة الجاهلية وما بعدها .

ثم تلا هذا الحديث عن الحنين إلى الوطن فى القرآن الكريم والحديث الشريف

ولوحظ فيه أن الله سبحانه وتعالى، حث في كثير من آيات كتابه العزيز على التمسك بالوطن، والحفاظ عليه، والدفاع عنه.

ولوحظ فيه الحنين إلى الوطن عند الرسول الأعظم ﷺ وقد كان حنينه إلى مكة شديداً حين هاجر عنها. ثم عند الصحابة والتابعين. وقد ظهر حنينهم ودعوتهم إلى التمسك بالوطن في مظان كثيرة من أقوالهم.

وظهر الحنين في الأمثال والقصص، وفي الرسائل والمكاتبات. وقد زخرت هذه بالحنين إلى الوطن، خاصة وقت الضيق والشدة في الغربة.

تلا ذلك الحديث عن التأليف في الحنين إلى الوطن. وقد ذكرت فيه الكتب أو فصولا منها ألفت في الحنين إلى الوطن.

واختتمنا الرسالة — بعد هذا بذكر ما توصلنا إليه من النتائج من خلال البحث والدراسة.

وبعد: فهذا ما استطعنا الوصول إليه، من خلال الدراسة والبحث. ونحن لا ندعي الكمال في العمل. ونرجو أن نكون قد وفقنا بما قمنا فيه، وأن ينتفع غيرنا بعملنا.

وإذ أوشك أن أضع القلم جانباً، بعد جهد كبير، وتعب مضن، وسنين عجاف قضيتها متقاسمة بين العلم والعمل — لا يسعني إلا أن أتوجه إلى الأستاذ الكبير الدكتور جميل سعيد. الذي كان له من التوجيه والإرشاد، والعطف والمحبة، خير دافع ومشجع، لكي تكون هذه الرسالة بالصورة التي تحملها. أقول: أتوجه إليه بالشكر الجزيل، وحفظ الجميل، الذي لا أنساه ما حييت، كما أتوجه بالشكر إلى الأستاذين الفاضلين، الدكتور باقر عبد الغني والدكتور عناد غزوان عضوي لجنة المناقشة لما أبدياه من ملاحظات قيمة ساعدت على تقويم الرسالة. وإلى كل من قدم إلي عوناً أو ملاحظة أو توجيهاً وأخص بالذكر الأخوة الدكتور أنس داود وهادي حسن حمودي.

والحمد لله أولا وآخراً والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

محمد إبراهيم حُوَّر



١ ــ ماذا نعنى بالوطن

لعل من نافلة القول ، أن نقرر ، ما لإيضاح مفهوم الوطن ، عند غير العرب ، ثم عند العرب ، من أهمية بالغة ، وقيمة عظيمة لدراستنا . حيث أنه سيكون المفتاح لمعرفة مفهومه منذ أقدم العصور . وهل أنه هو المفهوم الحديث ، المتعارف عليه فى أيامنا هذه ، أم أن هناك اختلافاً فى الأمر ؟ .

[ا] عند غير العرب :

إذا فتشنا فى المعجمات الإنجليزية(١) ــ مثلا ــ عن لفظة (Home) ، فإننا نجدها تعنى ، فى اللغة الإنجليزية القديمة والعصور الوسطى . قرية ، أو مدينة ، أو مجموعة مساكن ، أو قرية بأكواخها . وهى بهذا ــ فيما نرى ــ أشبه ما تكون بالحى الذى كانت تقيم فيه القبيلة العربية ، أو الحى . ثم تطور المعنى ، فأصبح يعنى : مكان سكنى الإنسان ، ومحل تربيته . وهو المكان أو الإقليم ، أو الدولة التى يعود إليها الإنسان بصورة حقيقية ، حيث يتركز حنينه إليها ، أو حيث يجد الرضى والراحة فيها . وهو مسقط الرأس . وقد استعمله البريطانيون وهم خارج بلادهم حيث هاجروا وسكنوا المستعمرات البريطانية . وقبلهم استعمله البريطانيون . الذين هم من أصل بريطانى من سكان أمريكا ، للإشارة بذلك إلى بريطانيا العظمى (Great Britain) ، أو إلى الوطن الأم (The Mother Country) أو إلى الوطن القديم (The Old Country) . وهذا ــ فيما نرى ــ هو المفهوم الحقيقى للوطن الذى ثبت اصطلاحه ، وأكد معناه ، أولئك الذين نزحوا عن الوطن ،

---

(١) Webster's New International Dict. & The Oxford English Dict.

وتغربوا عنه ، وذاقوا لوعة الحنين ومرارة الحرمان من أوطانهم ، على الرغم من ظروف العيش ، التى كلها رخاء ونعيم — فيما نحسب — والتى لاقوها فى مستعمراتهم الجديدة . نقول — على الرغم من ذلك فالوطن عندهم هو ، بريطانيا العظمى ، وبريطانيا الأم .

ومن لفظة (Home) جاء لفظ (Homeland) ويعنى الوطن أيضاً . و (Homeless) وتعنى الذى ليس له وطن ، أو المشرد عن الوطن و (Homesick) وتعنى المصاب بداء الحنين إلى الوطن .

و (Homesickness) وتعنى الكآبة الذهنية والبدنية ، التى يسببها الحنين إلى الوطن أثناء الغياب عنه . والتى تسمى فى الاصطلاح الطبى (Nostalgia) (١) . وهى لفظة يونانية ، مؤلفة من كلمتين ، الأولى : (Nostos) وتعنى العودة إلى الوطن . والثانية : (Algos) وتعنى الألم ، أو حالة مرضية .

وبهذا نصل إلى أن الوطن عند الأجانب ، يختلف فى معناه فى العصور القديمة ، عما هو فى العصور المتأخرة . وذلك نظراً لتطور الحياة ، التى بطبيعة الحال ، يكون التطور فى مفاهيمها ، وفى دلالاتها على الأشياء . ونخرج منه . إلى أن مفهوم الوطن مرتبط بحبه ، وبالحنين إليه . فمتدم الوطن ، وحب الوطن ، والحنين إلى الوطن . بل ومرض الحنين إلى الوطن ، عند أولئك الذين نأوا عنه ، وغلبهم الشوق إليه .

[ب] عند العرب :

وعند العرب نلحظ أن لفظة الوطن بتطور مفهومها أو مدلولها على الزمن أيضاً . تقدم لنا المعجمات اللغوية معنى كلمة « وطن » ، وتطوره تطوراً نستطيع أن نرتبه ترتيباً تاريخياً ، نخرج منه إلى الإجابة عن التساؤل الذى طرحناه فى مفتتح حديثنا .

---

(١) Stedman's Medical Dict. P. 1095 & Webster's New International Dict.

ففى المعجمات الأولى[1]، نلحظ أن الوطن هو مربض الإبل والغنم. ومنه تطور إلى شمول الإنسان به، حين يتخذ منزلا ينزله، أو يعيش فيه، ونلحظ أن اللغويين وأهل المعجمات، لم يشترطوا فى الوطن، أن يكون مسقط رأس الإنسان. وذلك لأن هذا الإنسان العربى، الذى يولد فى الصحارى، فى شبه الجزيرة العربية، ليس له مكان معين بعد مسقط رأسه. وطبيعة تنظيم حياتهم الاجتماعية، كانت تفرض عليهم هذا المفهوم، الذى حدد فى عبارة ابن سيدة: «الوطن: حيث أقمت من بلد أو دار[2]. وعلى ذلك ينسحب هذا المؤدى، إلى كل مكان ينزله الإنسان، ويسكن فيه، ويعده مستقراً له ومقاماً. بل إن هذا المفهوم، قد اتسع بصورة كبيرة بعد الإسلام. فعدّ كل مكان يقف فيه الإنسان وقفة زمنية موطنا، ومنه جاء «مواطن مكة». وقد التفت ابن منظور إلى هذه الناحية المهمة فقال: «مواطن مكة: مواقفها، وهو من ذلك، وطن بالمكان وأوطن: أقام»[3]. إن هذه الإقامة، لم يشترط فيها الأقدمون مدة من الزمن، ولا حقبة من الحقبات ولا أى شىء آخر. وفى هذه النقطة بالذات، يقول ابن منظور: «أما المواطن: فكل مقام أقام به الإنسان لأمر، فهو موطن له»[4]. ولقد أسهم الأدب النبوى فى توسيع هذا المفهوم حين «نهى (ﷺ) عن إيطان المساجد[4]. أى جعلها أوطاناً، يمكث فيها الإنسان وقتاً أكثر مما ينبغى»:

وفى المعجمات الحديثة، لا نجد مادة جديدة، تضاف إلى المادة القديمة. فكلهم يحاول أن ينقل عن الأقدمين، كالخورى فى أقرب الموارد، وعبد الله البستانى فى البستان، وبطرس البستانى فى محيط المحيط، وابراهيم مصطفى والزيات وزملائهما فى المعجم الوسيط.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة لابن دريد: ٣ / ١١٩، وتهذيب اللغة للأزهرى: ٤ / ٣٨، ومعجم مقاييس اللغة لاحمد بن فارس: ٦/١٢٠، والصحاح للجوهرى: ٦ / ٢٢١٤.

(٢) المخصص لابن سيدة: ٤ / ١١٩.

(٣) لسان العرب لابن منظور: ١٣ / ٤٥١.

(٤) المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسهما: وتاج العروس للزبيدى: ٩/٣٦٢.

ومن تشعبات الموضوع، ظهـــرت لدينا لفظة الوطنية التي اختلف مؤداها باختلاف المذاهب والاتجاهات السياسية. لـكنها — على مافيها من خلاف — تتصل أولا وآخرا بالوطن، وحب الوطن، والإخلاص له، باختلاف الطرائق التي تتبناها الأفكار والتيارات الإنسانية المختلفة(١).

من هذا يتجلى لنا، أن المعنى يختلف اختلافا بيّناً، عن مفهومه في عصرنا الحاضر، بل وحتى من عصر إلى عصر. إذ أن مفهوم الوطن في العصر الجاهلي، يختلف عنه في العصر الإسلامي وعصر بني أمية، وهو في هذا يختلف عنه في العصر العباسي.

ففي القديم، كان المعنى ضيقاً، فلم يتجاوز مفهوم الوطن، الحي أو الحمى الذي يقيم فيه الإنسان مع عشيرته أو قبيلته. كما أنه لم تـكن سائدة تلك الروح القومية، التي ترتبط في عصرنا الحاضر بمفهوم الوطن. لأن الروح القبلية والتعصب لها، كان يحل محل أي ارتباط قومي أو وطني. إلا أن هذا لاينفي وجود الروح، التي يمكن أن نسميها، قومية، وذلك حينما ينتقل التكاتف والتعاون، من قبيلة إلى أخرى وبوجود عدة قبائل، وذلك في أيام العرب خاصة، فيظهر لنا تماسك القبائل، ودفاعها عن بعضها البعض حينما تتعرض إلى خطر خارجي، يهدد أمنها وسلامتها: نقول: كان التعصب القبلي هو الطاغي على كل شيء، والدعـــوة إلى نصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً هي السائدة. فلم يكن — في غالب الأحيان — هناك مجال إلى أية دعوة للظهور، أو أية فكرة للنمو، حتى وإن كانت صحيحة ومستقيمة، إلى أن جاء الإسلام وشرح صدور الناس، وبين لهم الرشد من الغي، والصواب من الخطأ، ودعا إلى نبذ التعصب القبلي، والتناحر العائلي. وجاء بروح جديدة، تختلف عن سابقتها، كما تختلف في كثير من قوانينها، عما هو سائد في أيامنا، من الناحيـــة المرتبطة بالوطنية.

فقد دعا الإسلام إلى الإخاء والمحبة والسلام إلى أن الأرض أرض الله، والعبيد عبيد الله. إلى أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وإلى أن الناس

---

(١) أنظر فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين: ١٠، وآراء وأحاديث في الوطنية للأستاذ ساطع الحصري: ٧

سواسية كأسنان المشط . ومع ذلك ، فقد دعا الإسلام فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم إلى التمسك بالوطن . وبين قيمته وأهميته بالنسبة لساكنيه . ونهى عن الهجرة عنه . وهذا ما سنبينه مفصلا فى مكان آخر من البحث — إن شاء الله .

أما عن ورود لفظة « الوطن » فى الشعر العربى — وهو أقدم النصوص الأدبية التى وصلتنا من الأدب العربى — فهى قديمة قدم الشعر العربى نفسه . منذ العصر الجاهلى ، بل ومنذ أقدم شعراء العصر الجاهلى . قال امرؤ القيس[1] :

يذكرها أوطانها تل ماسح　　منازلها من بربعيص وميسرا[2]

وقال عنترة[3] :

أحرقتنى نار الجوى والبعاد　　بعد فقد الأوطان والأولاد

وقال طرفة[4] :

على موطن يخشى الفتى عنده الردى　　متى تعترك فيه الفرائص ترعد[5]

ثم تكرر ذكرها فى الشعر الاسلامى والأدب الاسلامى ، وما تلاه من عصور . قال النبى صلى الله عليه وسلم : حب الوطن من الايمان[6]

وقال عمر بن أبى ربيعة[7]:

قد هاج قلبك بعد السلوة الوطن　　والشوق يحدثه للنازح الشجن

---

(١) ديوان امرىء القيس : ٢١٦ .

(٢) بربعيص وميسر : موضعان .

(٣) ديوان عنترة : ٦٧

(٤) ديوان طرفة : ٤٣ .

(٥) الردى : الهلاك . والفرائص : جمع فريصة ، وهى بضعة فى الجنب عند مرجع الكتف ، وهى أول ما يرعد من الإنسان وغيره عند الفزع .

(٦) مطالع البدور فى منازل السرور لعلاء الدين الغزولى : ٢ / ٢٦٢ .

(٧) [illegible] عمر بن أبى ربيعة : ٤٢٥ .

وقال جميل بن معمر(١) :

أنا جميـــل والحجاز وطنى   فيه هوى نفسى وفيه شجنى

فلفظة الوطن عند امرىء القيس تعنى أوطان الابل وديارها . وعند عنترة تعنى دياره وأوطانه . وعند طرفة تعنى موضعا .

وبين لفظتى الوطن والحنين ، تقارب شديد ، وارتباط وثيق . فقد نص اللغويون على أن حنين الابل يعنى نزوعها إلى أوطانها وأولادها(٢) وكذلك الانسان .

* * *

٢ — صلة الإنسان بوطنه

يرتبط الإنسان ببيئته ارتباطاً وثيقاً . لأن الإنسان مكمل لبيئته ، وهى مكملة له ، فى نشأته وتطوره . ومن هنا كان للإقليم الذى يعيش فيه الإنسان وينشأ أثر كبير فى أخلاقه . وتكوينه النفسى ، واستعداده الفكرى . وإبداعه العقلى . وهذه القابليات تختلف من إنسان لآخر ، تبعاً لاختلاف الأقاليم ، واختلاف الظروف الطبيعية والمناخية فيها . ومن هنا ، كان أهل البادية — على ما قالوا — أصفى ذهناً من سكان المدن ، لصفاء أجواء البوادى عن أجواء المدن . وأهل البلاد الباردة ، أسرع حركة نشاطاً من أهل البلاد الحارة . وفى البلد الواحد ، يفضل أهل الجبال أهل السهول نشاطاً وصفاء ذهن . ولهذا كان تمسك الإنسان ببيئته ، والتزامه لها ، ورفضه البعد عنها ، أو الرحيل منها . لما له من أثر على طبيعته النفسية ، ونشأته الطبيعية ، التى — ربما — تجر عليه الكثير من المتاعب ، بل والأمراض . لأن فى اختلاف الظروف الطبيعية والمناخية ، من أقليم لآخر ، من الحرارة إلى البرودة ، أو من البادية إلى الريف . أو من الريف إلى المدينة ، أو من السهول إلى الجبال ، كل هذا يؤثر تأثيراً واضحاً على الإنسان . وغنى عن البيان ، ما كان يعانى منه المسلمون ، فى أيام فتوحاتهم الأولى ، فى بلاد المشرق والمغرب ، من صنوف المرض والحمى ، لانتقالهم من بيئة

---

(١) ديوان جميل : ٢٠٦ .

(٢) جمهرة اللغة : ١/ ٦٤ ، وتهذيب اللغة : ٣/ ٤٨ .

إلى أخرى ، تختلف عن الأولى فى المناخ وظروف المعيشة ، والعادات والتقاليد ، بل واللغة ، وهى أسلوب التفاهم الوحيد للإنسان . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فإن مكوث الإنسان فى بيئته ، منذ المولد والنشأة ، بين أهله وعشيرته ولتعوده على ظروف معينة ، وعادات وتقاليد خاصة ، يجد من الصعوبة بمكان تغييرها ، أو تقبل ما يختلف عنها . يضاف إلى ذلك ، تلك العلاقات الاجتماعية ، التى اتسمت بسمات معينة من ذلك المحيط الذى نشأ عليه الإنسان فى بيئته .

إن هذه العوامل مجتمعة . كانت الحافز الأول والرئيسى ، فى أن يقوم ذلك الترابط المحكم ، بين الإنسان وبيئته . وأن تكون صلته بها ، وبما تحمله من عادات وتقاليد ، أوثق وأشد رسوخاً فى كيانه من أى شىء آخر .

وقد التفت الباحثون فى الأجناس البشرية [1] ، إلى أثر البيئة ، وصلة الإنسان بها . فقالوا : إن صلة الإنسان ببيئته وأرضه ، أكثر ارتباطاً وتعقيداً من صلة الحيوان والنبات بالبيئة والأرض . ويقولون : إنك لا تستطيع أن تقول : أن ابن الصحراء ، يمكنه أن يعيش فى القطب ، وأن ابن القطب يمكنه أن يعيش فى الصحراء إلا إذا استطعت أن تقول : إن الجمل — وهو ابن الصحراء — يستطيع أن يعيش فى القطب ، وأن دببة القطب ، فى استطاعتها أن تعيش فى الصحراء .

ولاحظ داروين (Darwin) أن العلاقة بين الكائن الحى والبيئة ، هى علاقة ملاءمة وتكيف . فعلى الكائنات الحية ، أن تتلاءم مع البيئة ، وتتكيف مع ضرورياتها . وأن هذه الملاءمة ، عملية مادية حتمية ، لا يملك الكائن الحى إزاءها شيئاً . بل إن البيئة ، تختار الأفراد الذين تتلاءم صفاتهم مع ظروفها ، اختياراً طبيعياً ، وتترك غيرهم للفناء . وأن البقاء للأصلح « ملاءمة » مع البيئة[2] .

---

(١) اعتمدنا فى حديثنا هذا — اعتماداً كبيراً — على الفصل الذى عقده أستاذنا الدكتور جميل سعيد على البيئة ، فى كتابه « الوصف فى شعر العراق » .

(٢) البيئة والمجتمع للدكتور محمد السيد غلاب : ٢٠ .

ولاحظ « كارتر » (Carl Ritter) أن المحيط الذى يعيش فيه الإنسان ، يفعل فعله فى كل عضو من أعضائه . ولاحظ أن عيون التركمان إنما كانت صغيرة طولانية ، قد أحيطت بجفن غليظ منتفخ ، نتيجة لتلك البيئة الصحراوية التى يسكنها هؤلاء ، ونتيجة لأثر تلك البيئة فى هذا العضو الهام الحساس .

ولاحظ « ستانهوب سميث » (Stanhop Smith) أن ارتفاع الأكتاف ، وقصر الأعناق ، عند تتر منغوليا ، إنما جاء نتيجة لعادتهم فى رفع أكتافهم رفعاً مستمراً ، يقون به أعناقهم عادية تلك الريح الباردة ، التى تهب عليهم ، فيحارون فى مواجهتها وتبرك الفرد منهم ، وهو أبداً يرفع كتفيه ، ويقلص عنقه ، حتى كأنه يريد أن يدخل رأسه فى جسده ليقيه بذلك عادية الريح . ولاحظ أن عيونهم الصغيرة ، التى يكثر فيها الحول ، وحواجبهم النائتة ، ووجوههم العريضة ، التى برز عظم الوجنة فيها ، — لاحظ أن هذا كله ، إنما كان نتيجة لكثرة هبوب الرياح العاتية الباردة عليهم ، ونتيجة لشدة بريق الثلوج ، و لألائها لألاءً تبهر العين ، وتأخذ البصر — — وقد تمادى فى كلامه هذا ، حتى قال : إن البرد بفعاليته ، يشوه كل سحنة ، ويطبعها بطابع الشدة والصرامة .

وقد لاحظ تين (Taine) النقادة الفرنسى ، إن الإنجليزى ، إنما وهب هذه القدم العريضة الضخمة ، نتيجة لعيشه فى تلك الأرض الرخوة اللينة . ونستطيع أن نقول : إن صحراء العرب ، قد فعلت فى قدم العربى مثل ذلك ، وربما كان هذا الأمر فى غاية الوضوح ، إذا نظرنا إلى خف الجمل — وهو ابن الصحراء — لقد وهب هذا الخف ، ليساعده على السير فى الرمال ، ولئلا تنطس قدمه فيها وتغور ، إذا أسرع .

والبيئة ، كما أثرت فى خلقة الإنسان وهيئته ، أثرت كذلك فى ملامحه ولونه . فهى التى كست أهل المناطق الاستوائية الحارة ، لونهم الأسود البراق . وكست جسم العربى هذه السمرة النحاسية ، وكست أهل البلاد الباردة لونها الأبيض[1] .

---

(١) الوصف فى شعر العراق : ٩٢ — ٩٣ .

وتحدث ابن خلدون عن هذا فى مقدمته ، ورد على المسعودى وعلى القصاص والنسابين العرب ، الذين زعموا أن الزنج ، إنما أسودّ لونهم ، لدعوة نوح على على إبنه حام . وأن هذا الإبن ، إنما كسى بالسواد — وهو أقبح الألوان وأبشعها عند العرب — لدعوة دعاها أبوه عليه . لقد رد ابن خلدون على هذا القول ، واعتبره خرافة وعزا ذلك إلى بيئتهم الحارة ، وإلى شمسهم المحرقة . قال فى المقدمة : « وفى القول بنسبة السواد إلى حام ، غفلة عن طبيعة الحر والبرد ، وأثرهما فى الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الثانى ، من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب . فإن الشمس تسامت رءوسهم مرتين فى كل سنة . قريبة إحداهما من الأخرى ، فتطول المسافة عامة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها . ويلح القيظ الشديد عليهم ، وتسود جلودهم لأفراط الحر . . . » ثم يتحدث عن أهل الشمال ، وعن أثر الجو البارد فى ألوانهم ، وعيونهم ، وشعورهم ، وأمزجتهم . ويرى أن سبب غلط النسابين ، إنما جاء عن ظنهم . إن هذا الاختلاف إنما سببه الاختلاف فى الأنساب . ولم يعلموا ما للأرض من أثر فى ذلك .

ويظهر أثر البيئة الطبيعية واضحاً فى اللغة . أنها غنية غنى عظيماً فيما يتعلق بالبيئة من حيوان ، أو نبات ، أو رمال ، أو جبال . وهى فقيرة فيما يبعد عن البيئة . أو يكون ضعيف الصلة بها . فقبيلة الدنكا — القبيلة الافريقية التى تسكن أعالى النيل الأبيض — قد غنيت لغتها كل الغنى بأسماء الألوان . فيها أسماء عدة تدل بها على تدرج الظل ، وتدل بها على تدرج الصبغة واللون قوة وضعفاً . ولهم فى الألوان ألفاظ خاصة متمايزة ، يحددون بها ألوان حيواناتهم بدقة متناهية . فعندهم ، القهوائى ، والأشهب ، والأكمت ، والأحمر ، والأبيض ، والمدنر ، والمرقط ... وهكذا لهم أسماء كثيرة يتدرجون بها تدرج الألوان فى كل حيوان .

والصموئيد (Samoyedes) الذين يقطنون شمال روسيا ، لهم اثنا عشر لفظا ، يعبرون بها عن تدرج الألوان الرصاصية . وقد جاءتهم هذه الألوان من تلون غزال الرنة ، واضطرارهم إلى تسميته ، وتمييز بعضه عن بعض .

وإذا نظرنا إلى العرب فى هذا ، وجدنا اللغة غنية كل الغنى ، فى الألوان التى

تكثر في صحرائهم ، ان للخضرة والسواد — وقد كانوا يسمون أحدهما باسم الآخر — نحواً من أربعين اسماً . وقد غنيت لغتهم غنى عظيماً فيما يضطرب ببيئتهم ، من حيوان أو نبات . كما افتقرت فيما لايحتاجون إليه ، أوفيما هو قليل الصلة بتلك البيئة . وفى فجر الإسلام (للمرحوم الدكتور أحمد أمين) : وأنت إذا نظرت إلى اللغة العربية ... فألفاظ اللغة — مثلا — فى منتهى السعة والدقة ، إذا كان الشيء الموضوع له اللفظ ، من ضروريات الحياة فى المعيشة البدوية ، وهى قليلة غير دقيقة ، فيما ليس كذلك . ويقارن الأستاذ أحمد أمين بك بين ما يتعلق بالسفينة . وبين ما يتعلق بالإبل من ألفاظ . ويقول أن السفينة لم تستغرق من مخصص ابن سيدة إلا أقل من سبع صفحات ، على حين تستغرق الإبل جزءاً من سبعة عشر جزءاً من مجموع اللغة . وتجد اللغة غنية إذا نظرت إلى ما وضعوه للعشب والصحراء والوديان ، ولكنك تجدها فقيرة ، إذا فتشتها فيما يتعلق بالبحر ، وموجه وتياراته ، وسفنه .

ونحن نستطيع أن ننظر ونرى ، عكس هذا عند الأمم التى تقطن السواحل والجزر ، وتجوب الأنهار والبحار ، كالأمة الإنجليزية مثلا . أننا نرى لغتهم وافرة الألفاظ غاية الوفرة ، فيما يتعلق بالبحر ، ولكنها فقيرة غاية الفقر ، فيما يتعلق بالصحراء .

وأثر البيئة الطبيعية واضح فى تعابير سكانها . فالبيئة النهرية أو البحرية تشتق تشبيهاتها ، واستعاراتها ، وأمثالها ، مما يتعلق بالنهر ، أو البحر . والبيئة الصحراوية ، تشتق تشبيهاتها ، واستعاراتها ، وأمثالها ، مما يضطرب فى الصحراء .

وشأن البيئة كذلك ، شأنها فى الخيال والذوق والأدب(١) .

وقديماً ، التفت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — إلى أثر البيئة الطبيعية على الإنسان . فكتب إلى حكيم من حكماء عصره — حين فتح الله

---

(١) الوصف فى شعر العراق ، ٩٢ وما بعدها .

البلاد على المسلمين ، من الشام ، والعراق ، وغير ذلك من بقاع الأرض — قال : إننا أناس عرب ، وقد فتح الله علينا البلاد ، ونريد أن نتبوأ الأرض ، ونسكن البلاد والأمصار ، فصف لى المدن وأهويتها ومساكنها ! وما تؤثره الترب والأهوية فى سكانها . فكتب إليه ذلك الحكيم : اعلم — يا أمير المؤمنين — أن الله تعالى قد قسم الأرض أقساماً ، شرقاً ، وغرباً ، وشمالاً ، وجنوباً . فما تناهى فى التشريق ، ولجج(١) فى المطالع السانح(٢) منه النور ، فهو مكروه ، لاحتراقه وناريته ، وحدته واحراقه لمن دخل فيه . وما تناهى مغرباً — أيضاً — أضر سكانه ، لموازنة ما أوغل فى التشريق . وهكذا ما تناهى فى الشمال ، أضر ببرده ، وقرّه ، وثلوجه ، وآفاته إلا جسامة فأورثها الآلام . وما اتصل بالجنوب ، وأوغل فيه ، أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان ، ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً ، ناسب الاعتدال ، وأخذ بحظه من حسن القسمة . وسأصف لك — يا أمير المؤمنين — القطع المسكونة من الأرض . . . وأما الجبال ، فتخشن الأجسام وتغلظها ، وتبلد الأفهام وتقطعها ، وتفسد الأحلام ، وتميت الهمم ، لما هى عليه من غلظ التربة ، ومتانة الهواء وتكاثفه ، واختلاف مهابه ، وسوء متصرفاته .

والأخلاق والصور — يا أمير المؤمنين — تناسب البلد وتحاذيه وتقاربه ؛ وتوافقه وتضاهيه . وكل بلد اعتدل هواؤه ، وخف ماؤه ، ولطف غذاؤه ، كانت صور أهله وخلائقهم ، تناسب البلد وتحاذيه ، وتشاكل ما عليه أركانه ؛ وما أسس عليه بنيانه . وكل بلد يزول عن الاعتدال ، انتسب أهله إلى سوء الحال(٣) .

هذه هى البيئة إذن — التى هى الوطن — ؛ قوة عارمة طاغية . وهذا هو أثرها على الإنسان — بل وعلى كل كائن حى . ملاءمة بينها وبينه . وأثر كبير على تكوينه ؛ فى جسمه وهيكله ؛ فى لونه ولغته ؛ فى تعبيره وخياله ؛ فى ذوقه وأدبه ؛ فى ما كله

---

(١) لجلج القوم . إذا وقعوا فى اللجة . ولجة القوم ، أصواتهم . واللجة واللجلجة : اختلاط الأصوات .

(٢) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك .

(٣) مروج الذهب للمسعودى : ٢ / ٦١ ؛ ٦٢ .

وملبسه ، فى عاداته وتقاليده ، فى نشاطه وخموله ، فى حله وترحاله ، وفى كل ما يمت له بصلة فى حياته . فهل لنا أن نقول : أن الحنين إلى تلك البيئة — التى هى الوطن — جزء لايتجزأ ، من كيان الإنسان ووجوده ، بعد الذى لاحظناه ؟!.

نقول ذلك ، إذا تذكرنا ما قلناه . وإذا تذكرنا — أيضاً — أنه قلما ذكر الشعراء ، والحكماء ، والعلماء ، والملوك ، والقواد — أهلهم وأسرهم فى حنينهم فى حين أن ما ذكروه ورددوه ، فى حنينهم إلى بيئاتهم وأوطانهم ، كان أغلب وأعم .

٣ — الحنين الى الوطن فى الأدب الإنسانى

الإنسان محب لبيئته ووطنه ، وهو متمسك بهذا الوطن ، يحن إليه ، ويدافع عنه ، ويبذل فى سبيله كل غال ورخيص ، للذود عن حياضه . وهذا الحب ، لم يكن مقتصراً على قوم دون آخرين ، أو مجموعة من البشر دون أخرى ، إنما كان عاماً مطلقاً — فيما نعلم — لم يخل منه أى أدب حى ، فى تاريخ الفكر الإنسانى .

والحنين إلى الوطن ، ظاهرة إنسانية عامة ، لايستطيع المرء التخلى عنها ، مهما بلغ رقيه الحضارى ، وتطوره المادى ، وسموه الروحى ، اللهم إلا فى حالات شاذة نادرة سيكون لها مكانها من هذا البحث — إن شاء الله . ومنذ وجد الإنسان ذاته فى وطن ، بين أهل وأصحاب ، آباء وأبناء ، شعر بقوة الرابطة التى تربطه بهم ، وبهذه البلاد التى شهدت خلقه وحياته ، وكانت مسرحاً لتطوراته النفسية والفكرية . ونحن نجد هذا ، فى أقدم ما وصلنا من آداب الأمم !.

فى الأدب الفرعونى[1] ، نلمس هذا فى قصة «سنوهيت» ، التى ألفت حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . يروى سنوهيت عن نفسه : أنه بينما كان يقاتل الليبيين ، تحت

---

(١) الأمة الفرعونية أمة عظيمة ، لها حضارة عريقة وآثار خالدة ، وتاريخ مجيد . شيدت إحدى عجائب الدنيا السبع — أهرامات الجيزة ، وخلدت أبا الهول وغيره من التماثيل ، وخلفت أدباً وفناً رقيقاً ، ولم يخل هذا الأدب من الحنين إلى الوطن .

إمرة ولى العهد « سنوسرت الأول » ، ورده الخبر بموت الملك « منمحات » ، فترك الجيش ، وهرب مسرعاً إلى الشام ، وهناك استقبل استقبالا حاراً ، من قبل ملكها ، وأتيحت له فرص إظهار بطولته وكيانه الاجتماعى ، واستطاع أن يعيش سعيداً فى فى ربوع الشام . لكنه سرعان ما حنّ إلى وطنه ، فترك كل شىء ، وعاد مسرعاً إلى مصر ، لأنه كأى إنسان آخر لايستطيع أن يدفن ، إلا فى البلد الذى ولد فيه . يقول سنوهيت .

كنت فاراً هـرب فى وقتـه
والآن يكتب التقرير عنى فى مقر المليك
وكنت ثقيلا يتضاءل بسبب الجـوع
والآن أقـدم الخـبز إلى جارى
وكنت رجلا ترك بلاده بسبب العرى
والآن أرتدى الملابس البيضاء والكتان
وكنت رجلا أسرع الخطى لعدم من أرسل
والآن أملك العبيـد بكثرة
بيتى جميل ، ومحـل إقامتى رحب
وإنى أذكر فى القصر الملكى

وأنت — يا أيها الإله — أيا كنت ، الذى أمرت بهذا الهرب ، كن رحيما ، وأعدنى ثانية إلى مقر الملك ، وربما تسمح لى أن أرى المكان الذى يسكن فيه قلبى ، والأمر الذى هو أهم من ذلك ، أن تدفن جثتى فى الأرض التى ولدت فيها (١) .

وفى الشوق إلى « منف » يقدم لنا الأدب الفرعونى قطعة زخارة بالعواطف ، التى يذكيها الحنين إلى الأوطان ، وفيها : تأمل ! إن قلبى قد ذهب خلسة ، وإنه ليسرع إلى مكان يعرفه ، وأنه يسبح منحدراً مع التيار ليرى « منف » — ولكن اجلس هنا منتظراً رسـولا ، ليخبرنى عن حال « منف » ، ولم تصلنى أية رسالة .

---

(١) الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة لسليم حسن : ١/٤٠ .

ولذلك يخفق قلبي في مكانه . تعال إلى يا « بتاح » لتأخذني إلى « منف » . ودعني أنظر إليك على عجل[1] .

وفي الأدب اليوناني[2]: نجد في نصوص الألياذة ذكرا للأوطان في أكثر من موضع ، ويبدو أن شخصيات الألياذة القوية ، كانت تستمد قوتها من حنينها إلى وطنها ، وتعلقها به . فهذا « أخيل »[3] وهو من شخصيات الألياذة الحكيمة المفكرة ، يظهر حنينه إلى وطنه ، كعامل نفسي قوي ، يدفعه إلى ترك الحرب ، والقفول إلى منازله ، وهو يعلم جيداً ، أنه أن غادر الحرب ، سيخسر « أغا ممنون » هذه الحرب . يقول أخيل — كما ترجم البستاني :

ساقلع راجعا ولدى خير أعاود موطنى وأحل دارى[4]

أنها الروح التي تتملك الانسان في حالة غربته ، فيتعلق بأوهى سبب يشفي غليله ، ويعود به إلى الوطن .

ونجد في « الأوديسا »[5] لهوميروس — أيضاً — حنينا إلى الوطن ، قوياً مؤثراً : يسلب لب القارىء ، ويشغف فؤاده . ففي مقطوعة من مقطوعات الأوديسا ، تحاول إحدى حوريات هذه الأسطورة ، أن تغرى « أوديسيوس »[6]

---

(١) المصدر السابق : ١/٣٦٧

(٢) والأمة اليونانية ، كأمة متحضرة ، بلغت الحضارة عندها درجة سامقة ، استطاعت أن تنقل إلينا رأيها في الحنين إلى الوطن ، مصوراً ذلك على ألسنة فلاسفتها وشعرائها ، ولا ننسى أن حروب طروادة قد وقعت بين وطنين من هذه الأوطان وكانت تذكيها العصبية الوطنيـــة ، تلك هي نصوص « الألياذة » التي خلدها « هوميروس » تدفعنا إلى تقرير ذلك .

(٣) أخيل ، وأخيل (Achilles) قيل في معناه حداد الجيش . وهو زعيم المرميدون .

(٤) الألياذة لهوميروس . ترجمة سليمان البستاني : ص ٢١٨ .

(٥) في الملحمة الثانية لهوميروس وهي كلها مغامرات ومخاطرات .

(٦) بطل من أبطال الأوديسا وأشهر أبطال الإغريق الصناديد كما كان يسميه الأغارقة لأنه كان يفوقهم في الصيت وبعد الشهرة .

بالبقاء إلى جانبها ، وعدم الرحيل إلى وطنه . لكنه يأبى ذلك . ويرفض حتى الخلود والشباب الأبدى ، الذى تمنيه بهما تلك الحورية . تقول الأوديسا فى الحديث عن أوديسيوس : « وبعد أيام ، قذفته الأمواج إلى ساحل أوجوجيا[1] ، جزيرة كالوبسو[2] ، فاستقبلته الحورية بكل ترحاب ، ثم هامت به وأبقته معها مدة تزيد على سبع سنوات ، ثم اشتاق إلى وطنه ، وكانت تنقصه السفينة والملاحون . فحاولت أن تثنيه عن عزمه ، بأن وعدته الخلود والشباب الأبدى ، إن بقى معها ، ولم يجد ذلك فتيلا . وأخيراً تشفعت له أثينا[3] عند زوس[4] . فأرسل هيرميس[5] . يأمر كالوبسو بمساعدته فى الرحيل ، فاشتركت معه فى بناء زورق سطحى ، وأمدته بالمؤن اللازمة للرحلة — — — »[6] .

ذلك « أخيل » فى الإلياذة ، وهذا « أوديسيوس » فى الأوديسا ، وكلاهما من بجنيه أساطير اليونان ، واتصلوا بآلهتهم ، ودخلوا فى صراع عنيف مع القوى المسيطرة على الكون وانتصروا فيها . هؤلاء العظماء الذى يجدهم الأدب اليونانى ، يقفون إلى صف العظماء اليونانيين ، الذين يجدهم تاريخ اليونان ، كالاسكندر المقدونى . يقفون إلى جانبهم فى صف واحد ، يلتهب فى قلوبهم الحنين إلى الوطن . ويعدون الوطن حياتهم ، مبدأهم ومعادهم .

ويروون أن الاسكندر المقدونى ، على عظمته ، وقوة بأسه ، وشدة بطشه ، كان وامقاً لوطنه ، وقد رسم لمن بعده من العظماء طريقاً . مؤداه أن الوطن هو الأول والأخير فى حياة الإنسان . ففيه يعيش ، وعلى ترابه يترعرع ، ومن أجله

---

(١) أوجوجيا : مدينة بجزيرة كالوبسو .

(٢) وكالوبسو : عروس البحر (قصة الأدب فى العالم ١ / ١٤٨) .

(٣) أثينا : الحورية التى عشقته .

(٤) زوس : إله من آلهتهم .

(٥) هيرميس : رسول الآلهة .

(٦) الأوديسا لهوميروس . ترجمة أمين سلامة : ١ / ١٨ — ١٩ : وقصة الأدب فى العالم للدكتور أحمد أمين وزكى نجيب محمود : ١ / ١٤٨ .

يقاتل ويحارب ، وفى ترابه يجب أن يوارى جدثه . لذلك نراه يوصى حين تحضره الوفاة ، أن يحمل فى تابوت ذهب إلى بلاده ، حباً فى وطنه(١) .

ويروون عن أفلاطون قوله : « غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها »(٢) . وقال : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ، فإن الطبيعة تتطلع لهوائها ، وتنزع إلى غذائها»(٣). هى الطبيعة إذن ، وطن الإنسان ، يولد فيها ، وفيها يجد شفاء لعلله ، ومتروحاً لآلامه .

ويروون عن جالينوس قوله : « يتروح العليل بنسيم أرضه ، كما تنبت الحبة ببل القطر»(٤) . فجالينوس إذن ، فى حكمته هذه ، يربط الإنسان بوطنه وأهله ، الذين هم دواؤه وملجأه . فكان الإنسان بين أهله ووطنه ، كالحبة التى لا تستغنى أبداً عن المطر .

ونستطيع أن نختم هـذا الحديث القصير ، فى الحنين إلى الوطن عند اليونان، بأبرز وأبلغ حديث نقلوه لنا عن فلاسفتهم ، إذ جعلوا حب الوطن ، يدخل فى صميم تركيب جبلة الإنسان . نقل الجاحظ والراغب الأصفهانى ، قول بعض الفلاسفة : « فطرة الرجل معجونة بحب الوطن »(٥) . وقديماً عقب الجاحظ على هذه النصوص المتواترة ، عن عظماء اليونان وفلاسفتهم ، ومدى تعلقهم بديارهم وأوطانهم ، فأكبر فيهم هذا الحنين ، وحلله تحليلا طريفاً ولمّح إلى أن الحنين إلى الوطن ، عاطفة جياشة ، لا تقف أمامها أية عاطفة أخرى : قال : « فهؤلاء الملوك الجبابرة ، الذين لم يفتقدوا فى اغترابهم نعمة ، ولا غادروا فى أسفارهم شهوة ، حنوا إلى أوطانهم ، ولم يؤثروا على تربهم ، ومساقط رءوسهم ، شيئاً من الأقاليم المستفادة بالتغازى ،

---

(١) رسائل الجاحظ : ٢ / ٤٠٩ ؛ ومطالع البدور : ٢ / ٢٩٢ .

(٢) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : ٢ / ١٨٨ .

(٣) رسائل الجاحظ : ٢ / ٣٨٧ ؛ والمحاسن والأضداد للجاحظ : ٩٣ ، والمحاسن والمساوىء للبيهقى : ٢ / ٣٢٦ ، وديوان المعانى للعسكرى : ٢ / ١٨٨ .

(٤) المصادر السابقة وصفحاتها نفسها .

(٥) رسائل الجاحظ : ٢ / ٣٨٧ ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى : ٤ / ٦٢٠ ،

والمدن المغتصبة من ملوك الأمم »(١) .

وفى الأدب الهيليني ، شعور دافق ، وحب عظيم للوطن ، وشوق وحنين إليه . يظهر هذا لنا جلياً عند الشاعر الرومانى سولون(٢) ، حينما يحتل جزء من بلاده — جزيرة سالامينا — فيجن جنونه ، ويطالب بالدفاع عنها ، وتحريرها من المحتلين ، ويصل به الحد ، إلى أنه يتمنى لو يستطيع تغيير وطنه ، والانتساب إلى غيره . وذلك لما أصابه من الذل والضيم ، ولكن أنّى له ذلك ! وهل له من وطنه فكاك ! وهو الشغوف به ، المضحى من أجله ، الداعى لتخليصه من المحتلين الدخلاء ؟! . قال : « ياليتى كنت أستطيع تغيير وطنى ، والانتساب إلى مدينة « فوليجندوس » ، أو إلى مدينة « سيكينوس » ، لأنى لا أحتمل أن يشير إلىّ الناس قائلين : « هذا هو أحد الأثينيين الذين تخلوا عن سالامينا . وأن تنتقل هذه الجملة من فم إلى فم » . ثم يختم قصيدته بهذه العبارة الملتهبة : « إلى الأمام ، إلى سالامينا ، لنقاتل من أجل تلك الجزيرة الفاتنة ، ولنطرد العار بعيداً عنا »(٣) . أرأيت إذن ، كيف يكون القتال والتضحية والفداء من أجل الوطن ، والدفاع عنه ، والعودة إلى ربوعه ، هو أمل الشاعر وما يدعو إليه !؟ :

أما الهنود والفرس ، فيكفينا أن نشير ، إلى بعض ما رواه قدماء العرب عن تعلقهم فى أوطانهم . قالوا : « قالت الحكماء : حنين الرجل إلى وطنه ، من علامات الرشد »(٤) . فجعلوا من علامة الرشد عند الرجل ، حنينه إلى وطنه .

---

(١) رسائل الجاحظ : ٢ / ٤٠٩ :

(٥) نود أن ننوه بأن هناك بعض الاختلاف فى رواية أحاديث الحكماء والعظماء كإضافة كلمة ، أو تغيير فى أخرى ، إلا أن المضمون واحد ، وقد اعتمدنا فى تثبيت النص هنا على أقدم المؤلفين فى هذا المجال وفيما يلى من نصوص .

(٢) ولد سولون فى أثينا فى بلاد الرومان حوالى سنة ٦٤٠ ق . م . وهو أحد الحكماء السبعة فيها .

(٣) الأدب الهيلينى للدكتور محمد غلاب : ٢ / ٦٠ .

(٤) ديوان المعانى : ٢/١٨٧ .

ورووا عن حكيمهم بزرجمهر[1] قوله : « من أمارات العاقل ، بره بإخوانه ، وحنينه إلى أوطانه .»[2] فجعل الحنين إلى الوطن ، أمارة من أمارات العقل عند الرجل . وقالوا لما غزا اسفنديار[3] بلاد الخزر ، اعتل بها ، فقيل له : ما تشتهى ؟ قال : شربة من ماء دجلة ، وشميا من تراب اصطخر . فأتى بعد أيام بماء وقبضة من تراب ، وقيل له : هذا من ماء دجلة ، ومن تربة أرضك . فشرب واشتم بالوهم ، فنقه من علته[4] : هكذا هى الحياة إذن . الموت فى الهجرة عن الدار والوطن ، والحياة الحرة الكريمة فى طواياها وفوق ترابها . ويروى لنا الجاحظ ، أن سابور[5] لما أسر ببلاد الروم ، قالت له بنت الملك — وكان قد مرض وعشقته — : ماتشتهى ؟ قال : شربة ماء من دجلة ، وشمة من تراب اصطخر ، فحمل إليه فبرأ[6] . وكذلك يروى الجاحظ رواية ثانية عن اشتياق اسفنديار إلى وطنه ، وأنه اعتل ببلاد الخزر ، فطلب شمة من تربة بلخ ، وشربة من ماء واديها - قال : « وحكى الموبذ[7] أنه قرأ فى سيرة اسفنديار بن يستاسف بن لهراسف ، بالفارسية ، أنه لما غزا بلاد الخزر ، ليستنقذ أخته من الأسر ، اعتل بها . فقيل له ، ما تشتهى ؟ قال : شمة من بلخ ، وشربة من ماء واديها[8] .

وكما روى الأقدمون عن الاسكندر المقدونى ، أنه أوصى بأن يحمل جدثه إلى بلاده ، كذلك رووا أن وهرز[9] بن شيرزاذ قد نقل جدثه إلى وطنه ، بناء على وصيته لابنه شيرزاذ . قالوا : « ولما افتتح وهرز بن شيرزاذ بن بهرام جور اليمن ،

---

(١) حكيم من حكماء الفرس ، وهو بزرجمهر بن البختكان كان وزير الأبرويز .

(٢) ديوان المعانى : ١٨٧/٢ .

(٣) قائد من قواد الفرس .

(٤) محاضرات الأدباء : ٦٢١/٤

(٥) هو التاسع من ملوك الساسانية . وهو سابور بن هرمز بن نرسى ابن بهرام .

(٦) رسائل الجاحظ ٤٠٨/٢ .

(٧) قاضى المجوس ، ورئيس الكهنة . فارسى معرب .

(٨) رسائل الجاحظ ٤٠٨/٢ .

(٩) وهرز قائد فارسى أرسله كسرى أنوشروان مع سيف بن ذى يزن الحميرى منجداً له على الحبشة .

وقيل ملك الحبشة المتغلب كان على اليمن (كذا) أقام بها عاملا لأنو شروان . فبنى بجران اليمن ، وهى أحصن مدن الثغور . فلما أدركته الوفاة ، أوصى ابنه شيرزاذ أن يحمل إلى أصطخر ناوس[1] أبيه ففعل به بعد ذلك[2] .

وقال أحد الحكماء — من الهنود أو الفرس : « الخروج من الوطن أحد السبايين ، والجلاء أحد القتلين[3] » . وقديماً قالت الهند : « حرمة بلدك عليك ، مثل حرمة أبويك . لأن غذاءك منهما ، وغذاءهما منه[4] » فالوطن هو الأول والأخير فى حياة الإنسان ، وللوطن حرمة يجب أن تصان ، أنها مثل حرمة الأبوين . وما الأبوان . وما الأبوان إلا بعض انتاج الوطن . وقال حكيم آخر ، من هؤلاء الحكماء ، وهو يفلسف الحنين إلى الوطن فى قول رقيق ، وأسلوب رائع : « الحنين من رقة القلب ، ورقة القلب من الرعاية ، والرعاية من الرحمة ، والرحمة من كرم الفطرة وكرم الفطرة من طهارة الرشدة ، وطهارة الرشدة من كرم المحتد[5] »[6] أنها طبيعة الإنسان ، الطبيعة الجيدة ، أن يحن الإنسان إلى وطنه ، لأن الحنين إلى الوطن من كرم المحتد . وجعل آخر الدار مهداً ، والوطن ظئرا حين قال : « أرض الرجل ظئره ، وداره مهده »[7] .

وقالت العجم : « من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة ، وإلى مسقط رأسها تواقة »[8] فالحنين إلى الوطن على هذا ، جزء لا يتجزأ من مدارك الإنسان ورشده . وقال حكيم آخر : احفظ بلداً رشحك[9] غذاؤه ، وارع حمى

---

(١) ناوس ، مدفن أو قبر . فارسى معرب .

(٢) رسائل الجاحظ : ٢/٤٠٩ .

(٣) ديوان المعانى : ٢/١٨٧ .

(٤) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٥ ، وديوان المعانى : ٢/١٨٨ .

(٥) المحتد : الأصل : يقال : هو كريم المحتد ، وهو كرام المحاتد .

(٦) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٦ .

(٧) ديوان المعانى : ٢/١٨٨ .

(٨) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٥ ، ومحاضرات الأدباء : ٤/٦٢٠ .

(٩) الترشيح التغذية والتربية .

أكتنك فناؤه ، وأولى البلد أن تصبابتك إليه ، بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه»[1].

فهذا أمر حكيم من حكيم « خبر الدنيا ، ورأى أن البلد يجب أن يصان ، وأن الوطن يجب أن يحفظ ، لأنه السبب فى وجود الإنسان ، ونشأته وترعرعه .

والأدب السريانى يقدم لنا نماذج من الحنين إلى الوطن ، خاصة ملحمة « أنشودة الروح»[2]، من شعر ابن ديصان .

ففى هذه الملحمة ، يحدثنا ابن ديصان عن ابن الملك الذى رحل إلى مصر بحثاً عن اللؤلؤة ، وما كان يقاسيه هناك ، من تشرد وغربة ، رغم أنه كان يحاول استخلاص لؤلؤة أرسله أبوه للحصول عليها ، لكنه لم يستطع أن ينسجم مع الجو المصرى رغم أنه قد تزيّا بزى المصريين ، وحاول جاهداً أن يتصرف مثلهم ، لكن أنّى له ذلك .

وفى أسطورة « أفريم»[3] ، يتجلى — أيضاً — هذا الشعور الذى دفع بهذا الرحالة إلى ترك مهماته ، شوقاً إلى الرّها وطنه الأصلى ، حيث عاد إليه ليموت فيه سنة ٣٧٣ م بعد أن طالت إقامته بمصر ، باعتباره أسقفاً مسيحياً .

وكثير من هذه الشواهد نجدها فى أساطير العظماء التى تروى عنهم .

أما العرب ومواقفهم من الحنين إلى الوطن . فقد بنينا رسالتنا هذه عليه . ووقفناها على الحديث عن الحنين إلى الوطن . فى فترة من فترات تاريخهم . وماذاك إلا لكثرة ماوجدناه فى أدبهم ممايتعلق بهذه العاطفة الجياشة . على أننا نوردهنا هذه الفقرات ، من مختلف عصور الأدب العربى ، القديم والحديث ، تمهيداً لتلك الفصول ، وتبييناً لمواقف العرب من الأوطان ، والحنين إليها .

فالأصمعى يحدثنا أحاديث طويلة عن ولع العربى بوطنه ، وتعلقه به . يقول :

---

(١) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٥ ، والمحاسن والاضداد للجاحظ : ٩٣ .

(٢) تاريخ الأدب السريانى للدكتور مراد كامل : ٦٤ — ٦٥ .

(٣) المصدر السابق ، ٧١/٧٢ .

« دخلت البادية ، فنزلت على بعض الأعراب . فقلت : أفدني . فقال : إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل ، وحسن عهده ، وكرم أخلاقه ، وطهارة مولده ، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وتشوقه إلى أخوانه[1] » .

والقرآن الكريم . يصور ظاهرة حب الوطن . والتمسك به ، تصويراً رائعاً حين يجعل الخروج من الدار كفء قتل النفس . قال الله تعالى : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ، أو اخرجوا من دياركم ، ما فعلوه إلا قليل منهم[2]) .

وانطلاقاً من تعاليم السماء ، رأينا الأنبياء ، عليهم السلام ، يحنون إلى الوطن . حدثنا الغزولي ، أن يوسف عليه السلام ، لما حضرته الوفاة ، أوصى أن يحمل إلى مقابر آبائه ، فمنع أهل مصر أولياءه . فلما بعث الله موسى عليه السلام ، وأهلك فرعون ، حمله إلى مقابرهم[3] .

وكذلك كان موقف يعقوب عليه السلام . يحدثنا الجاحظ فيقول : « مات بمصر ، فحملت رمته إلى إيلياء ، قرية بيت المقدس[4] » .

ويذكر الجاحظ أن بعضاً من بني اسرائيل كانوا يتمسكون بوطنهم في حياتهم ، وبعد مماتهم ، يقول : « ومن تمسك من بني اسرائيل — عليه السلام — بحب الأوطان خاصة ، ولد هارون ، وآل داود ، لم يمت منهم ميت في إقليم بابل ، في أي البلدان مات ، ألا نبشوا قبره بعد حول ، وحملت رمته إلى موضع يدعى الحصاصة بالشام ، فيودع هناك حولا ، فإذا حال الحول ، نقلت إلى بيت المقدس[5] » .

والرسول الأعظم ، عليه الصلاة والسلام ، كان كثير الحنين إلى مكة — وطنه —

---

(١) مطالع البدور ، ٢/٢٩٢ .
(٢) سورة النساء : ٦٦ .
(٣) مطالع البدور : ٢/٢٩٢ .
(٤) رسائل الجاحظ : ٢/٤١٠ .
(٥) المصدر السابق : ٢/٤١١ .

حتى أنه تغرورق عيناه ، حين يسمع أبانا[1] يصف له مكة ، ويقول — حين يسأله الرسول : كيف تركت مكة ؟ — «تركتهم وقد حيدوا[2] ، وتركت الأذخر[3] وقد أغدق[4] ، وتركت الثمام[5] وقد خاض[6] » . وله عليه الصلاة والسلام مواقف أخرى فى الحنين إلى الوطن — مكة — سوف نذكرها فى مظانها .

وفى الشعر الإسلامى تستمر ظاهرة الحنين إلى الوطن . وفى أمالى المرتضى : لشاعر من نجد ، قوله[7] :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة … بإسناد نجد وهى خضر متونها[8]

وهل أشربن الدهر من ماء مزنة … بحرة ليلى حيث فاض معينها[9]

بلاد بها كنا نحل فأصبحت … خلاء ترعاها مع الأدم عينها

تفيأت فيها بالشباب وبالصبا … تميل بما أهوى على غصونها

فالشاعر يتمنى ، أقصى ما يتمنى أن يبيت ليلة بنجد ، موطنه . وأن يشرب شربة

---

(١) صحابى جليل.

(٢) حاد عن الشىء : مال عنه وعدل ، وهنا حيدوا : أى عدلوا عن الصواب وتركوا الجادة .

(٣) الأذخر : نبات طيب الريح .

(٤) أغدق : أخصب ، والغدق : المطر الكثير .

(٥) الثمام : كغراب : نبت ، يستعملونه لإزالة البياض من العين . واحدته بهاء ويقال : « بيت مثموم » : أى مغطى بالثمام . ويقال لما لا يعسر تناوله : « على طرف الثمام » ، لأنه لا يطول .

(٦) مطالع البدور ، ٢٩٢/٢ .

(٧) أمالى المرتضى : ١٥١/١ .

(٨) المتون : جوانب الأرض فى إشراف .

(٩) ماء مزنة ، وحرة ليلى : موضعان .

ماء من ماء المطر قيها . ثم أنظر إلى هذه الحسرة التي تبعثها في نفس القارىء عبارته : بلاد بها كنا نحل و ـــــ ، ثم انظر كيف يتذكرها مقرونة بأسعد أوقات حياته ، يتذكرها مقرونة « الشباب وبالصبا » .

وقريب من هذا ما نراه ، في قصائد جاهلية وإسلامية كثيرة ، عن الوطن ، والحنين إلى الوطن ، وإلى البلاد ، ومن سكن البلاد . والديار ، وما في الديار من ذكريات الصبا والشباب .

واستمر هذا الحنين ، قوياً طاغياً ، رغم تطور الحضارة ، والهجرة الواسعة إلى الأقاليم والحواضر . ففي كثير من القصائد العباسية ، يتجلى الحنين إلى الوطن ، جلاء مابه غموض . وما قول أبي تمام[١] :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

إلا صرخة تذكيها عوامل الحنين والشوق إلى الوطن التي نجدها واضحة جلية في جمهرة الدواوين العباسية[٢] .

---

(١) ديوان أبي تمام : ٣/١٥٧ .

(٢) نجد هذا في قصيدة عوف بن محلم الخزاعي حين يقول : (طبقات ابن المعتز : ١٨٧) .

أفي كل يوم غربة ونزوح أما للنوى من ونية فتريح

وقصيدة أبي نواس حين يقول : (ديوان أبي نواس : ٤٧٦) :

ذكر الكرخ نازح الأوطان فصبا صبوة ولات أوان

وقصيدة سعيد الخالدي حيث يقول : (ديوان الخالدين : ١٤٥)

انا لنرحل والأهواء أجمعها لديك مستوطنات ليس ترتحل

وقصيدة ابن المعتز حين يقول : (ديوان ابن المعتز : ٢٦٦)

سقيا لدار بنهر الكرخ من دار تركت فيها لباناتي وأوطاري

ولا يغرب عن البال ، أن العربى حين فتح الأندلس ، كان شعر الحنين عنده ، أصدق عاطفة ، وأشد لوعة ، خاصة حين يذكر أهله ودياره فى المشرق العربى ، وبلاد الشام . حتى إذا ما طال استيطان العرب الأندلس ، وتعاقبت أجيالهم فيها ، ظهر شعر الحنين إليها ، داراً بديلة عن المشرق . ولله در ابن خفاجة حين يقول[1]:

إن للجنة بالأندلس ‏ مجتلى مرأى وريا نفس

فسنى صبحتها من شنب ‏ ودجى ظلمتها من لعس[2]

فإذا ما هبت الريح صبا ‏ صحت: واشواقى إلى الأندلس

وفى شعر أبى بن عمرو بن مالك، يسقط سبب من أسباب الحنين إلى الوطن، ذلك هو تذكرة هذا الوطن ، بفعل ما يشوق هذا التذكر ، كالبرق ، والورق ، وصوب الغمام ، قال[3] :

أشجاك النسيم حين يهب ‏ أم سنا البرق إذ يخب ويخبو؟[4]

= وقصيدة العباس بن الأحنف حين يقول : (ديوان العباس بن الأحنف : ٢٦٩) :

ونازح الدار أفنى الشوق صبرته ‏ أمسى يحل بلاداً غيرها الوطن

وقصيدة أبى العلاء المعرى حين يقول : (ديوان سقط الزند : ١٤٤) :

ومن لى بأنى فى جناح غمامة ‏ تشبهها فى الجنح أم رئال

وقصيدة أبى بكر الأزدى حين يقول : (ديوان أبى بكر الأزدى : ١٠٩) :

أمن نحو العقيق شجاك برق ‏ كأن وميضه رجع الجفون

وقصيدة أسامة بن منقذ حين يقول : (ديوان أسامة بن منقذ : ٥٨) .

كتم الجوى القلب القريح ‏ فأذاعه الدمع النضوح

وغير ذلك كثير . . .

(١) الحلل السندسية لشكيب أرسلان : ١/٢٤٣ .

(٢) اللعس واللعسة : سواد يعلو شفة المرأة البيضاء ، وقيل هو سواد فى حمرة.

(٣) الحلل السندسية : ١/١٨٩ .

(٤) الخب : الفساد ، والخب : هيجان البحر واضطرابه ، وكأن البرق يهيجه.

أم هتوف على الأراكة تشدو　　　أم هتوف من الغمامة سكب؟

كل هذاك للصبابة داع　　　أي صب دموعه لا تصب؟

أنا لولا النسيم والبرق والور　　　ق وصوب الغمام ما كنت أصبو[1]

ذكرتني شلبا وهيهات مني　　　بعدما استحكم الأمر شلب[2]

وفي الأدب العربي الحديث، تظهر أشعار الحنين إلى الرقاع المختلفة من الوطن العربي. فالشاعر العربي العراقي — مثلا — حين يرحل إلى جزء من العالم العربي، نراه دائم الحنين إلى العراق، كما فعل الكاظمي في شوقه إلى العراق، وإلى الانبار، وإلى كل ديار بغداد. نستطيع أن نذكر مثالا على هذا، قوله[3]:

جوى أودى بحليك أم وجيب　　　غداة حدا بك الحادي الطروب

بعدت عن الديار وصرت تدعو　　　على البعد الديار، ولا مجيب

تشد الرحل من بلد لأخرى　　　وما لمناك من بلد نصيب

وفي مصر أراك وأنت لاه　　　وقلبك في العراق جوى يذوب

وأصبو للحمى بجميع قلبي　　　كذا فليصب للوطن الغريب

سقى الأنبار كل أجش هام　　　وجاد الكرخ ماطره الصبيب

في هذه الأبيات، يصور عبد المحسن الكاظمي بعاده عن بغداد، وشوقه إليها، تصويرا يملك علينا أنفاسنا، ويستملك قلوبنا. ولا غرو، لأنه حنين

---

(١) الورق: السمرة، أي الأحدوثة في الليل.

(٢) شلب: مدينة الشاعر.

(٣) الحنين والغربة: في الشعر العربي الحديث للدكتور ماهر حسن فهمي: ٣٩ — ٤٠.

صادق ، ينبعث من قلب مكلوم ، ومشاعر حزينة ، تظهر اللهو فى مصر ، وتذوب اشتياقاً إلى بغداد .

وفى أندلسيات شوقى ، يضطرم الحنين إلى الوطن . ولا عجب فقد نفى عن بلده مصر إلى الأندلس . ويتجلى أحلى شعر شوقى حين يقول من قصيدة(١) :

يا ساكنى مصر أنا لا نزال على ... عهد الوفاء وأن غبنا مقيمينا

هلا بعثتم لنا من ماء نهركم ... شيئاً ، نبل به أحشاء صادينا

كل المناهل بعد النيل آسنة ... ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

وأبيات شوقى هذه ، وإن كانت بعض معانيها تذكرنا بما قاله الشاعر العربى القديم ، أبو القمقام الأسدى(٢) :

اقرأ على الوشل السلام وقل له ... كل المشارب مذ هجرت ذميم(٣)

جبل يزيد على الجبال إذا بدأ ... بين الربائع والجثوم مقيم(٤)

سقيا لظلك بالعشى وبالضحى ... ولبرد مائك والمياه حميم

لو كنت أملك منع مائك لم يذق ... ما فى قلاتك ـ ما حييت ـ لئيم(٥)

نقول : إن أبيات شوقى هذه ، وإن أعادت علينا بعض المعانى العربية القديمة ، إلا أنها تهزنا ، وتهز كل قارىء رقيق الحس ، لما تحمله من العواطف الجياشة الصادقة فى ثناياها .

---

(١) أندلسيات شوقى : للدكتور صالح الأشتر : ٢٣ .

(٢) من حديث الماء فى الأدب العربى . مقال للدكتور جميل سعيد بمجلة المجمع العلمى العراقى : ١٢ / ١٩١ .

(٣) الوشل : ماء لبنى سلول بن عامر بن صعصعة .

(٤) الجثوم : الأكمة .

(٥) القلت والقلات : حب يثقب فى الصخر .

ثم أن شوقي ، انطلاقاً من حنينه الطاغي إلى وطنه . يقول قوله الخالد :

وطني لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني إليه في الخلد نفسي

وأخيراً نشير إلى شعر الذين طردوا من ديارهم ، والذين يظهر شعر الحنين عندهم ناراً مشتعلة ، وعاطفة جياشة ، شوقاً الى الديار السليبة ، والوطن المغتصب . نشير الى شعراء وطني « فلسطين » ، الذين ذابت قلوبهم من حرارة الشوق ، الى حيفا ويافا والجليل . انها اللوعة والحسرة ، والتعب المضني ، والعواطف المشتعلة ، يصورها محمود الحوت حين يخاطب يافا ، وقد جفت دموعه ، وهو يتساءل عنها وعن شقيقاتها ، قال(١) :

يافا ، لقد جف دمعي فانتحبت دما   متى أراك ؟ وهل في العمر من أمد!

كيف الشقيقات ، وأشواقي لها مددنا   كأنها قطع من جنة الخلد

ما حالها اليوم يا يافا وهل نعمت   من بعد أن سلمت أمساً يداً بيد

وكيف من قد تبقى في مرابعها   وقد تركناه فيها ترك ملتحد

تعبت لكنني ما زلت في تعبي   أشكو إلى الله ، لا أشكو إلى أحد

وشعر المهجر قريب في تمثيله للشعر الاندلسي ، من حيث أن الشعراء قد هاجروا من دار إلى دار ، وتركوا ذكرياتهم وأهليهم ، واستوطنوا دياراً أخرى باختيارهم ، وإرادتهم ، ومع ذلك ظهر في شعرهم حنين الى أوطانهم . لا نستطيع أن نغفله . لما فيه من فن جذاب ، وشاعرية أخاذة ، وروح ظامئة الى تربة الوطن ، إلى العناقيد والدوالي ، الى الروابي والعصافير ، الى الأقاحي وشذاها . يقول إيليا أبو ماضي(٢) :

لكن أمنية بنفسي   يسترها الخوف والحياء

---

(١) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث : ٨٧ .

(٢) ديوان الخمائل : ٦٨ — ٦٩ .

فقال : ياشاعراً عجيباً   قل لى إذن ما الذى تشاء

فقلت : يارب فصل صيف   فى أرض لبنان أو شتاء

فانى هاهنا غريب   وليس فى غربة هناء

تحن نفسى إلى السواقى   إلى الأقاحى إلى الشذاء

إلى الروابى تعرى وتكسى   إلى العصافير والغناء

إلى العناقيد والدوالى   والماء والنور والهواء

ولا نكاد نجد ديوان شاعر من شعرائهم ، إلا ونرى الحنين إلى الوطن يطلع عليك من كل ناحية فيه (١) .

ومع مرور الأيام ، وبتطور الأزمان ، نجـــد أن الإنسان قد تطور تطوراً ملحوظاً فى شتى جوانبه الروحية ، والمادية . والفكرية ، إلا أن عواطفه وانفعالاته بقيت هى هى ؛ فهو يطرب للجميل ، ويستشعر الكمال ويحبه ، وينزع إلى المثل الأعلى فى شتى جوانب حياته ، ويحن إلى وطنه كلما اغترب ، كما كان القـــدماء يحنون إلى أوطانهم ، وسندرس فيما يلى بعض القصائد الأجنبية الحديثة . لنرى صدق هذه الحقيقة .

فى الأدب التركى ، نجد ناظم حكمت يصدر ديوانه المعروف « يا لحياة المنفى من مهنة شاقة »(٢) ويكرس قصائد هذا الديوان للحديث عن الوطن والغربة ، وما تمليه هذه الغربة على الإنسان من مشاعر الأمل والألم . فينظم فى ستوكهولم « شجرة الحور »(٣) يصف فيها شجرة فى ماء اسطنبول ، التى يتأملها الناس فى الليل ؛ دون كلل أو ملل . ويتخيل أن شجرة الحور فى اسطنبول قد حلت فى بدنه ، وكأنها ترتعش فى ذاته ؛

(١) أنظر ديوان الياس فرحات ، ورشيد أيوب ، ونسيب عريضة ، وأمين مشرق وغيرهم .

(٢) ظهر ترجمتان لديوان ناظم حكمت . الأولى بالعنوان المذكور ، ترجمة الدكتور أكرم فاضل ، وهى التى اعتمدنا عليها . والثانية بعنوان : أغنيات المنفى ، ترجمة محمد البخارى .

(٣) الديوان : ٢٤ .

وهو يسمع صوتها دون انقطاع . كذا تحيل الغــربة الأشياء فى ذهن الغريب ! .
ويخال شجرة الحور ديدبان الليل ، ويخلص من ذلك كله ، إلى أنه أحب وطنه حباً ليس عليه مزيد ، ولكن ما جدوى ذلك الحسب يا أيها الوطن ؟ ! .

وفى « رسالة من بولونيا »(١) يرسم الشاعر صورة أحد أجداده بالمنفى،وقد جن لأنه لن يزور وطنه مرة أخرى :

وفى « الظهيرة »(٢) يصف حالته وحيداً فى أحد ميادين المدينة القديمة ، وقد برح به الحنين بعيداً عن وطنه ، فلا يملك إلا أن ينظر حالما إلى ما حوله .

وليلا ، فى « منزل الدكتور فاوست »(٣) يصرخ الشاعر « كفانى ما أعانى » ! :
ويتمنى أن يذهب إلى اسطنبول ساعة واحدة فقط ! .

وفى « نمت »(٤) يخاطب وطنه ، ويتمنى أن يسمعه وطنه .

وأخيراً نحن مع « رثاء شيطان » وفيها لقاء مع أحد الأدباء ، وكيف أنه كان يشتهى أن يكاشفه ما يختلج به قلبه ، وكان صديقه يحدثه عن المشاكل الكبرى ، عن عن الجوع والتخمة ، عن الحب ، عن الاقتصاد والسياسة ، والاجتماع لكن صديقه هذا « لم يعان أبداً محنة الحنين إلى الوطن » .

وناظم حكمت يصرخ : « آه يا وطنى » ! حتى لو وضعوه فى الجنة فى غربتـه وبعده عن وطنه . والآن نحن مع مقطع من هذه المرثية الرائعة (٥)

كان يحنى وقبته الكثيفة
أمام الصـــداقة
وكانت حريته قائمة
فى أنيابه ومخالبه
وكان أدبه قائمـــاً
فى ذيله الطويل الكثيف
وكنا نشتهى أن نتكاشف

---

(١) الديوان : ٧٤ . (٢) الديوان : ١١٤ .
(٣) الديوان : ١٢٠ . (٤) الديوان : ١٣٢ .
(٥) الديوان : ٥٦ .

وكان يحدثني عن المشاكل الكبرى
عن الجوع والتخمة والحب
ولكنه لم يعان أبداً
محنة الحنين إلى الوطن
فتلك حالة خاصة بى وحـــدى
لقد وضع الشاعر فى الجنة
فصرخ آه ياوطنى !
ومات !

ولست أريد أن أفيض فى الحديث فى هـــذه المقدمة عن الحنين إلى الوطن فى الآداب ، ولكنى أن أقول ، بأنك لاتجد أدباً لأية أمة من الأمم الحديثة[1] ، بل والقديمة ، الاوترى عاطفة حب الوطن هذه تشيع فيه ، وتلهب عواطف الشعراء ، فتنطقهم بالشعر الحار المؤثر . وتظهر روعة هذا الشعر ، وجماله عند قراءته باللغة التى كتب بها ، إذ أن الشعر ، أى شعر ، يفقد الكثير من تأثيره فى النفس عنـــد ترجمته إلى لغة أخرى .

---

(١) فى الأدب الانجليزى الحديث انظر قصيدة «توبياس سمولت» التى يقول فيها «حداداً كالدنيا التعيسة» ، حداداً » بكتاب قصة الأدب فى العالم : ٢ / ٣٩٤ ،
وفى الأدب الفرنسى أنظر كراسة «العودة إلى الوطن الأم» لإيميه سيزير ، بكتاب إيميه سيزير لليان كيستولت ، ترجمة أنطوس حمصى ص : ٩٠ .
وفى الأدب الرومانى أنظر قصيدة أوجنيو مونتال التى مطلعها «وقتنا حيث كانت الأرصفة الخشبية» . بكتاب : قصائد مختارة من الشعر العالمى ، ترجمة بدر شاكر السياب ص : ٤٤ .
وفى الأدب الاسبانى : أنظر قصيدة بابلو نيرودا ، التى مطلعها «سقسأين ، أين هى الزنابق الليلكية» بكتاب بابلو نيرود الجبال مرسيناك . ترجمة أحمد سويد ص ١٥٨ .
وفى الأدب البلجيكى ، أنظر قصيدة أميل كامبير ، التى مطلعها «أنه صوت بداية» بكتاب قصـــائد مختارة من الشعر العالمى .

٤ ـ العرب والشعر

إن الإنسان إذا ما شعر بالحب أو الكره ، بالاستحسان أو الاشمئزاز ، نحو أمر معين ، إنما يكون هذا ناتجاً عن العاطفة الإنسانية ، التي تتحكم في المشاعر والأحاسيس .

والإنسان العربي ، ذو عاطفة قويه ، نظراً لما عرف عنه من رقة الإحساس ، وسرعة الخاطر[١] . وكان لابد له من التعبير عن هذه العاطفة ، ولما كانت الأمة العربية أمة شاعرة لأنها مرهفة الحس متدفقة العاطفة ، يضاف إلى هذا أن لغتها لغة شاعرة[٢] ، ومن هنا كان البيان من أبرز صفات هذه الأمة[٣] ، وعلى ذلك فلم يكن لهذا الإنسان العربي إلا أن يصور عاطفته ، ويعبر عنها شعراً ، وذلك لأن الشعر انفعال نفسي ينفس به المرء عن نفسه ، شأن البكاء ينفس به عن أحزانه ، وشأن الضحك يعبر به عن فرحه وسروره[٤] ، لأن « الشعر لغة الوجدان »[٥] وقد جاء تصوير العرب لعواطفهم بأشعارهم ، رائعاً جميلا ، وكان سجلا حافلا ، حفظته لنا أشعارهم المنظومة ، وقديماً فطن ابن رشيق إلى هذا ، فقال : « وكان الكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبنائها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه ، سموه شعراً ، لأنهم شعروا به ، أي فطنوا[٦] . فهذا سبب آخر ، يضيفه ابن رشيق ، لنظم الشعر — إضافة إلى التعبير عن العواطف والانفعالات

---

(١) تنظر محاضرات أستاذنا الدكتور جميل سعيد عن « العرب والشعر » .

(٢) اللغة الشاعرة لعباس محمود العقاد .

(٣) العرب والشعر محاضرات الدكتور جميل سعيد .

(٤) الشعر والإنشاد للدكتور جميل سعيد مجلة المجمع العلمي العراقي ١٤/٥٨ — ٥٩ .

(٥) المصدر السابق عن كتاب قصة الأدب في العالم للدكتور أحمد أمين والدكتور زكي نجيب محمود ، ١٤/٥٨ .

(٦) العمدة لابن رشيق : ١/٧ — ٨ .

النفسية — فهو للتغنى بالأمجاد ، وعراقة الأجداد ، وللفخر والاعتزاز ، وللحديث عن مكارم الأخلاق ، ولذكر الأوطان النازحة والبكاء عليها — وقبله قال الجاحظ : « وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها ، بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها(١) » .

فالشعر . إذن هو تعبير عن العواطف ، والمشاعر ، والأحاسيس . وهو أيضاً سجل خالد لتراث العرب وأيامهم . ولما كانت عاطفة العربى نحو وطنه ، قوية طاغية وحبه له عظيما ، ودفاعه عنه دفاع المستميت ، وشوقه إليه كبيراً فى وقت البعاد والحنين ، فقد حفظ لنا هذا السجل أشعار العرب فى حنينهم إلى أوطانهم وديارهم ، إذا ما انتقلوا منها أو اضطروا إلى الهجرة عنها .

والملاحظ لهذا لا يخطئ تبين السمة الغالبة ، على العصر الجاهلى ، من ناحية أسلوب الحياة ، فهى حياة بدوية كما سبق أن بينا . وها نحن أولاء ، مع شعرنا العربى ، دراسة وتحليلا ، متبعين المنهج الذى رسمناه من قبل ، فى دراسة شعر البادية ، وشعر الحاضرة . كل على حدة .

* * *

٥ — العرب والوطن

بينا فى دراستنا الإنسان والوطن ، أن ارتباط الإنسان بوطنه ، وحبه له ، وتمسكه به ، ظاهرة إنسانية ، ملازمة له فى مختلف الأزمان ، وعلى مر العصور ، وفى كل البيئات والأوطان . وذلك للأسباب القوية الدافعة ، التى توصل الإنسان بوطنه . فكان لها الأثر الكبير فى تكوينه العضوى ، وتفكيره النفسى ، وإنتاجه العقلى . وهذه الأسباب هى التى أثرت فى لونه ، ولغته ، ومأكله ، وملبسه ، وعاداته ، وتقاليده . ومن هنا ارتبط الإنسان بها ارتباطاً لا ينفصم ، وأحبها حباً لا يزول ، وحن إليها حنيناً لا ينقطع .

والإنسان العربى ، وهو بفطرته ذو عاطفة قوية ، وإحساس مرهف . وشعور

---

(١) الحيوان للجاحظ : ٧٢/١ .

رقيق ، وخيال دافق ، امتاز بحبه لوطنه ، فتمسك به ، واستبسل فى الدفاع عنه ، وحنّ إليه ، وعبر عن ذلك بنصوص أدبية رائعة مؤثرة ، سيرد ذكرها فيما بعد .

عاش هذا العربى ، فى شبه الجزيرة العربية ، فى ديار مع قبيلته ، يستقر أينما استقرت ، وينتقل أينما انتقلت — وما سنة الحياة فى صحراء قاحلة ، إلا التنقل من مكان لآخر ، وراء العشب والكلأ والماء . وكان جل العرب بدواً رحلا ، يتنقلون فى البادية وراء عيشهم . ومع ذلك ، فإننا لا نفتقر إلى وجود من استقروا فى مراكز وبقاع حضرية ، كان فيها استقرار دائم وحياة ثابتة ، كيثرب ، ومكة ، ونجران ، والحيرة . وكان لكل من هذين المجالين ، البدو فى باديتهم ، والحضر فى حاضرتهم ، وطنه الذى يعيش فيه ، ويحبه ، ويحن إليه .

ووطن البدو غير وطن الحضر . وفى لسان العرب : « بدأ القوم بدوا ، أى خرجوا إلى باديتهم ، والبداوة : الإقامة فى البادية[1] » . فوطن البدو هو البادية .

والحضر والحاضرة : المدن والقرى والريف . والحاضر : المقيم فى المدن والقرى[2] . فالحضر إذن ، هم أهل الإقامة الدائمة فى مكان ما ، أقاموا فيه ، أى استقروا وكونوا المدن والقرى ، وعاشوا فيها حياة دائمة ، لا يبرحون ديارهم ، ولا ينتقلون منها ، وهى وطنهم .

وهذا الفرق بين وطن البدو ووطن الحضر ، كان له أثره فى طبيعة ارتباط كل منهما بوطنه ، وطبيعة الأسلوب الذى حن إليه فيه .

فالبدو قوم رحل ، دائمو التنقل ، لا يقر لهم قرار ، فى مكان معين ، إلا أنهم يحصرون تنقلهم فى محيط محدود ، لا يخرجون عن نطاقه ، إلا فى حالات قليلة نادرة ، وظروف طارئة قاهرة . فكان هذا المحيط ، هو وطنهم الكبير ، الذى يكنون له الحب فى قلوبهم ، والتقدير فى نفوسهم . ولما كان البدوى رقيق العاطفة ، مرهف الشعور ، دقيق الاحساس ، فإننا نراه يتمسك بكل بقعة حل فيها ، ويحن إلى كل ديار أقام بين جنباتها ، ويبكى ويستبكى — حينما يمر بأطلال دياره ، وديار أهله — على أيامه السالفة .

---

(١) لسان العرب : ١٤/ ٦٧ .

(٢) المصدر السابق : ٤/ ١٩٧ .

والبدو أسبق من الحضر، وأقدم منهم، وقد تحدث ابن خلدون فى هذا، حديثاً رائعاً مفصلا، بيّن فيه . بأسلوب علمى ومنطقى، التطور الطبيعى للبشر، وسنّة الحياة فيه، وأن الإنسان بدوى فى نشأته، حضرى فى طموحه وتطوره؛ ينتقل من البادية إلى الحاضرة . ولما فى الحاضرة من سبل الراحة والرفاهية ورخاء العيش، فالإنسان مدنى بالطبع، يصبو دائماً نحو الأفضل — كلما سمحت له الظروف (١) .

ولهذا فإنه من الطبيعى، أن يكون شعراء العصر الجاهلى كلهم — أو جلّهم — من البدو . وقلما وجدنا شاعراً حضرياً بينهم، ذلك لأن الحياة بدوية فى أصلها، حضرية فى فرعها وتطورها . وهذا عكس ما نراه فى العصور المتأخرة عن العصر الجاهلى، فكلما تقدم بنا الزمن، كلما كانت القلة فى شعراء البدو، والكثرة فى شعراء الحاضرة، وذلك نتيجة لتطور الحياة، وتعمير البلدان، وبناء المدن، والاستقرار فيها، فبنيت البصرة فى عصر صدر الإسلام، وازدهرت مكة والمدينة فى الحقبة ذاتها . وازدهرت دمشق فى العصر الأموى . وبنيت بغداد فى العصر العباسى، وازدهرت الحضارة فى العصر نفسه . وإذا بالآية منقلبة فى هذا العصر، فأصبحنا نرى فيه كل الشعراء — أو جلهم — من الحاضرة، وقلما وجدنا شاعراً بدوياً، وإن وجد فقد تحضرا . إنها سنة الحياة، وسنة التطور فيها ! .

وقد آثرنا فى دراستنا للشعراء أن نقسمهم قسمين: البدو : سكنة البادية، والحضر: سكنة الحاضرة . وأن ندرس أشعارهم فى الحنين إلى الوطن فى ضوء هذا التقسيم .

على أن هناك بعض الظواهر، فى الأدب العربى، التى لا تتسق مع ما عرفناه، من حب العربى لوطنه، وحنينه إليه — ذلك الحب . الذى دفعه إلى اعتبار الوقوف على الأطلال، وذكرها، وسفح الدموع على آثارها ودمنها . وهذا ما نجده فى غالب الأحيان — فى الكثير من قصائده التى ينظمها، فى أى غرض كان ذلك النظم . فتعلّق مثل هذا التعلق، وولع مثل هذا الولع، والتزام بذكر الديار والأوطان، مثل هذا الالتزام، يدفعنا أن نقرر، أن حب الوطن، كان متغلغلا بعمق فى نفس العربى . على أننا نجد أيضاً مع هذا كله دعوة إلى الهجرة عن

---

(١) تاريخ ابن خلدون : ١ / ٢١٠ وما بعدها .

الوطن ، وترغيباً فى تلك الهجرة . فطبيعى جداً ، أن يغادر العربى أرضه ، وأن يحن إليها . غير أنه من غير الطبيعى — أبداً — أن يهجر العربى أرضه ، ويدعو إلى الرحيل عنها ، ويرغب فى ذلك الرحيل ، إلا أن تكون هناك دوافع قاسية قاهرة تدفعه إلى اتخاذ ذلك الموقف .

أنها ظاهرة جديرة بالدراسة ! لماذا يغادر العربى أرضه ؟ لاشك أنه يغادرها مكرهاً ، لأن نمط حياته يتطلب ذلك . فالصحراء العربية تفرض على القبيلة العربية ، التنقل جرياً وراء الكلاء والعشب والماء . كما أن الحياة الصحراوية تفرض على العربى ، أن يمر بدياره التى قضى شطراً من عمره فيها ، فيذكر فيها أيامه وذكرياته التى خلت ، فتنهل دموعه شآبيب ، ويصور ذلك فى قصائده . وهذا ما نتفق به مع سائر الباحثين . لكن الظاهرة الأخرى ، ما هى أسبابها ؟ وإذا كان الشاعر مكرهاً على الهجرة والرحال والتنقل ، فهل من المعقول أن يرضى بهذا الذى أكره عليه ، بله أن يدعو إليه ، ويرغب فيه ؟ هذا ما نود الوصول إليه ، والبحث عن أسبابه ودوافعه .

فالملك الضليل (امرؤ القيس) يهاجر من دياره ، ويغادر وطنه ، والألم يحز فى نفسه ، لكنه يتأسى ، لأن الهجرة مفروضة عليه فرضاً ، بعد أن غدرت به قبيلته ، فيبكى صاحبه ، لكن امرؤ القيس لا يبكى ، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك ، حين يفلسف هذه الهجرة ، ويجد لها مبرراتها ، التى تجعلها متوافقة مع حبه الشديد للوطن وتعلقه به ، ووقوفه عليه ، وبكائه على ما حل به من فناء وضياع معالم ، قال[1] .

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

فالسبب واضح ، وأنه لسبب قاهر .

والأعشى . صناجة العرب ، من المتكسبين بالشعر ، كثير الهجرة والترحال . بسبب تكسبه بالشعر ، لكنه بين الفينة والفينة ، كانت تنتابه حالات نفسية تعذبه .

---

(١) ديوان امرئ القيس : ٦٥

وتؤرقه ، لأنه بعيد عن وطن ، وعن ذكريات قديمة ، تربطه به وبها ، قال(١) :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ... وما بي من سقم وما بي معشق

أنه مؤرق . لكنه لا يدري لماذا . فليس حزيناً ، وليس عاشقاً . لكنه مع هذا أرق . وقد زعم الأوائل أن كسرى لم يعرف له سبباً ، إلا أن يكون لعباً . على أننا نظن بقوة ، أن سبب هذا الأرق ، يعود بالدرجة الأولى ، إلى كونه بعيداً عن وطنه ودياره وأهله . أنها انفعالات نفسية تطفو على السطح ، دون أن يعرف الشاعر لها سبباً .

وهناك فريق من الشعراء ، لم يدعوا إلى الهجرة بصراحة ، لكنهم امتدحوا أنفسهم لأنهم يجوبون الآفاق . وإذا ما شعروا بأن كرامتهم قد أهينت في وطن ، شدوا رحالهم إلى وطن آخر ، غير مبالين بشيء ، اللهم إلا تحقيق وجودهم الإنساني . قال جرير(٢) :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى ... سريع إذا لم أرض داري انتقاليا

وقال سويد بن أبي كاهل(٣) :

ما سويد غير ليث خادر ... قد نمدت أرض عليه فانتجع

وإن كنا ننسى ، فلا ننسى موقف تأبط شراً ، حين يمتدح نفسه في قصيدته .

يا عيد مالك من شوق وإيراق ... ومر طيف على الأهوال طراق

بأنه جواب آفاق ، لا تستقر به الأرض ، إلا ريثما يستعد لهجرة جديدة ، وغزوة من غزوات الصعاليك(٤) :

حمال ألوية شهاد أندية ... قوال محكمة جواب آفاق

فذاك همي وغزوي أستغيث به ... إذا استغثت بضافي الرأس نغاق

---

(١) ديوان الأعشى : ٢١٧ . (٢) ديوان جرير : ٢/٥١٧
(٣) ديوان سويد : ٧٤ . (٤) المفضليات ٢٨ .

الفصل الأول

الحنين إلى الوطن فى شعر البادية

اتسمت شبه الجزيرة العربية ، منذ أقدم العصور ، بميزات خاصة . منها : تلك الصحارى الشاسعة والأراضى الجرداء ، ذات المطر اليسير ، والينابيع القليلة . والمحل الدائم — على الأغلب . وقد انعكست هذه الميزات ، على أسلوب الحياة فى هذه البلاد ، وعلى سكانها . فصارت تفرض عليهم الترحال والتنقل — تبعاً لما يلائم هؤلاء السكان من توافر الماء ، والكلأ ، والخصب — من مكان لآخر . فما كانوا يقيمون فى مكان من شبه الجزيرة العربية ، حتى تضطرهم ظروف العيش والماء ، إلى الانتقال والترحال إلى مكان آخر ، تتوفر فيه المتطلبات الرئيسة لحياة الإنسان وبقائه . وما كان يحدث هذا الانتقال والترحال ، إلا ويترك فى نفوس أهل الحى أو القبيلة ، ذكريات حسنة ، وأياماً جميلة ، مما يجعل من هذا الانتقال ، الألم الكثير ، والحزن الشديد فى نفوسهم ، أسفاً على أيام مضت ، وذكريات خلدت ، فى هذه البقعة من الأرض ، أو تلك .

وما دام الشعر ، هو المصور الحقيق ، لانفعالات الشاعر وعواطفه ، ولما يتنابه من حالات الحزن أو الفرح من جهة ، وما دام الشعر هو ديوان العرب ، فيه سجل لحياتهم ، ودرس لماضيهم التليد ، من جهة أخرى ؛ فلا غرابة أن نجد سجلا ضخماً حافلا ، يروى لنا حالة البدو ، منذ أقدم عصورهم ، عند مغادرتهم تلك الديار ، وحنينهم إليها ، ووقوفهم عليها ، بعد أن عفت عليها الأيام ، وباتت أطلالا بالية ، تمرح بها العين ، وتبكى عليها العين ، ويدمى لها القلب . ولا غرابة — أيضاً — أن ينفرد الشاعر العربى ، بهذا اللون من الشعر ، وهو شعر البكاء على الأطلال ، والدمن والديار ، ذلك لأنه انفرد من قبل بحياة خاصة ، تختلف عن حياة الشعراء الآخرين — فى الأمم الأخرى — ، حياة فى

الصحراء الجرداء القاحلة ، التى تفرض عليه ، عدم الاستقرار والثبات ، فى مكان من هذه الأرض الواسعة .

كان يمكث الشاعر البدوى ، مع أهله وقبيلته ، حقبة من الزمن ، ثم سرعان ما ينتقل ، أو تفرض عليه الحياة الانتقال . وكان يحن إلى تلك الأراضى والديار — التى أقام بها ، وقضى حقبة من حياته فيها ، وخلد ذكريات من الحب والوداد بين جنباتها — حينما يتذكرها ، أو يمر بآثارها ، فيذكر أيامه الحلوة ، وأحبابه ، وأهله ، والمكان الذى أقام فيه ، وهو يفصل هذا المكان جزء جزء ، فى وصفه له ، ويحدده من جميع النواحى ، ويبكى عليه ، ويستبكى أصحابه ، ويدعو له بالسقيا والخصب .

كان الانتقال والترحال ، هو الطابع العام ، فى حياة البدو ، فلم يكن لديهم بيت خاص يمكثون فيه ولا يبرحونه ، إنما كان بيتهم — الذى هو وطنهم — حيث أقاموا . وكانوا يحنون إلى تلك الأوطان — التى هى الديار — التى كانوا يقيمون فيها ، بعد الانتقال منها ، والرحيل عنها .

من هنا كان أمامنا الشعر الكثير ، الذى فيه بكاء على هذه الديار بعد هجرها ، وفيه حنين وشوق إليها ، ولكثرة دوران هذا الشعر على الأطلال ، سموه : شعر الأطلال . فالأطلال أو الطلول ، هى ما شخص من آثار الدار . ولكثرة ما قيل فى آثار الدار من الشعر ، بات شعر الأطلال ، وكأنه اصطلاح يطلق على هذا اللون من الشعر ، وكان اهتمام الشعراء به كبيراً . فلو نظرنا إلى ما وصلنا من الشعر الجاهلى ، لما وجدنا شاعراً واحداً ، لم يفتتح بهذا اللون من الشعر جل قصائده . ولو نظرنا إلى ما تبع العصر الجاهلى من عصوره ، لما وجدنا شاعراً واحداً ، إلا وافتتح بهذا اللون من الشعر ، قصائد عديدة له ، حانّاً إلى دياره ، أو مقلداً ما سبقوه .

فشعر الأطلال ، إذن ، ذو أهمية بالغة ، وذو اتصال كبير بموضوعنا ، ومن هنا ، سنفصل الحديث فيه ، قبل الخوض فى شرح قصائده وتحليلها .

فهو فى نظرنا — كما هو فى نظر الكثيرين من قبلنا — حنين إلى الوطن فى أصله . وقد أشار النقاد القدامى إلى ذلك . فهذا الآمدى يقول فى موازنته : « العرب لا تقصد

الديار للوقوف عليها، وإنما تجتاز بها . فإن كانت على سنن الطريق ، قال الذى له ارب فى الوقوف لصاحبه ، أو أصحابه : قف ، وقفا ، وقفوا . وإن لم تكن على سنن الطريق ، قال : عوجاً ، وعرجاً وعوجوا ؛ وعرجوا[١] . فكأنه يشير بقوله هذا إلى أن الغرض من ذكر الديار عند الاجتياز بها ؛ والدعوة إلى الوقوف عليها ؛ هو الحنين إليها ؛ والشوق إلى أيامها الخالية ؛ لأنه لاغرض له إلا ذلك . وإلا فماذا يريد الشاعر من أطلال خالية ؛ وآثار بالية ؟! .

وهذا ابن رشيق يقول فى عمدته ؛ عن العرب : « وكانوا أصحاب خيام ؛ ينتقلون من موضع إلى آخر ؛ فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار . فتلك ديارهم[٢] » . ويقول فى مكان آخر : «فطريق أهل البادية ؛ ذكر الرحيل والانتقال ؛ وتوقع البين ؛ والاشفاق منه ، وصفة الطلول والحمول ؛ والتشوق بحنين الإبل[٣] . وما حنين الإبل إلا إلى أوطانها ؛ لذلك كان تشوق أهل البادية إلى أوطانهم وأيامهم .

وتابع النقاد القدامى فى هذه الظاهرة الكتاب المحدثون . فالدكتور شوقى ضيف يقول : « وما بكاء الأطلال والديار إلا صورة الثابتة لهذا الحنين (أى الحنين إلى الوطن) الذى تملكهم (أى العرب) على مر الزمن واختلاف المنازل والأمكنة[٤] » .

ويقول فى مكان آخر عن شعر الحنين إلى الوطن : « ويحتل هذا النوع من الشعر صحفا كثيرة فى أدبنا ، تارة يبكى الشعراء منازل الحبيبة ؛ وتارة يهيج الحمام أشواقهم ؛ وقد تهيجه ريح الصبا وغيرها من الرياح . وكان نزوحهم الدائم عن أوطانهم سبباً فى استمرار هذا الحنين[٥] » .

وجاء فى كتاب « الطبيعة فى الشعر الجاهلى » ؛ عن العربى وحنينه إلى الطلل :

---

(١) الموازنة للآمدى : ٤٠٩/١ .

(٢) العمدة لابن رشيق : ١٩٨/١ .

(٣) المصدر السابق : ٢٢٥/١ .

(٤) دراسات فى الشعر العربى المعاصر . د . شوقى ضيف : ٢٦٣ .

(٥) المصدر السابق : ٢٥٦ .

فالحنين إلى الطلل يمثل الحنين للوطن . لأن الطلل وما يحيط ، وما يتناثر حوله من دمن يمثل مجموعة الذكريات التى عاشت فى ذهنه ، فحمل لها أجمل الأوقات ، وأسعد الأيام(١) .

نقرر هذا ، ولا نغفل حقيقتين مهمتين ، نود أن ننوه بهما ، وهما : أن شعر الأطلال لكثرته ، ولشدة مافيه من إحساس ، يمس شغاف القلوب من العرب عامة أصبح مظهراً من مظاهر التقليد يقلد به الشعراء السابقين الشعراء الذين يلونهم فى الزمن ، والتقليد قديم عند العرب ، شعرائهم وأدبائهم ، نراه عند امرىء القيس ، أقدم شعرائهم ، فى قوله : (٢)

عُوجا على الطَّللِ المحيلِ لعلَّنا   نبكي الديارَ كما بكى ابن حذامِ

وعند زهير بن أبى سلمى ، فى قوله(٣) :

ما أرانا نقولُ إلا معارا   أو معاداً من قولِنا مكرورا

نقول : ظهر التقليد فى شعر الأطلال ، منذ باكورة أيام الشعر العربى ، فى حياة البادية ، وبقى سائداً فى العصور التى ظهر فيها الاستقرار فى الحاضرة على الرغم من الدعوة الصارخة ، والثورة العارمة ، التى حمل لواءها أبو نواس ، ودعا فيها إلى هجر الأطلال فى قصائد عديدة له . فنراه يقول : (٤)

أترك الأطلالَ لا تعبأ بها   إنّها من كلِّ بؤسٍ دانية

ويقول(٥) :

لستُ لدارٍ عفت بوصَّافِ   ولا على ربعها بوقّافِ

---

(١) الطبيعة فى الشعر الجاهلى للدكتور نورى القيسى . ٢٥٤ .
(٢) ديوان امرىء القيس : ٢٤٢ .
(٣) ديوان زهير : ٤٨ .
(٤) ديوان أبى نواس : ٤٩٣ .
(٥) المصدر السابق : ١٦٧ .

ويقول[1] :

إعدلْ عن الطلِ المحيلِ وعن هوى

نعت الديارِ ووصفِ قدحِ الأزندِ

وغير ذلك كثير فى شعره . إلا أنه مع هذه الدعوة القوية ، لم يستطع التخلص تخلصاً تاماً من شعر الأطلال ، والبكاء على الديار ، ووصف آثارها . وهناك قسم كبير من الشعراء — وخاصة شعراء الحاضرة — ذكروا الأطلال فى أشعارهم ، وبكوا ، واستبكوا عليها ، وهم فى واقع الأمر ، لم يروها ، ولم يكن لهم عهد بها ، فى أى يوم من الأيام .

ولذا فإننا فى تحليلنا لقصائد شعر الأطلال ، سوف لاندرس إلاقصائد شعراء البادية التى نرى أنها خالٍ من التقليد . لما كدنا من انتقال الشعراء فى البادية ، وترحالهم ومرورهم بأطلالهم ، وحنينهم إليها ، وبكائهم عليها . ولن نتطرق إلىقصائد الأطلال عند شعراء الحاضرة ، وذلك لفقدانها ما قررناه فى قصائد أهل البادية .

والثانية : هى ارتباط الدار والوطن بالمرأة أو بتعبير أدق بالمحبوبة ، فلو نظرنا إلى شعر الاطلال ، لوجدنا جله ، قد ارتبط فيه ذكر الطل ، والحنين إليه بذكر الحبيبة ، والشوق إليها — وهذا نراه طبيعياً ، خاصة إذا تذكرنا ما للمرأة فى نفس البدوى من قيمة كبيرة فى جاهليتهم الاولى . وكثيراً ما كان الشاعر يحن ويتشوق إلى ديار حبيبته . وإلى المكان الذى كانت تحل فيه . وقد يبدو للوهلة الاولى أنه يحن إلى ديار ليست دياره ، وإنما هى ديار حبيبته والذى نراه ، أن لافصل بين ديار الشاعر ، وديار حبيبته ، ولا فرق بينهما ، إلا فيما ندر . وإلا فهل يعقل أن يكون الشاعر البدوى قد عشق واحدة من قبيلة غير قبيلته ، ومن ديار غير دياره ، خاصة إذا تذكرنا تعصب العرب إلى قبائلهم وحرصهم الشديد على أعراضهم ، وغيرتهم الشديدة على نسائهم ؟ ! . وربما حدث شىء من هذا . ولكنه نادر ، ومحدود إلى أبعد مدى .

وعليه ، فإننا نقرر : أن الشاعر البدوى — فى الغالب الأعم — حينما كان يحن إلى ديار محبوبته ، إنما يحن إلى دياره ، التى عاش فيها مع من يحب ويهوى .

---

(1) نفسه : ٣٩ .

وبعد ، فهل لنا أن نسير فى تحليل قصائد شعراء البـــادية ، محاولين استنباط مشاعرهم ، من خلال أشعارهم ، التى أملتها عليهم بيئتهم ، وطبيعتهم ، لنتبين أن الشاعر البدوى ، وإن كان كثير الحل والترحال ، إلا أنه كان أحدّ عاطفة ، وأرهف حساً ، حين تشوقه الذكريات . وهى تشوقه كلما أتيح له المرور عبر دياره ، ومنازل طفولته وموطن أهله ؟ .

هذا ما نراه ، وما نود الحديث عنه

* * *

نظرة متفحصة فى قصيدة بشر بن أبى خازم الأسدى[1] ، ومطلعها[2] :

تغيَّرَتْ المنازلُ بالـكثيبِ وعفَّى آيَها نسجُ الجنوبِ

تظهر لنا سبباً مهماً من أسباب الحنين إلى الوطن ، عند الشاعر البدوى . ذلك السبب ، هو ذكريات الهوى والغرام ، التى كان يحياها الشاعر فى ما سلف له من أويقات . فطبيعة الحياة الجاهلية البدوية — كما هو معلوم — قائمة على أساس الانتقال ، من مكان لآخر . سعياً وراء أسباب الحياة ، فتتغير المنازل والديار حين هجرانها ، وتمحى آياتها ، ولا يستبين منها العاشق المدله ، إلا النؤى والأحجار ، وما تتركه القبيلة من سقط المتاع .

وبشر كان من هذا النوع من العشاق الذين رحل أحباؤهم ، فبانوا ، وتغيرت ديارهم ، فيأخذ الظن هذا الشاعر وأضرابه . بأن حبيبته قد تغيرت بفعل البعاد ، فيقف حائراً بهذه المنازل التى عفت الرياح آثارها ، ومحا المطر عنها مايدل على ما كنها أحبابه القدامى . يقف بشر ، يسائل هذه الديار ، ودمعه يسيل كالغروب — على حد تعبيره — على خديه ، حنيناً إلى وطن حبيبته ، حين كان مرعاً بالحياة ، يزدهيه النماء ، ، وتزينه صاحبته . ثم يأخذه ظنه ، فيخال أن حبيبته قد سلت عنه ، وبعدت إلى غير لقيا ، فيحاول أن يجد العزاء ، وهو الشاعر الجاهلى البدوى ، الذى تتمثل فيه صفات الرجولة اللازمة للحياة الـ[illegible] القاسية فى الصحراء . يحاول أن يتأسى وينسى حبيبته ، فيفتخر بأنه طالما لها حين شاء . قال :

---

(١) توفى فى النصف الثانى من القرن السادس للميلاد تقريباً .

(٢) ديوان بشر : ٢٠ — ٢٦ .

تغيرت المنازلُ بالكثيبِ   وعفّى آيَها نسجُ الجنوبِ (١)

منازلُ من سُليمى مقفراتٌ   عفاها كلُّ هطّالٍ سكوبِ

وقفتُ بها أُسائلُها ودمعى   على الخدّينِ فى مثلِ الغروبِ (٢)

نأتْ سلمى وغيّرها التنائى   وقد يسلو المُحِبُّ عن الحبيبِ

فإنْ يكُ قدْ نأتنى اليومَ سلمى   وصدّتْ بعد إلفٍ عن مشيبى

فقدْ ألهُو إذا ما شئتُ يوماً   إلى بيضاء آنسةٍ لعوبِ

ويبدو أن هذه الظاهرة ، فى شعر بشر ، أضحت تقليداً لازماً له فى معظم قصائده ، يفتتح بها أشعاره . فيحن إلى حبيبته ، ذاكراً ديارها ، وحنينه إليها ، فتختلط المشاعر الصادقة ، بالمشاعر التى أضحت تقليداً ، لبناء هيكل القصيدة .

فى قصيدة « أطلال مية »(٣) يذكر أطلال مية هذه ، وكيف أنها هجرت ، وأضحت خلاء ، لا أحد فيها ، إذ رحل أهاليها ، فعادته أشجان هذا الرحيل ، فوقف يبكى حنيناً إلى أيامه السالفات ، بهذه الديار وأحبابه فيها ، وقد أصابه التعب والشقاء من رحيلهم وفراقهم ، وهو القوى الذى لا يغلب ، إلا من شدة الحنين ! قال :

أطلالُ ميّةَ بالتلاعِ فمثقبِ   أضحتْ خلاءً كاطّرادِ المُذهَبِ (٤)

---

(١) عفّى : طمس . والآى : جمع آية وهى العلامة . الجنوب : يريد ريح الجنوب . ونسجها : يريد أن تسحب التراب بعضه على بعض فتمحو آثار الدار .

(٢) الغروب : جمع الغرب ، وهى الدلو العظيمة .

(٣) الديوان : ٣٢ — ٣٤ .

(٤) التلاع : موضع ، وهى مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض . ومثقب : موضع . والمذهب : جلد فيه خطوط مذهبة بعضها فى أثر بعض ، واطّراده : تتابع الخطوط فيه .

ذهبَ الأُلى كانوا بهنّ فعادَنى ... أشجانُ نَصْبٍ للظَّعائِنِ مُنْصِبِ[1]

فانهلَّ دمعى فى الرِّداء صبابةً ... إثرَ الخليطِ وكُنْتُ غيرَ مُغَلَّبِ[2]

وظاهرة الارتحـال ، كانت من المآسى التى تثقل كاهل بشر حين يظعن أحبابه ، ففى قصيدته « أمن ليلى »[3] انظره كيف افتتح أبياته بهذا الاستفهام الاستنكارى ، أمن ليلى وجارتها تروح ! ؟ وانظر كيف يجرد من نفسه شخصاً آخر يخاطبه ، وهذا الأسلوب هو الذى يلجأ إليه الشعراء عادة ، حين تهيج بهم العاطفة ، ويشتد بهم الهياج . ثم انظره كيف يرد على نفسه بأسلوب التجريد هذا ، وفى شىء من التعنيف بقوله : وليس لحاجة منها مريح ! . .

ثم يستمر هذا التعنيف ، الذى يخرجه مخرج الحسرة ، حين يتبين أنك لا تجد فى الدار إلا آثار الظعائن ، ورجع الصدى ، الذى يرد حديثك إلى نفسك ، ويرد نواحك إليك . ثم يستمر فى هذا فيتبين أنه كان فى مأمن من فراقهم ، حتى أنبأهم به الغراب الأسود ، وهو نذير الشؤم عندهم . ثم يقلب الحديث على طريقة الالتفات ، كما يسميها أهل البلاغة ، ويعود إلى الحديث عن نفسه بضمير المتكلم ، فيقول : أنه ظل يكفكف عبراته ، وتعصيه عينه ، فينهل دمعها سفوحاً ، سفوح الماء من الدلو ، ثم تزيد فى تبيان هذا ، فيجعله كغرب الشن ، والشن هى القربة الخلق ، وهو يجعلها كذلك ليبين شدة انسفاح الماء من خروقها الكثيرة . قال :

أمن ليلى وجارتها تروحُ ... وليس لحاجةٍ منها مُريحُ ؟![4]

وليس مُبيِّنٌ فى الدار إلا ... مبيتُ ظعائنٍ وصدىً يصيحُ[5]

---

(١) النصب : التعب والشقاء . والظعائن : جمع الظعينة ، وهى المرأة فى الهودج .

(٢) صبابة : أى شوقاً وحنيناً . والخليط : الصديق المخالط . والمغلب : الذى لا يغلب .

(٣) الديوان : ٤٨ — ٤٩ .

(٤) تروح : من الرواح ، وهو الرجوع بالعشى ، وقد تكون بمعنى تسير .

(٥) مبين : أى ظاهر . الظعائن : هنا بمعنى الجمل يظعن عليه . الصدى : ذكر البوم .

ولم تعلمْ ببَيْنِ الحيِّ حتى ... أتاك به غُدَافِيٌّ فصيحُ[1]

فَظلْتُ أُكَفْكِفُ العبراتِ مِنّى ... ودمعُ العينِ منهمرٌ سفوحُ[2]

ودمعى يوم ذلك غَرْبُ شَنٍّ ... بجانب شَهْشَمَةٍ ما تستريحُ[3]

وما قَلْبُ الصبابة مثلُ شوقٍ ... وَقبلك ما انقضى خُلُقٌ سجيحُ[4]

وهذا الذى لاحظناه فى القصيدة السابقة ، نلاحظه فى قصيدته : « عفت أطلال مية »[5] . غير أنه فى هذه القصيدة ، لا يبكى ، وإنما يقتصر حنينه إليها ، على الوصف لها بعد أن هجرت ، وأضحت خلاء ، تلعب فيها ، وتجر الرامسات بها ذيولها . وليس فيها إلا الرماد بين الآظار الثلاثة ، التى تبين كوشم الرواهش بالنؤور . ونلحظ أن بشراً فى هذه القصيدة ، قد أعطانا تخطيطاً لديار مية ، وسمى لنا حدودها ، ورسمها رسماً دقيقاً ، دفعه إليه الحنين دفعاً ، وتحس حسرته بهذه الأماكن وهو يعدها ، وكأنه يحلو له أن يدير أسماءها على لسانه . ثم انظر لحسرته تنبعث من بيته ، وجر الرامسات بها ذيولا ـــ ـــ . يريد أن أهلها هجروها من بعيد ! قال :

عفت أطلالُ ميَّةَ بالجفيرِ ... فهضبِ الواديينِ فبَرْقِ إيرِ[6]

---

(١) بين الحى : ارتحالهم . والغداف : أى غراب غدافى وهو الشديد السواد ، نسبة إلى الغداف أى الأسود .

(٢) فظلت : أى فظللت .

(٣) الغرب : الماء الذى يسيل من الدلو ، وهو بفتحتين فى الأصل وسكنت الراء للضرورة . والشن : القربة الخلق . وشهشمة : صفة للناقة ، أى نشيطة قوية .

(٤) خلق سجيح : لين سهل .

(٥) الديوان : ٩٤ — ٩٥ .

(٦) الجفير ، وهضب الواديين ، وبرق إير : هذه أسماء مواضع .

تلاعبت الرِّياحُ الهوجُ منها ... بذى حُرُصٍ مَعالِمَ للبصيرِ [1]

وَجَرَّ الرَّامِساتُ بها ذيولاً ... كأنَّ شَمالَها بعد الدَّبورِ [2]

رمادٌ بين أظآرٍ ثلاثٍ ... كما وُشِمَ الرَّواهِشُ بالنؤورِ [3]

وما أشبه هذا النفس ، وهذه الروح ، وهذه اللوعة والألم ، التى لمسناها بجلاء ووضوح فى أبياته السابقة ، بألمه وحنينه الخائب الفاشل ، الذى ينتهى بالبكاء والحسرة . فيقف على رسم ديار قد عفت ، فيجد فيها الغزلان . والبقر الوحشى ، والمطر الهطال ، الذى مسح عنها كل ذكريات فيها . فيشوقه هذا الحنين . فيقف على الدار يسائلها عن أحبابه ، وأين راحوا ، فيحن إليها من خلال حنينه إليهم . لكنها لا تستطيع جواباً ، ألا أن أهلها قد تحملوا وبعدوا عنها . فيرجع الشاعر خائباً ، وليس فى قلبه إلا حنين ممض ، وألم يدفعه إلى البكاء ، وهو فى هذه المقطوعة ، التى سنذكر أبياتها ، يرسم صورة واضحة للديار التى شاقته ، ودفعت حنينه إلى الظهور ، بقوة ووضوح وجلاء . صورة واضحة ، مستندة بذكر البقاع ، محددة بذكر الأماكن التى ذكرها : رامة ، والتلاع ، وكثبان الحفير ، ولقاع ، وجنب عنيزة ، وذوات ضيم . قال[4] :

عفا رسمٌ برامةَ فالتِّلاعِ ... فكثبانِ الحفيرِ إلى لَقاعِ [5]

---

(١) تلاعب الرياح : من لعبت الرياح بالمنزل إذا درسته . وذو حرص : اسم واد .

(٢) الرامسات : الرياح التى تثير التراب وتدفن الآثار . من الرمس : وهو التراب . والشمال : ريح الشمال . والدبور : ريح مهبها من الغرب ، والصبا تقابلها من الشرق .

(٣) الأظآر : جمع ظئر ، وهى العاطفة على غير ولدها ، المرضعة له . ويريد بها هاهنا : الأثافى ، وهى حجارة القدر تشبه بالقدر ، لتعطفها حول الرماد كتعطف الأظآر حول الفصيل . والرواهش : عصب وعروق فى الذراع . والنؤور : دخان الشحم يعالج به الوشم ويحشى به حتى يخضر .

(٤) الديوان : ١٠٩ .

(٥) رامة ، والحفير ، ولقاع : أسماء مواضع .

بجنبِ عُنَيْزَةٍ فَذَوَاتِ خَيْمٍ ... بها الغزلانُ والبقرُ الرَّتاعُ[1]

عفاها كلُّ هَطَّالٍ هزيمٍ ... يُشَبِّهُ صَوْتَهُ صَوْتَ الْيَرَاعِ[2]

وقفتُ بها أسائِلُها طَويلاً ... وما فيها مجاوَبَةٌ لداعى

تحمَّلَ أهلُها منها فبانوا ... فأبكتنى منازلُ للرَّوَاعِ[3]

وفى قصيدته « الأظعن الخليط »[4] يمد نفسه فيحدثنا عن حنينه إلى أحبابه ودياره ، وذلك منذ أن حملت ظعونهم أحمالهم ، وخلت الديار منهم من بعيد . أنظر إلى الصورة التى يرسمها الشاعر لحيوانات الصحراء ؛ التى أمنت فى هـذه الديار ، وراحت تسرح وتمرح ، هى وصغارها ، « بها الغزلان والبقر الرتوع » . فظل واقفاً وحيداً ، ينظر إلى بقايا ديارهم بخشوع ؛ يستثيره الحنين ؛ وتذكيه الحمامات والطلوع الخاشع . ويتعداه الحنين ، فيسرى إلى مطيته ، فإذا بها خاضعة ، وكأنها تدرك خضوع صاحبها ، لحكم القـدر ونزوله على قضائه الذى لا يرد . وفى هذه المقطوعة ، نلمس الروح التى لمسناها فى مقطوعاته السابقة ، من تحديد ورسم لتلك الديار فهى بشبوة . وعريقنات . قال :

ألا ظَعَنَ الخليطُ غداةَ ريعوا ... بِشَبْوَةَ . فالمطىُّ بها خُضُوعُ[5]

أَجَدَّ البينُ فاحتملوا سراعاً ... فما بالدار إذ ظعنوا كَتِيعُ[6]

---

(١) عنيزة ، وذوات خيم : مواضع . والرتاع : جمع الراتعة ، من رتعت الماشية ، أكلت ما شاءت . وفى البيت إقواء .

(٢) هطال : أى سحاب يهطل منه المطر . الهزيم : السحاب الذى لرعده صوت .

(٣) بانوا : بعدوا . والرواع : صفة امرأة من الروع ، وهو مسحة الجمال الذى يعجب وروع من يراه فيسره .

(٤) الديوان : ١٢٩ .

(٥) ظعن . رحـل . وريعوا : هيجوا للسفر . وشبوة : موضع . والمطى خضوع : أى واقفة خاضعة أعناقها .

(٦) أجدّ البين : بلغ مبلغ الجد . والكتيع : المنفرد من الناس ، وما بالدار من كتيع . أى ما بها من أحد .

كَأنّ حُدُوجَهمْ لما استقلوا ... نخيلٌ مُحَلّمٍ فيها يُنُوع [1]

منازلُ منهم بِعُرَيتنات ... بِهاَ الغزلانُ وَالبَقرُ الرتوعُ [2]

تحمّلَ أهْلُهاَ منها فبانوا ... بليلٍ ، فالطّلوعُ بهاَ خشوعُ [3]

كَأنّ خوالداً في الدارِ سُفْعاً ... بِعَرْصَتِهاَ حماماتٌ وُقوعُ [4]

أنظر إلى الصورة الرائعة في بيته الأخير ، نتيجة لبعد المسافة والوقت الذى بين هذه الديار وبين أهلها ، وقد شبه الأثافى التى سودت جوانبها الدار بحمامات وقعن فى ساحة الدار .

ونستطيع أن نؤكد ما قررناه من أن بشراً كان يحن إلى الأوطان ، التى قضى فيها ردحاً من الزمن ، من خلال حنينه إلى أحبابه . فى مقطوعته التى يسائل بها نفسه : ما بكاؤه فى الأطلال ؟ وما وقوفه على الآثار ، التى عهد بها عهداً ، فمضى ذلك العهد ، وأضحت خلاء ، قفاراً ، ليس فيها من أنيس ، إلا الطيور التى جعلتها مرتاداً تعيش فيها بعد أن خلت من أهلها ، فهى تأتى وتروح عليها دون أن تخشى أحداً . ووقف فيها قلوصه ، كى تجاوبه الديار ؛ وأنى لها أن تجيب ، وهى خلو من أهلها ! — أو يخبره الرسم ، عن الوجهة التى إليها انصرفوا . قال (٥) :

---

(١) الحدوج : جمع الحدج بكسر الحاء ، مركب من مراكب النساء . واستقلوا : احتملوا للرحيل . ومحلم : نهر بالبحرين . والينوع : من ينع الثمر إذا أدرك ونضج

(٢) عريتنات . إسم واد .

(٣) الطلوع : جمع الطلع ، وطلع الوادى . ناحيته ، والطلع من الأرضين : كل مطمئن فى كل ربو ، إذا طلعت رأيت ما فيه .

(٤) الخوالد : الأثافى فى مواضعها . وقيل لها خوالد لطول بقائها بعد دروس الأطلال . وسفعا : جمع أسفع وسفعاء ، من السفعة السوداء المشرورقة ، ومنه قيل للأثافى سفع ، وهى التى أوقدت بينها النار ، فسودت صفاحها التى تلى النار ، وبقى سائرها على لونه .

(٥) الديوان : ١٣٧ — ١٣٨ .

أىُّ المنازلِ بعد الحىِّ تعترِفُ ... أم ما صباكَ وقد حُكِّمتَ مُطَّرَفُ [1]

أم ما بكاؤكَ فى دارٍ عهدتَ بها ... عهداً فأخلفَ أمْ فى آيها تقفُ ؟

كأنَّها بعد عهدِ العاهدينَ بها ... بين الذَّنوب وحزمَىْ واحفٍ صُحُفُ [2]

أضحتْ خلاءً قفاراً لا أنيس بها ... إلا الجوازىءُ والظلمانُ تختلفُ [3]

وقفتُ فيها قَلوصى كى تجاوبَنى ... أو يُخْبِرَ الرَّسمُ عنهم أيَّةً صرفوا

هذا ، ولا يكاد يخلو شعر بشر ، من ذكر المنازل التى كانت هى فى الجاهلية ، والحياة البدوية ، وطن القوم .

ويظهر هذا فى قصيدته « منازل من حى عفت »[4] فمنازله عفت ، بعد أن تداولها فيها ردحاً من الزمن ، ولم يبق فيها إلا آثار بالية . وأصبحت ملاذاً لحيوانات الصحراء ، الأبقار الوحشية ، تمرح فى ساحاتها ، وقد وجدت فيها مأمناً لها ، بعد أن خلت من أهلها ، منذ زمن بعيد ، فها هى تلد فيها ، وتربى أولادها بين جنباتها . قال :

منازلُ من حىٍّ عفت بعد ملعبٍ ... ونؤىٌ كحوضِ الجِرْبَةِ المتهدِّمِ [5]

تظلُّ النِّعاجُ العينُ فى عرصاتِها ... وأولادُها من بين فذٍّ وتوءمِ [6]

فى هذين البيتين يذكر الشاعر ، بأنه قد لعب آونة فى هذه الديار ، مما يدفعه إلى الاشتياق إليها ، والحنين لربوعها .

---

(١) الصبا : جهلة الفتوة واللهو والغزل . وحكمت مطرف : أى صرت حكيما . ومُطَّرِف : جديد مستحدث .

(٢) الحزم : الغليظ المرتفع من الأرض . والذنوب وواحف : موضعان .

(٣) الجوازىء : بقر الوحش . والظلمان : جمع الظليم ، وهو الذكر من النعام .

(٤) الديوان : ١٩٣ .

(٥) الجربة : بكسر الجيم المزرعة .

(٦) الفذ : الفرد .

ونظراً لكثرة تنقل القبائل البدوية ، من مكان لآخر ، فإن بعض المعالم ، تختلط بالبعض الآخر ، فيقف الشاعر ، يتساءل عن هذه الديار ، هل هي ديار حبيبته التي يحن إليها ، أم أنها ديار غيرها ، وقد اشتبه عليه الأمر ؟ حتى يعود أخيراً إلى نفسه ، ويخرج من ولهه ، ويتذكر أن هذه الديار ، هي ديار حبيبته — البيضاء المعاصم ، الطفلة المهضومة الكشحين . ويجد الحنين في نفسه قوياً ، وقد لعبت رياح الصبا في هذه الدار ، وأزالت منها المعالم إلا بقية نؤيها المتهدم . قال[1] :

لِمَنِ الدِّيارُ غَشِيتُها بالأَنْعُمِ ... تبدو معالِمُها كَلَوْنِ الأَرْقَمِ[2]

لَعِبَتْ بها رِيحُ الصَّبا فتنكَّرَتْ ... إلا بَقِيَّةَ نُؤْيِها المُتَهَدِّمِ[3]

دارٌ لبيضاءِ العوارضِ طَفْلَةٍ ... مهضومةِ الكَشْحَيْنِ رَيّا المِعْصَمِ[4]

بشر بن أبي خازم ، كما لحظناه قبل قليل ، كان ذا حنين طاغ ، قوي ، إلى كل مكان ومنزل قضى فيه ردحاً من شبابه ، وساعات من أيام عمره . إلا أن هذا الحنين الطاغي ، كان غالباً ما ينتهي بالدمع واليأس ، فلا عجب أن نراه من آن لآخر ، يعاتب نفسه على وقوفه في هذه الديار . ويحاول أن ينهى نفسه عن طول هذا الوقوف فيقول[5] :

تناهيتَ عن ذِكرِ الصَّبابةِ فاحْكُمِ ... وما طَرَبي ذِكرَ آلِ رَسْمٍ بِسَمْسَمِ ؟[6]

---

(١) الديوان : ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) غشيتها : أتيتها . والأنعم ، بفتح العين وضمها : اسم موضع . ومعالم الدار : آثارها وعلاماتها . والأرقم : الحية التي في جلدها نقط .

(٣) تنكرت ولم تعد معروفة .

(٤) العوارض : جانبا الفم من الأسنان . والطفلة : الرخصة اللينة . والمهضومة الضامرة : والكشح الخاصرة . وريا : ممتلئة .

(٥) الديوان : ١٩٢ .

(٦) تناهى : كف وامتنع . والصبابة : الشوق والهوى . وفاحكم : كن حكيما عاقلا ، واترك الجهل والطيش . والطرب : يكون بمعنى الفرح والحزن ، وهنا بمعنى الشوق . وسمسم : موضع .

وامرؤ القيس(١) ، كان كثير التنقل ، فى شبه الجزيرة العربية ، على عادة العرب البدو ، لذا حفل شعره بالحنين إلى المنازل التى كان يظعن عنها . كما تمتاز حياته بميزات خاصة ، باعتباره صاحب سلطة ومنزلة فى قبيلته ، إذ هو ابن حجر ، شيخ كندة آنذاك . يضاف إلى هذا إلى تجواله خارج الجزيرة العربية ، وزيارته لقيصر ، تلك الزيارة التى صورها تصويراً رائعاً ، فى قصيدته الرائية «بكى صاحبى» ، إذ صور الحنين إلى الوطن عند البدوى أجلى تصوير . ولنا عود إلى بعض أبيات هذه القصيدة ، نستجلى منها روح الحنين إلى الوطن .

ولعل أروع ما فى شعر امرىء القيس ، مما يتصل بموضوعنا ، قصيدته الذائعة الصيت «ألا أبلغ بنى حجر بن عمرو(٢)» . فإننا نلمس فيها بجلاء ووضوح ، صدق التجربة الشعرية ، حين يبتعد الشاعر عن أهله ومنازله ، ويهلك بعيداً عنها . وليس كلحظة الموت لحظة ، يمكن أن تتجلى فيها العواطف الإنسانية ! ناهيك عن أن تكون هذه العواطف ، مما يتصل بسبب قوى ووثيق ، من حياة الشاعر وذكرياته ، حين يمضه ألم الغربة ، ويشعر بالوحدة ، تجاه ذلك المرعب ، الذى نسميه الموت ! .

فى مطلع القصيدة ، يقرر أنه إنسان له مشاعره الصادقة ، التى تدفعه دفعاً ، إلى تذكر ما كان من امره ، بين أهله وأحبابه فى وطنه . كما أنه يقرر ، أنه إنسان له قلب يشعر ، وما هو بالحديد ولا الصخر . ويبدو أن أشد ما يثير ألم الشاعر ، ويستحث دمعه ، أنه يهلك بأرض قوم غرباء ، بعيداً عن دياره ، وهو يحاول انتزاع الملك ، ملك أبيه . انظر إلى اللوعة فى قوله :

بأرضِ الرُّومِ لا نَسَبٌ قَرِيبٌ ولا شافٍ فيسند أو يعودا

وما لنا نتعجل ذكر بعض الأبيات ، وها نحن معها :

ألا أبلغْ بَنِى حُجرِ بن عمرو وأبلغْ ذلك الحىَّ الحريدا(٣)

---

(١) توفى عام ٨٠ ق . ه تقريباً .
(٢) ديوان امرىء القيس : ٢١٣ ومابعدها .
(٣) الحريد : الذى نزل ناحية منفرداً .

بأني قد بقيتُ بقاءَ نفسٍ ولم أُخلَقْ سِلاَمًا أو حَديدا[1]

فلو أني هلكتُ بدارِ قومي لقلتُ الموتُ حقٌ لا خلودا

ويزداد عمق المعنى ، في تجاوبنا مع الشاعر ، إذا علمنا أنه ترك قومه ، وقد غصبوه حقا في ملك أبيه . فحرى به أن يكرههم ، ويمقت عشرتهم . إلا أنه يذكرهم ، ويحبهم ، ويتمنى أن يموت بين أيديهم ، ويهلك في ديارهم !

فيا للحنين إلى الوطن ! من عاطفـــة جياشة عاصفة بكل مشاعر الغضب ، التي قد تستولى على القلب الإنسانى . فيستمر الشاعر يقول :

ولـكنى هلـكتُ بأرضِ قومٍ بعيدٍ من دياركم بعيدا

نحس ونحن نقرأ هذا البيت ، جلال المعنى . وصدق التجربة ، خاصة في هذا التكرار الذى يفرضه الشاعر علينا فرضاً ، وكأنه يريد أن يلفت الانتباه إلى ما يملأ قلبه من ألم وعذاب : « بعيد من دياركم بعيداً » فكأنها الحسرة التي ينفثها المغترب المحتضر ، وهو ينفث معها روحه. فكأن الروح ، وهذا الحنين الطاغى ، كائن واحد ، لايستطيع الشاعر أن يتخلى عن أحدهما ، إلا أن يتخلى عن الآخر ! ولزيادة تصوير هذا الألم ، يحاول الشاعر أن يذكرنا . بأنه لم يبتعد عن أهله مختاراً ، وعن وطنه بعيداً ، لـكن الظروف هى التى ألجأته . وهل للشاعر البدوى ، ألا وطنه وأهله ؟ !

أعالجُ ملكَ قيصرَ كلَّ يومٍ وأجـدرُ بالمنيّةِ أن تعودا

وهناك يموت الشاعر وحيدا ، إذ تخلى عنه الجميع — أو هذا ما نخيله على أقل تقدير — فلا نسب قريب ، ولا آس لجراحاته . وليس له إلا الغربة والناس ، الذين لايفهمهم ، ولا يفهمونه .

بأرضِ الرومِ لانسبٌ قريبٌ ولا شافٍ فيسند أو يعودا

هو ذا الشاعر ، بأصدق صورة ، وعلى أجلى ما يمكن أن نفهم العواطف الإنسانية لأنه في لحظة احتضاره ، وفى هذه اللحظة الجليلة ، لايملك الشاعر إلا أن يقول معبراً

---

(١) السلام : الحجارة : والواحد ـــ .

عما يحس ، فينبعث من صميم قلبه ، مصوراً ما هو عليه من سرور وألم ، وتصويره لحاله يمثل هذه الصورة المؤثرة ، تحسه دمعة حزينة ، يذرفها ، ويبعث بها إلى حبه ، وإلى وطنه ، اللذين لا يملك عنهما فكاكا ، مهما أراد ذلك :

ولعل الأبيات التى يفتتح بها معلقته ، تلى هذه القصيدة فى الأهمية ، فيما نحن بصدد الحديث عنه من أمر الحنين إلى الوطن . ففى هذا المطلع المشهور ، الذى قال عنه القدماء : أنه بكى واستبكى فيه ، حين دعا صاحبيه إلى البكاء معه ، من ذكر حبيبه ومنازله ، ما نلمح فيه الحنين إلى الوطن فيقول(١) :

قِفَا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بِسقطِ اللِّوى بين الدَّخُولِ وحوملِ (٢)

فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يعفُ رَسْمُهَا
لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشَمْألِ (٣)

ولذلك نجد امرأ القيس ، قد حدد لنا بصورة دقيقة ، حدود هذه الدار ، التى وقف فيها ، وهو لم يقل هذا ليحدد الدار ، ولكنه بقوله : وكأنه يجد لذة فى إدارة هذه الأماكن على لسانه — ولله ابن الفارض الشاعر الصوفى الكبير إذ يقول :

أدِرْ ذِكْرَ مَنْ أهوى ولو بملامِ ... فإنَّ أحاديثَ الحبيبِ مُدامى (٤)

أجل ، لقد بكى امرؤ القيس واستبكى ! . كيف لا ؟ وهى ديار حبيبته التى رحلت عنها . تلك الديار الواقعة « بسقط اللوى » « بين الدخول وحومل » . وامرؤ

---

(١) الديوان : ٨ وما بعدها .

(٢) السقط : منقطع الرمل . واللوى : حيث يلتوى ، ويرق الدخول وحومل موضعان .

(٣) توضح والمقراة : موضعان . يعف : يدرس . الرسم : الأثر . الجنوب : الريح القبلية . والشمال : الريح الشمالية . نسجتها : تعاقبت عليها فمحت آثارها .

(٤) ديوان ابن الفارض : ١٨٤ .

القيس لا يذكر هذه الأماكن ليعرّفها للناس ، ولكن يديرها على لسانه لما يجد فى نفسه من المتعة فى النطق بها ، ويمضى امرؤ القيس شوطاً أبعد فى ذكر حبيبته ، وحنينه إلى وطنها ، إذ يرى بعر الآرام فى عرصاتها كحب الفلفل ، أنظر إلى هذه الحسرة فى البيت :

ترى بَعَرَ الآرَامِ فى عَرَصاتِها ... وَقيعانِها كأنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ (١)

وانظر إلى دموع الشاعر التى نلحها فى بيته التالى ، وحاله كذلك الذى ينقف الحنظل ، حين فراقه لأحبابه ، وبعاده عنهم :

كأنّى غداةَ البينِ يومَ تحمّلوا ... لدى سَمُراتِ الحىّ ناقفُ حنظلِ (٢)

ونظرة إلى مقدمة قصيدته « ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى » (٣) وهى القصيدة التى أثنى عليها أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران (٤) . واعتبرها من عيون الشعر وبما يتباهى به . ترينا بوضوح ، أن الشاعر قد اتخذ من شعر الأطلال ، متنفساً لآلامه : وفى هذه القصيدة ، نلحظ الشاعر ، يحاول أن يحيى دياراً لسلمى ، عفاها المطر ، ولكنه يعود فيتساءل ، كيف يستطيع الطلل أن يعم ؟ وهو قد أضحى خلاء مهجوراً . فارقه أهله منذ ثلاث سنين ، أو منذ ثلاثين شهراً :

ألا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالى ... وهل يَعِمَنْ مَنْ كانَ فى العُصُرِ الخالى (٥)

نعم ، وكيف يعمن هذا الذى أضحى من ذكريات الزمن ، طللا بالياً ، ترتع فيه الآرام والوحوش ؟ وكيف يستطيع أن يسعد ، إلا من كان مخلداً ، قليل هموم ، ما يبيت بخوف ، ولا يظل بوجل ، وإنما همه أن يكون مأهولا ، أى سعيداً ، ترتع فيه الحياة والأحياء ، ويضمهم حبيبته سلمى ؟ وأنه ليتساءل :

---

(١) الآرام الظباء البيض .

(٢) السمر : شجر أم غيلان ، وهى شجر [illegible] . الناقف المستخرج حب الحنظل ، والحنظل له مرارة تدمع منها العين .

(٣) الديوان : ٢٧ وما بعدها .

(٤) رسالة الغفران للمعرى : ٢٣٢

(٥) عم يعم : فى معنى نعم ينعم .

وهل يعمن إلا سعيدٌ مُخَلَّدٌ ... قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوجالِ[1]

وهل يعمن من كان أحدثُ عهدِهِ ... ثلاثين شهراً في ثلاثةِ أحوالِ

ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذى خالِ ... ألحّ عليها كلُّ أسحمَ هطّالِ[2]

وفى تضاعيف قصيدته الرائية المشهورة ، التى نظمها وهو فى طريقه إلى قيصر ، يفصح لنا الشاعر عن هذه العاطفة الجياشة ، التى تأخذ على الإنسان لبه . وفيها نرى صورة الرجل البدوى ، المعتز برجولته . نراه فإذا بدموعه تنهل وهو يغادر مراتع صباه ، ويرحل إلى ديار غريبة بعيدة ، لا يدرى ما الذى يواجهه فيها . قال[3] :

بكى صاحبى لما رأى الدَّربَ دونَهُ ... وأيقن أنّا لاحقانِ بقيصرا

فقلتُ له : لا تبكِ عينُك إنما ... نحاولُ مُلكاً أو نموتَ فنُعذرا

هذا هو السبب إذن ، الذى دفعه إلى التغرب . فكان امرؤ القيس ، يؤمن أن الوطن عزيز وغال . ولكنه مضطر إلى هجرته ، من أجل الملك الذى يحاول الحصول عليه أو يموت .

ويستمر الشاعر فى هذه القصيدة ، فيصور هذا الصراع الخالد ، بين البداوة والمدنية ، حين يطل على بعلبك ، فيجد الشاعر نفسه غريباً فى رحابها . وكذلك هو فى قرى حمص ، ويتطلع إلى ما اعتاده فى البادية ، فلا يجد من ذلك شيئاً ، فتستثار عاطفته تجاه وطنه ، وتغلبه عاداته ، فيشيم البرق أين مصابه ؟ وأين رحاب الصحراء ؟ وأين الأفق الذى يطالعه أينما اتجه ؟ لا شىء من ذلك . لأن الحاضرة ، تختلف عن البادية . ومهما يرى فى دمشق ، وحمص ، وبعلبك ، من ضروب الجمال ، فإنه لا يشفى قلبه إلا ابنة عفزر ، التى هى البدوية ، شاغله خياله :

---

(١) سعيد مخلد : المخلد فى الدنيا . والأوجال : جمع وجل وهو الفزع .

(٢) الأسحم : السحاب الأبيض .

(٣) الديوان : ٥٦ وما بعدها .

لقد أنكرتنى بعلبكُ وأهلها
وَلَابنُ جُرَيجٍ فى قرى حمصَ أنكرا [1]

نشيمُ بُروقَ المُزنِ أين مصابُه
ولا شىء يُشفى منك يابنةَ عفزرا [2]

وفى قصيدته : « غشيت ديار الحى » [3] ، لا نخطىء الروح التى سبق أن رأيناها فى الأبيات السابقة . فهو يغشى ديارآ يحدد أماكنها حين يقول :

غشيتُ ديارَ الحىِّ بالبَكراتِ فعارمةٍ فبُرقةِ العِيَراتِ [4]
فغولٍ فحِليتٍ فنفءٍ فمَنْعَجٍ إلى عاقلٍ فالجبِّ ذى الأمَراتِ [5]

ونمضى فى مطالعة القصيدة ، فنجد امرؤ القيس ، قاعدآ متظللا بردائه ، يعد حصى الأرض ، وقد خنقته عبراته ، من ذكريات صباه فى هذا المكان :

ظَلِلتُ ردائى فوق رأسى قاعدآ أعدُّ الحصى ما تنقضى عَبَراتى [6]

ونحن لا نريد أن نؤاخذ الشاعر ، على هذه العاطفة ، فإن المحزون الحقيقى ، الذى تلفع بالسواد قلبه ، لم يعد يهمه شىء فى الدنيا ، وهو ينزوى واضعآ على رأسه رداءه . يظلله من حرارة الشمس ، ويعينه على حمل الأحزان والأشجان ، وانظر إلى التصريع فى بيته هذا :

---

(١) بعلبك وحمص : مدينتان بالشام .
(٢) نشيم بروق المزن : أى ننظر إليها لنعلم أين مصاب المطر ومصبه .
(٣) الديوان : ٧٨ وما بعدها .
(٤) البكرات : جبيلات بطريق مكة . والبرقة : أرض فيهما حجارة ورمل . والعيرات هنا : مواضع الأعيار . وعارمة : موضع
(٥) غول وحليت ونفء ومنعج : كلها مواضع . وعاقل : جبل . والأمرات . الأعلام . وأحدها أمرة ، وهى الجبل الصغير .
(٦) عبراتى : دموعى .

أعنّى على التّهمام والذّكراتِ يَبِتْنَ على ذى الهمّ معتكرات(١)

وكأنه يوحى لسامعه به أنه ابتدأ بداية جديدة . فكأنه سكت ونهنه عبرته ثم عاودته أحزانه فعاد من حيث انتهى . وانظره يعبر بصيغة الأمر التى أخرجها مخرج الالتماس والرجاء ، يقول : يعنى على التهمام ! وانظر إلى عطفه « الذكرات » وكيف يوحى إليك ، إنها فعلت بنفسه فعل التهمام هذا . ثم انظر لطول الليل ، وإلى هذه الحسرة التى جعلته يراه بليل التمام ! قال :

بليلِ التّمام أو وُصِلنَ بمثله مُقايَسَةً أيامُها نَكِراتِ(٢)

وعلى هذا المنوال ، ينسج امرؤ القيس قصيدته « قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان(٣) فيها رسوم عفت ، وفيها ذكريات ، وفيها دموع وبكاء واستبكاء . فكأننا نطالع معلقته ، أو أية قصيدة أخرى ، اللهم إلا الصورة الفنية ، التى تختلف من قصيدة لأخرى . وهذا بطبيعة الحال ، شىء بديهى . لنقرأ معلقته ، ثم لنقرأ هذه الأبيات :

قفا نبكِ من حبيبٍ وعرفانِ ورسمٍ عفت آياته منذ أزمانِ(٤)

أتت حِجَجٌ بعدى عليها فأصبحت

كخطِّ زبورٍ فى مصاحف رهبانِ(٥)

---

(١) أعنّى على التهمام : أى ساعدنى على مناساة همومى . والذكرات : ما يتذكره من الأحبة . ومعتكرات : دائمات متتابعات .

(٢) ليل التمام : أطول الليل . وقوله وصلن بمثله . يريد وصلت الهموم والذكرات بليل التمام فى الطول . وقوله مقايسة أيامها : أى قيست أيام همومى بلياليها فى الشدة والانكار . ونكرات : شديدات منكرات .

(٣) الديوان : ٨٩ وما بعدها .

(٤) عرفان : ما عرف من علامات الدار .

(٥) الزبور : اسم الكتاب .

ذكرتُ بها الحيَّ الجميعَ فهيَّجتْ عقابيلَ سُقْمٍ من ضميرٍ وأشجانِ[1]

فسَحَّتْ دموعى فى الرِّداء كأنَّها كُلًى من شعيبٍ ذات سحٍّ وتهتانِ[2]

والذى لاحظناه عند بشر بن أبى خازم الاسدى ، من تذكر وتساؤل ، ومحاولة لاستعادة الذكريات ، حين يشاهد طللا من الأطلال . نلاحظه عند امرىء القيس ، حيث أنه يشاهد طللا فيقف عليه . وكذلك معانى شعراء البادية ، إنها تتكرر فى كل قصيدة ، وعند كل شاعر ، ولا فرق فيها بين هذه وهذه ، إلا هذه الروح العاطفية الحزينة التى تتضح على قارئها وتشجيه .

يشاهد امرؤ القيس طللا ، فيقف عليه ، يتساءل لمن هو ؟ حتى يتذكر هنداً والرباب . ويقوده تداعى المعانى ، إلى تذكر لياليه ، حين كان الهوى يدعوه فيجيبه ، وعيون أحبته إليه روان . فما أحلى تلك الليالى ! وما أعنف الحنين إليها . ثم انظر إلى هذا الاستفهام الاستنكارى ، يحسه القارىء وكأن الشاعر يفغر ويصيح من شدة الوجد ! . قال[3] :

لمن طللٌ أبصرتُه فشجانى كخطِّ زبورٍ فى عسيبِ يمانِ[4]

ديارٌ لهندٍ والربابِ وفرتَنَى ليالينا بالنَّعفِ من بَدَلانِ[5]

ليالى يدعونى الهوى فأجيبُه وأعينُ من أهوى إلىَّ روانِ[6]

---

(١) الجميع : المجتمعون زمن مرتبعهم . والعقابيل : البقايا .

(٢) سحت : سالت وصبت . والشعيب : المزادة . كلاها : رقع تكون فى أصول عراها . والتهتان : السيلان .

(٣) الديوان : ٨٥ وما بعدها .

(٤) عسيب يمان : كان أهل اليمن يكتبون فى عسيب النخل عهودهم وصكوكهم .

(٥) النعف : ما انحدر من الجبل ، وارتفع عن الوادى . وبدلان موضع .

(٦) روان : دائمات النظر فى سكون .

وانظر إلى اللمحة الصادرة عن العاطفة الصادقة فى قوله[1] :

أَلِمَّا على الرَّبعِ القديمِ بِعَسْعَسَا كأنى أنادى أو أكلِّمُ أخرسا[2]

وانظر إلى لفظة « القديم » وكيف توحى بهجرانه من بعيد . فالشاعر يستعين بصاحبيه ، على الإلمام بذلك الربع القديم . لماذا ؟ علّه يعين عن تكليم هذه الديار ، إذ هى خرساء لا تنطق ، صماء لا تسمع ، وقد رحل أهلها عنها . فمن يجيبه ؟ ومن يقضى على هذا الاستفهام المستكن فى صدره ؟ ومن الذى يستطيع أن يغمض عينه ساعة من الزمان؟ فهو يخشى أن يعود إليه داؤه القديم ، فيبكى من جديد . وهو بعد ذلك كله ، يطالب ألا ينكره الناس ، وهو باق كما هو ، حين كان الحى هاهنا معرسا . ألم تسمعه يقول :

أَلِمَّا على الرَّبعِ القديمِ بِعَسْعَسَا كأنى أنادى أو أكلِّمُ أخرسا

فلو أن أهلَ الدارِ فيها كعهدِنا وجدتُ مقيلاً عندهم ومُعَرَّسا[3]

فلا تنكرونى إننى أنا ذاكم ليالى حلَّ الحىُّ غَولا فألْعَسَا[4]

فإمَّا تَرَيْنى لا أغمِّضُ ساعةً من الليلِ ألَّا أن أُكِبَّ فأنعسا[5]

تأوَّبنى دائى القديمُ فغَلَّسا أحاذِرُ أن يرتدَّ دائى فأُنكَسا[6]

وهكذا يجرى حديث امرؤ القيس عادة عن الديار . مخاطبة لها ، وتساؤلا

(١) الديوان : ١٠٥ وما بعدها .

(٢) عسعس : موضع .

(٣) المقيل : النزول فى القائلة : والمعرس : النزول فى أول الليل أو فى آخره للاستراحة .

(٤) غول والعس : موضعان .

(٥) الإكباب : ملازمة الشىء مع انعطاف عليه وانحناء .

(٦) تأوبنى دائى : أى جاءنى مع الليل . وغلسا : أى أتاه ليلا فى الغلس وهو الظلمة . وانكسا : من نكس المرض ، وهو الرجوع إليه بعد البرء .

عنها ، وحمولا تغدو ! وحمولا تروح ، ويطول الزمان عليها ، فيحاول أن يتناسم ويتناساها ، ولكن لاسبيل إلى النسيان ! وتهيجه الربوع التى أقفرت من أهلها ، فقد رحلوا فى الغداة ، أو فى العشى . فتعيد عليه الديار حديث الأشجان ، وتذكره مرة بليلى ، وأخرى بنبهانية ، وثالثة ببنى ثعل .

وبعد فإن الغربة ألم ممض . والألم يحفر حروفه فى أعمق العواطف الإنسانية ، وفى القلب البشرى ، الذى يتدفق بالحنين إلى الوطن . ويقرر امرؤ القيس هذه الحقيقة ، بطريقة غير مباشرة ، حين يرى أن الغربة سبب من أسباب التآلف الروحى ، الذى يربط بين الغرباء بوثاقة ، فيكون مدعاة لالتقاءاتهم . لأن كل غريب منسب للغريب نسيب ! أى حبيب وقريب . قال[1] :

أجارَتَنَا أن المزارَ قريبُ ... وانى مقيمٌ ما أقامَ عسيبُ[2]

أجارَتَنا أنا غريبانِ هاهنا ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

كان هذا حين أوشك امرؤ القيس على الموت ، وهو بعيد عن وطنه ، غريب عن أهله ، مشاهد لقبر امرأة غريبة مثله .

ونجاوز امرؤ القيس إلى شاعر آخر ، هو طرفة بن العبد البكرى[3] .

وفى قصيدة له تطلع علينا باللوعة والألم والاحساس بالحزن الذى يلازم الإنسان ، حين يقف على ربع فيشجيه . ثم يحار فى هذا الذى شجاه . أهو الربع أم قدمه ، أم الرماد الدارس الحم ، ويمدى طرفه عن هذا التساؤل الملح ، الذى يظل دون جواب ، وينصرف إلى وصف هذا الطلل ، وكيف هو كسطور الرق المرقش ، بعد أن لعبت به السيول ، ونالت منه ريب الزمان . وأخيراً يحبس الشاعر نفسه فى هذا الربع ، ولو كانت المقادير تجرى كما يشتهى لما زايله . أنها قصيدة حافلة بالمعانى ، والحنين فيها واضح جلى . يقول[4] :

---

(١) الديوان ٣٥٧ .

(٢) عسيب : اسم جبل

(٣) توفى عام ٦٠ ق . م تقريباً

(٤) الديوان : ٦٨ وما بعدها .

أشجاكَ الرَّبعُ أم قِدَمُه ‏ ‏ أم رمادٌ دارسٌ حُمَمُه[1]

كَسُطورِ الرَّقِّ رقَّشَهُ ‏ ‏ بالضُّحى مُرَقِّشٌ يَشِمُه[2]

لعبتْ بعدى السيولُ به ‏ ‏ وجرى فى رونَقٍ رِهَمُه[3]

فالكثيبُ مُعْشِبٌ أُنُفٌ ‏ ‏ فَتَناهيــه فمُرتَـكِمُه[4]

جَمَلَتْهُ حَمَّ كَلْكَلَها ‏ ‏ لربيعٍ ديمةٌ تَثِمُه[5]

حابسى رسمٌ وقفتُ به ‏ ‏ لو أُطيعُ النفسَ لم أَرِمُه[6]

وعنترة بن شداد[7]، واحد من فرسان العرب وشعرائهم، يشعر بتلك المشاعر التى تلمسها لدى الشعراء الجاهليين جميعاً — والبدو منهم خاصة — ، خاصة ما يتعلق بالحنين إلى المرابع والديار، والمنازل والآثار، وما يستثيره من النؤى والأحجار، ومعالم الطبيعة . ولو صح شعر عنترة فى نسبته إليه، لوجدنا فيه صوراً غاية فى الوضوح والجلاء، مما يتصل بموضوعنا هذا . فى بيتين له، تذكرنا باللوعة التى يجابه بها الإنسان، حين يفقد وطنه وأولاده . تلك اللوعة التى أحالت شعر رأس

---

(١) أشجاك : أحزنك . دارس حممه : ذهب أثر فحمه .

(٢) كسطور الرق : كسطور الكتاب . ورقشه : زينه وحسنه بالنقط . يشمه : ينقشه ويزينه كالوشم فى المعصم .

(٣) الرونق : هنا حسن النبات وأوله . والرهم جمع رهمه وهى مطر ضعيفة كالديمة .

(٤) الكثيب : رمل مجتمع . الأنف : الذى لم يرع . التناهى : جمع تنهية وهى بطن ينتهى إليها السيل فيحتبس . مرتكمة : مجتمعة ومتراكمة .

(٥) حم كلكلها : قصده ومعتمده . كلكلها : صدرها، أى ناخت . تثمه : تدقه وتكسره .

(٦) لم أرمه : لم أبرحه .

(٧) توفى عام ٦٠٨م تقريباً .

عنترة أبيض اللون، بعد أن كان حالكاً بالسواد، فكان فقد الوطن عند عنترة، سبب مهم من أسباب الألم العنيف ، الذى يملك حتى على الأقوياء . زمام مشاعرهم ، فيحسون بالحرقة ، ويعيشون بالألم حتى يشيب شعرهم . وهذا متناسق مع نفسية عنترة لأنه عربى بدوى ، يندفع مع عاطفته بقوة ، فيمرح حين يمرح من كل قلبه ، وبكل مشاعره . ويتألم حين يتألم بكل قلبه ، وبكل ما تملك مشاعره من عنفوان ؛ حتى ليسير معها ، مهما كانت مشبوبة الضرام ، قوية الآثار . قال[1] :

أحرقتنى نارُ الجوَى والبعادِ بعد فَقْدِ الأوطانِ والأولادِ
شابَ رأسى فصارَ أبيضَ لونًا بعد ما كان حالكًا بالسَّوادِ

ولا ينسى عنترة عادة الشعراء الجاهليين فى قصيدة له ينهج بها نهجهم . لكنه خضوع على كل حال مشبوب العاطفة ، يكفى أن نقول عنها أنها عاطفة شاعر فارس عاشق . والذى يهمنا منها ، أنه يرسم لنا صورة جلية الملامح ، مستبانة القسمات ، لأطلال عبلة ، بين العقيق وبين برقة ثهمدُ ، تلك الأطلال التى هجرها أهلها فأضحت مسرحاً للآرام ، إذ ليس فيها من يروح ويغتدى . وليس فيها ما يطفىء نار الشوق من قلب الشاعر . ذلك الشوق الذى أوهى جلده ، وحمله على التجلد حملا ، وهو الشاعر الذى لم يعرف إلى التصبر سبيلا ، بل القوة طريقة لتحقيق مشاعره ، وإحراز انتصاراته . نقارن بين تلك العاطفة المشبوبة القوية العنيفة ، التى تملك على الشاعر نفسه . فيرمى بها إلى مهاوى الردى ، وهو يرد العار عن قومه ، غير هياب بالموت ، ولا محب للحياة — وبين تلك العاطفة الأخرى ، التى تملك عليه نفسه — أيضاً — فتحيله شخصاً ضعيفاً ، لا يستطيع تحقيق أمانيه ، فيضعف جلده ، ويبين تجلده . إلا أنه لحب عاصف إلى وطنه ، كان له فيه فى يوم من الأيام ، ذكرى مع عبلة . قال[2] :

بينَ العَقيقِ وبينَ بُرقَةِ ثهمدِ[3] طللٌ لعبلةَ مُسْتَهَلُّ المعهدِ
يا مسرحَ الآرامِ فى وادى الحمى هل فيكَ ذو شجنٍ يروحُ ويغتدى[4]

(١) ديوان عنترة ٦٧ . (٢) الديوان : ١٣٦ .
(٣) العقيق ، وبرقة ثهمد : موضعان . (٤) الشجن : الهم والحزن .

في أيمن الملمين درسُ معالم … أوهى بها جَلَدي وبانَ تجلُّدي [1]

والآن لننظر أبياتاً من معلقته[2]، يتضح لنا في مطلعها، أنه لم يأت بجديد، سوى أن يتساءل عن الشعراء، هل غادروا من متردام؟ . يقف عنترة على هذا الطلل يسائل نفسه، هل عرف الدار، أم أنه واهم في هذه المعرفة؟ فإذا كانت هذه الديار، هي ديار عبلة، فلتتكلم ولترد تحيته، وقد وقف فيها ناقته، ليقضي حاجة يجدها في نفسه. ترى ماهي هذه الحاجة؟ إنها الحنين إلى هذه الديار، حنيناً توقده الذكريات، ويوقده ما بقي في هـــذا الطلل من بقايا، كما توقده — أيضاً — «أم الهيثم»، التي يتغزل بها، والتي حلت بعيداً عن هذه الدار، فأصبح من العسير عليه طلابها.

في هذه الأبيات، نجد أن الدافع الأول — والأهم — للحنين إلى هذه الديار، هو الحب الذي عاناه الشاعر، حين كانت هذه الديار مأهولة بأحبابه. وبهذا يصدق ما سبق أن قررناه، من أن الدوافع التي تدفع الإنسان إلى الحنين كثيرة، ومنها، بل وعلى رأسها: ذكريات الصبا والشباب. قال:

هل غادرَ الشعراءُ من متردَّمِ … أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ [3]

أعياكَ رسمُ الدارِ لم يتكلَّمِ … حتى تكلَّمَ كالأصمِّ الأعجمِ

ولقد حبستُ بها طويلاً ناقتي … أشكو إلى سُفْعٍ رواكِدَ جُثَّمِ [4]

يا دارَ عبلةَ بالجواءِ تكلَّمي … وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي [5]

---

(١) الدرس: العفاء. والمعالم: مايستدل به. وأوهى: كلَّ وضعف. وبان: انفصل وفارق.

(٢) الديوان: ١٤٢ وما بعدها.

(٣) متردم: من قولك: ردمت الشيء إذا أصلحته.

(٤) السفع: الأثافي، وهي أحجار الموقد.

(٥) الجواء: موضع. وعمي: انعمي.

دارٌ لآنسةٍ غضيضٍ طرفها   طوع المناقِ لذيذةِ المتبسمِ (١)

فوقفتُ فيها ناقتي وكأنها   فدنٌ لأقضي حاجة المتلوِّمِ (٢)

وتحلُّ عبلةُ بالجواءِ وأهلُنا   بالحَزْنِ فالصَّمانِ فالمتثلَّمِ (٣)

حُيِّيتَ من طللٍ تقادمَ عهدُهُ   أقوى وأقفر بعد أمِّ الهيثمِ (٤)

حلَّتْ بأرضِ الزائرين فأصبحت   عَسِرًا عليَّ طِلابُكِ ابنة مخرمِ (٥)

وعلى هذا المنهج نفسه، ينهج عنترة في كثير من قصائده، ونعني به الوقوف على المنازل، ورسومها، وتحديد أماكنها، وبقاعها، والتجرد في معرفتها، والتساؤل عنها وعن سكانها الظاعنين، الذين تركوها للأنواء، وللرامسات. ثم تدمع عين الشاعر، إذ يثيرها بكاء حمامة من أيكة، فكأنها تثير أقوى عواطفه، فتملكه امتلاكاً، وتقوده قيادة، ويبكي، وهو الذي ما اعتاد إلا أن يكون قوياً صنديداً، وفارساً يدفع الدموع إلى عين غيره، ولا يترك لها سبيلا إلى عيونه. لكنها العاطفة! قوية، مضطرمة، أقوى منه، بحيث دفعته إلى البكاء. قال (٦):

طال الثواء على رسوم المنزلِ

بين اللُّكيكِ وبين ذاتِ الحرملِ (٧)

---

(١) الآنسة: الظبية تؤنس شخصاً؛ أي تبصره وليس بهار على الفعل؛ وإذا أبصرت شخصاً مدت عنقها وأشرأبت نحوه فبانت محاسنها؛ تشبه بها المرأة لذلك. وغضيض طرفها: أي فاتر نظرها. وطوع المناق: أي طيعة عند المناق.

(٢) الفدن: القصر. شبه به الناقة في كمال خلقها.

(٣) الحزن والصمان والمتثلم: مواضع.

(٤) أقوى: خلا، وأقفر: بمعناه.

(٥) الزائرين: الأعداء.

(٦) الديوان: ١١٨. (٧) الثواء: المكث.

فوقفتُ فى عَرَصاتها متحيِّراً   أسَلُ الديارَ كفعلِ مَنْ لم يُذهَلِ

لعبت بها الأنواء بعد أنيسها   والرامساتُ وكل جَونٍ مُسْبِلِ[(1)]

أفَمِن بكاء حمامــةٍ فى أيكةٍ

ذرَفَتْ دموعُك فوق ظهرِ المَحْمِلِ[(2)]

ويبلغ حنينه ذروته ، حينما يكون بعيداً عن الدار والوطن ، ثم تجبهه أشياء ، مما يذكره بذلك الوطن . فلنأخذ مثلا قصيدته (أرض الشربة)[(3)] فهو يخاطب فيها هذه الأرض ، بشعبها وواديها ، وقد رحل أهلها عنها ، ولكنهم عاشوا فى فؤاده ، وبعدوا عنه ، وهم فى قلبه وعيونه ، فإذا خفق البرق من حيهم ؛ أرق ليله ، وبات مسهدا ، ولريح الخزامى أثر عظيم ، فى تذكره لسيم عذارى ، وذات الأيادى ؛ ويبدو لنا أن عنترة ، قد نسج على منوال مغاير . لسائر الشعراء البدو الجاهليين ، لأنه كثيراً ما يذكر الرياح ، والنسيم ، والبرق الذى يخفق ، وطيب روائح ما كان فى البادية ، وكأن هذه الحواس ، دافعة لعواطفه إلى الظهور ، بقوة وعنف ، وكأنها تثير فى قلبه ، مكامن الشوق والحنين إلى أوطانه وأحبابه . فعجيب عنترة ! فى فروسيته ، وفى حنينه اللاهب ، الذى يذكيه برق يلمع ، أو ريح خزامى تفوح ، أو نسيم عليل يجرى محملا بالرائحة العطرة فنراه يقول :

أرض الشَّربَّةِ شِعْبٌ ووادى   رحلتُ وأهلُهَا فى فؤادى

يحلون فيه وفى ناظرى   وأن أبعدوا فى محلِّ السَّوادِ[(4)]

---

(١) الأنواء : جمع نوء ، وهو النجم مال للغروب ، والعرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إليها . والأنيس : القاطن ، يريد أهلها الذين أنسوا بها . والجون : الأسود المشرب حمرة ، يريد سحاباً متكاثفاً . ومسبل : ممطر .

(٢) الأيكة : الشجر الملتف الكثير . والمحمل (كمجلس) : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان .

(٣) الديوان : ١١٩ .

(٤) فى محل السواد : يريد سواد العين .

إذا خَفَقَ البرقُ من حيّهم أرِقتُ ، وبتُّ حليفَ السُّهادِ
وريحُ الخُزامَى يُذكر أنى نسيمَ عذارَى وذاتِ الأيادى[١]

ويقول[٢] :

إذا الريحُ هبّتْ من رُبى العلمِ السَّعدى
طفا بردُها حرَّ الصبابةِ والوجدِ[٣]
وذكّرنى قومًا حفِظتُ عهودَهم فما عرفوا قدرى ولاحفظوا عهدى

ويقول[٤] :

أرضُ الشَّرَبةِ تُرْبُها كالعنبرِ ونسيمُها يسرى بمسكٍ أذفرِ[٥]
وقِبابُها تحوى بدورًا طُلّعًا من كلِّ فاتنةٍ بطرفٍ أحْوَرِ

وفى البيتين الأخيرين ، سبب قوى وجديد ، يضيفه عنترة إلى أسباب الحنين إلى الوطن ، ذلك هو ريح التراب الجميل ، الذى يشبه العنبر فى طيبه . وتلك ديار عنترة ، تتمتع بتلك الرائحة الزكية ، التى قلما يجد الشاعر مثلها ، فى أى مكان آخر ، فإذا مارحل عنها ، أو ابتعد ، غلبه الشوق إليها ، والحنين إلى ربوعها ، وإلى ترابها الذى لاشبيه له ولا مثيل ! [٦] .

---

(١) الخزامى : نبت زهرة أطيب الأزهار .
(٢) الديوان : ١٣٩ .
(٣) الربى : جمع ربوة ، وهى ما ارتفع من الأرض .
(٤) الديوان : ٨٦ .
(٥) أذفر : جيد إلى الغاية .
(٦) لم أكن أتصور أن للتراب رائحة — بهذا الشكل — على الرغم من ذكر الشعراء لذلك ، إلى أن أخبرنى أستاذى الجليل الدكتور جميل سعيد ، بأن للأرض والتراب فى الحجاز نكهة معينة ، ورائحة جميلة ، إذا ما أمطرت عليها السماء ! .

ويقسق منهج عنترة ، بتكامله ، مع بيتين رائيين رائعين ، يذكر فيها ، أن المنزل الذى يقف عليه حزيناً ، قد بخل السحاب عليه بالمطر ، فهو يسقيه بدموعه ، فكان دموعه هى المطر . ولا غرو فى ذلك ، فقد قضى فى (أرض الشربة) أوقاتاً سعيدة مع الغيد الحسان ، وقضى منهن أوطاره . قال[1] :

يا منزلاً أدمعى تجرى عليه إذا
ضنَّ السَّحابُ عَلَى الاطلالِ بالمطرِ

أرضُ الشرِبَّةِ كم قَضَّيْتُ مبتهجاً
فيها مع الغيدِ والأَتراب من وَطَرِ[2]

وفى شعر النابغة الذبيانى[3] ، لوعة وحسرة يثيرهما ابتعاده عن الديار التى أحبها وقضى فيها أياماً سعيدة مع حبيبته ، يقول[4] :

أمن آلِ ميَّةَ رائحٌ أو مغتدِ عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوَّدِ[5]

والغد ، ذلك الشبح المخيف ، الذى يتهدد الشاعر ، بالهجر والفراق ، لا مرحباً ولا أهلاً به ، لأنه سيفرض حكمه القاسى على هذا الشاعر ، الذى يكاد يقضى عليه الحنين فلا يجد له متسعاً فى هذه الأرض ، بل أنها لتضيق به على سعتها :

زعم البوارحُ أنّ رحلتَنا غداً وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ[6]

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به ان كان تفريقُ الاحبَّةِ فى غدِ

أفِدَ الترحُّلُ غيرَ أنَّ ركابَنا لمّا تزل بِرِحالِها وكأنْ قدِ[7]

---

(١) الديوان : ٨٥ .

(٢) الوطر : الحاجة .

(٣) توفى عام ١٨ ق . ه تقريباً .

(٤) ديوان النابغة : ٢٨ — ٣٠

(٥) عجلان : من العجلة . والزاد : ما كان من تحية ورد سلام أو وداع .

(٦) تنعاب الغراب الأسود ، يقال : نعب الغراب ينعب نعباً ونعيباً ونعاباً وتنعاباً .

(٧) أفد : دنا وقرب . وقوله : وكأن قد ، أى : وكأن قد زال .

كأنه لا يصدق أنهم راحلون ، وكم يتمنى أن يظل فى هذه البلاد ، ولا عجب ، فأنها بلاد حبيبته التى هى عنده أعز بقاع فى الدنيا :

تسع البلاد إذا أتيتك زائراً وإذا هجرتك ضاق عنى مقعدى

وهنا لك جانب آخر ، من جوانب الحنين إلى الوطن ، فى شعر النابغة الذبيانى ، ألا وهو ، جانب الأطلال ، وفيه يصف النابغة الديار والمنازل ، ويذكر مايتصل بها من مشاعر وأفكار ، تنثال عليه حين يقف فيها يسألها ، وهى لا تستطيع أن تجيبه . أنها صم . وينظر إليها ، ويطيل النظر فيها ، فلا يجد إلا نؤيا وإلا بقايا من الآثار قد عفت عليها السيول ، فتضحى هذه الديار قفاراً ، إذا احتمل أهلها عنها . وحين يبلغ به اليأس مبلغه ، يعدى عنها وينصرف عن الدار ، ويلتفت إلى ناقته ، فيذكر ما يذكر من صفاتها . قال (١) :

يا دارَ مَيَّةَ بالعلياءِ فالسندِ أقوتْ وطالَ عليها سالفُ الأمَدِ (٢)

وَقفتُ فيها أصيلالاً أسائلُها عَيَّت جواباً وما بالرَّبعِ من أحَدِ (٣)

ألا أواريَّ لأياً ما أبيِّنُها والنؤيُ كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ (٤)

رُدَّتْ عليه أقاصيه وَلَبَّدَهُ ضربُ الوليدةِ بالمسحاةِ فى الثأدِ (٥)

---

(١) ديوان النابغة : ٢ — ٥

(٢) العلياء . مرتفع الأرض . والسند : سند الجبل ، وهو ارتفاعه . أقوت : صارت فى قواء وقفر .

(٣) أصيلالا : هو تصغير أصلان ، وأصلان : جمع اصل ، والواحد . أصيل . وقد قيل آصل وآصال فى أدنى العدد . وآصل للكثير . ويقال : آصلنا فنحن موصلون ، أى : جاءنا المشى .

(٤) الأوارى : جمع آرى ، وهو محبس الدابة . والنؤى : الحاجز من تراب حول الخباء لئلا يدخله السيل . والمظلومة : الأرض التى لم يكن بها أثر فاحتاج أهلها أن يحفروا فيها حوضاً لمطر أصابهم ، أو سيل دهم عليهم فحفروا فيها . والجلد من الأرض : الغليظ الصلب .

(٥) أقاصيه : أقاصى النؤى . ضرب الوليدة : هى الأمة الشابة . لبده : طامنة . الثأد : الندى .

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كانَ يَحْبِسُهُ ... وَرَفَّعَتْهُ إلى السَّجْفَيْنِ فالنَّضَدِ [1]

أَضْحَتْ قِفارًا وأَضْحَى أَهْلُها احْتَمَلوا ... أَخْنَى عليها الذى أَخْنَى على لُبَدِ [2]

فَعَدِّ عَمَّا تَرَى إذْ لا ارْتِجاعَ لهُ ... وانْمِ القُتُودَ على عَيْرانَةٍ أُجُدِ [3]

ويلجأ إلى رسم صور فنية أخرى ، لدار من تلك الديار ، التى يطول وقوفه عليها، حتى يتعرف على ملامحها ، فيجرفه سيل الذكريات ، من قبل ستة أعوام أو سبعة ، وقد تعفت رسومها بفعل كر السنين والأعوام ، فلم يبق فيها إلا (رماد ككحل العين) والأنؤى (كجذم الحوض) . هذا كل ما تبقى من وطن عاش فيه زمناً ، وهجره زمناً آخر . ولا نستطيع أن نتجاهل فنية الصورة ، التى يرسمها النابغـــة لهذه الدار ، فهو لم ينس أن يذكر حتى آثار ذيول الرامسات ، فيصفها بتضيم نفته الصوانع . وإننا وإن كنا لا نلمح حنيناً واضحاً إليها ، لكننا يمكن أن ندرجها فى موضوعنا ، لما لها من موقع فى النفس حين تطالعها ، باعتبارها دياراً كانت للشاعر فيها ذكريات هاجت عليه ، رغم مرور هذه السنين السبعة . وطبيعى أن الإنسان لا يذكر داراً بعد مرور هذه المدة ، إلا إذا كانت فى قلبه ذبالة من الحنين إليها ، يذكيها حبه لهذه الدار وذكرياته فيها . قال (٤) :

---

(١) سبيل : طريق . الآتى : النهر المحفور ، والآتى : السيل من حيث كان . ورفعته : بلغت بالحفر وقدمته إلى موضع السجفين ، والسجفان : ستران يكونان فى مقدم البيت . والنضد : ما نضد من متاعهم .

(٢) أخنى عليها : أفسد عليها الدهر. لبــــد : نسر من نسور لقمان ، وله حديث حسن .

(٣) عدّ عما ترى : انصرف عما ترى من تغير الدار . وأنم : ارفع . والقتود : عيدان الرحل . والأجد : الموثقة الخلق من النوق .

(٤) ديوان النابغة : ٤٢ — ٤٣ .

عفا حُسُمٌ مِنْ فَرْتَنَا فالفوارعُ ۝ فجنبا أريكٍ فالتِّلاعُ الدوافعُ[1]

فمنعرجُ الأسواقِ عَفَّى رسومَها ۝ مَصايفُ مَرَّتْ بعدنا ومرابعُ[2]

توهمتُ آياتٍ لها فعرفتُها ۝ لِسِتَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ[3]

رَمادٌ كَكُحْلِ العينِ ما أنْ تُبينُه ۝ وَنُؤْيٌ كجذمِ الحوضِ أثلَمُ خاشعُ[4]

كأنَّ مجرَّ الرامساتِ ذيولَها ۝ عليه قضيمٌ نَمَّقَتْهُ الصوانعُ[5]

وفي قصيدة أخرى ، ينهج الشاعر النهج نفسه ، فللأسماء ديار لم تبق إلا رسومها ، وقد هاجت ذكريات الشاعر ، ولكن أين منه تلك الديار ؟ ! حيث أن المطر الأنواء قد عملت على تعفي تلك الرسوم ، فلم يستطع الشاعر أن يتبين إلا آثار الآرام ، وإلا الحصى المثار ، ورجاف الرمل ، وإشعاعات الشمس ، التي تغمر هذه الرسوم ، كل هذا من بعد عهده لساكنيها الكرام ، ولذلك الحى ، الذى قضى فيه فيما يبدو لنا ، ردحاً من الزمن السعيد . قال[6] :

---

(١) حسم : بلد من بلاد بنى مرة . وأريك : موضع . والتلاع : مجارى الماء إلى الأودية ، وهى مسايل عظام . والدوافع تدفع الماء إلى الميث ، والميث يدفع الماء إلى الأعظم من الوادى .

(٢) منعرج الأسواق : مسايل فى الأرض صلبة . مصايف : جمع مصيف . ومرابع : جمع ربيع ، وإنما أراد مواضعهم فى الصيف والربيع .

(٣) توهمت . تفرست . وآيات : علامات .

(٤) كجذم الحوض : أى باغية وأصله هذا جذم الحائط أى أصله . وخاشع : لاط بالأرض اطمأن وذهب شخوصه . وأثلم : أى متكسر .

(٥) الرامسات : الرياح الشديدات الهبوب . والرمس : الدفن . وذيولها : مآخيرها . وذلك أن أولها يجىء بسرعة ، ثم تسكن . فشبه آثار هذه الرياح فى هذا الرسم بحصير من جريد أو أدم زمله الصوانع وتخرزه .

(٦) الديوان : ٦٥ : ٦٦ .

أهاجكَ مِنْ أسماءَ رسمُ المنازلِ ... ببُرْقَةِ نُعمى فروضِ الأجاولِ (١)

أربَّتْ بها الأرواحُ حتى كأنما ... تهادَيْنَ أعلى تُربها بالمناخلِ (٢)

وكلُّ مِلَثٍّ مُكْفَهِرٍّ سحابُهُ ... كميشِ التَّوالى مُرْثَعِنِّ الأسافلِ (٣)

إذا رَجَفَتْ فيه رَحًا مُرْجَحِنَّةٌ ... تَبَعَّجَ ثجَّاجًا غزيرَ الحوافلِ (٤)

عَهِدتُ بها حيًّا كرامًا فبُدِّلَتْ

خناطيلَ آرامِ الظباءِ المطافلِ (٥)

ترى كلَّ ذيَّالٍ يعارضُ رَبْرَبًا ... إلى كلِّ رجَّافٍ من الرملِ هائلِ (٦)

يُثِرْنَ الحصى حتى يُباشِرْنَ بَرْدَهُ

إذا الشمسُ مَجَّتْ رِيقَها بالكلاكلِ (٧)

وفى مطلع قصيدة من قصائده ، نعرض لها الآن ، نستطيع أن نتبين بوضوح

---

(١) برقة نعمى وروض الأجاول : موضعان .

(٢) أربت : لزمت وألحت فلم تبرح . وقوله تهادين : كأن الشمال تهدى إلى الجنوب والجنوب إليها .

(٣) ملث : سحاب ممطر دائم . ومكفهر : متراكب غليظ . كميش التوالى : ما يتولد من السحاب سريع إليه خفيف . والمرثعن : المسترخى .

(٤) رجفت : اضطربت . والرجف : الرعد . ورحا الغيث : معظمه . وثجاجا : صبابا . ومرجحنة : ثقيلة كثيفة الغيم . وتبعج : تشقق . والحوافل : السحاب الكثير الماء .

(٥) خناطيل : جماعات . الواحدة خنطلة وخنطل . والمطافل : أولاد الظباء .

(٦) الذيال : الثور الطويل الذنب . والربرب : جماعة البقر . والرجاف : الذى يتحرك إذا وطئته . وهائل : سائل لا يتماسك .

(٧) الكلاكل : الصدور ، أى بصدورهن يباشرن برد الحصى ، ومجت : أخرجت . وريق الشمس : لعابها تراه فى الهاجرة كأنه يسيل وهذا مثل .

أرق عواطف الحنين إلى الديار . فالنابغة يتساءل عن رسم يصادفه ، وقد عفت ريح الجنوب والصبا والمطر الغزير ، آياته ومعالمه ، حتى لم يبق فيه إلا ما عهدناه فى كل طلل حين يكون قد أكل الدهر عليه وشرب . وبعد هذه المرحلة التصويرية للديار ، يطالعنا الشاعر بوجه آخر ، ألا وهو موقفه هو ، إزاء فعـل الزمن بهذا الوطن الصغير ، الحبيب إلى قلبه ، فحين وقع قلبه عليه ، تناوبته الآلام والهواجس ، حتى بات فى فراش من الشوك والعوسج . كيف لا ، وهو يرى الديار قد تبدلت ، فلم يبق إلا « آل خيم منصّب » ، و« إلا مربط أفراس » . — فيا لهذه الصورة ، حين تجمع الضدين : آثار بالية عتيقة ، ليس فيها غناء العاشق — وعهد كان يرتع فيه بالهوى والعيش الغرير . غير أن النابغة ينسج على منوال الشعراء الجاهليين ، إذا سرعان ما يحاول نسيان هذه العواطف الإنسانية الجياشة ، الفياضة . فيتوجه همه لناقته وباليته ما فعل ذلك ، إذن لأعطانا صورة فريدة ، من صور الحنين الرائعة ، خاصة وأن مطلع القصيدة يؤكد رأينا هذا ، إذ ألح فيه استرسالا فنياً ، ونفساً طويلا ! قال(١) :

أرسمًا جديداً من سعادَ تجنّبُ ... عفتْ روضةُ الأجدادِ منها فَيثقُبُ(٢)

عفا آيةَ ريحُ الجنوبِ مع الصَّبا ... وأسحمُ دانٍ مُزْنُهُ مُتَصوِّبُ(٣)

وأُبدتْ سواراً عن وشومٍ كأنّها ... بقيّةُ ألواحٍ عليهنَّ مُذْهَبُ(٤)

فبتُّ كأنّ العائدات فرشننى ... هَراسًا به يُعلى فراشى ويقشَبُ(٥)

---

(١) الديوان : ٧٣ — ٧٥ .

(٢) الأجداد خلائق : تكون فيها المياه ، أو آبار عاد حفرت عاد . يثقب : أرض . جديد : دارس مجدود .

(٣) آية : علامته . وأسحم : سحاب أسود . مزنه . مطره . والمتصوب المتدلى القريب من الأرض .

(٤) وأبدت سواراً : يعنى الريح . وقوله : سواراً ، يعنى مساورة ، عن آثار الدار كالوشم ، شبها بالوشم والألواح المذهبة من نقشها .

(٥) فرشننى (كذا فى الديوان) ولعلها فرشن لى . الهراس : شوك يؤذى .

فلم يبق إلا آلُ خيمٍ مُنَصَّبٍ ... وسُفعٌ على أسٍّ ونؤى مُعَثْلَبُ(١)

ومقعدُ أيسارٍ على ركباتِهم ... ومربطُ أفراسٍ ونادٍ وملعبُ(٢)

عهدتُ بها سعدى وفى العيش غِرَّةٌ ... فأصبح باقى حبلِها يتقضَّبُ(٣)

فسَلِّ الهوى وستحملِ الهمَّ عِرْمِسًا ... خروسا بحاجاتى تخبُّ وتنعبُ(٤)

ويبلغ الحنين أشده عند النابغة ، حين يضحى كهلا . فيقف على ديار كانت فى يوم من أيام الشباب ، ملاعبه ومجال أنسه . كيف لا ، وهى دار لسعدى ، وقد مرت سنون سبعة ، منذ أن فارقها ، وفارق ديارها . فيقف عليها حين يدعوه الهوى فلا ترحب به الديار ، وكأنها لا تعرفه ، بل وكأنه لا يعرفها إذ غيّر الزمن معالمها . يتساءل عن سعدى . وليس له من مجيب ، لأن الدار تجهل أين سعدى . قال(٥) :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازلُ ... وكيف تصابى المرءِ والشيبُ شاملُ؟!

وقفتُ بربعِ الدارِ قد غيَّر البِلى ... معالِمَهُ والسارياتُ الهواطِلُ(٦)

أسائِلُ عن سُعدى وقد مرَّ دونها ... على حُجُراتِ الدارِ سبعٌ كواملُ(٧)

وتهيجه معاهد سعدى ، مرة أخرى . تهيجه وقد اضمحلت ، فليس فيها ما يثير العواطف اللهم ما تبقى من الآثار ، ومن الذكريات ، ومن الحنين إليها . ذلك أنه

---

(١) الآل : عمود الخيمة . والسفعة : سواد يضرب إلى الحمرة . والمعثلب : المهدوم .

(٢) النادى : المجلس . أراد بذلك مجالس الملوك .

(٣) غرة العيش : أيام الشباب . ويتقضب : ينقطع .

(٤) العرمس : الشديدة . والخروس : التى لا ترغو ، وهو أتعب لها . والنعب : تحريكها رأسها . والخب : ضرب من السير فوق التقريب ، والمشية المريعة .

(٥) الديوان : ١١٣ .

(٦) الساريات : الأمطار التى تسرى ليلا . أى تمطر ، وهواطل : ماطرة .

(٧) دونها : بعدها . وحجرات : وأحدها حجرة .

عهد سعدى فيها ، حين كانت غريرة عروباً تتهادى مع خرائد القبيلة . فلنعم ذلك الحى ولنعم تلك الأيام ، التى يبدو أنها لن تعود . قال (١) :

أهاجكَ من سعداكَ مغنى المعاهدِ ... بروضةِ نُعمى فذاتِ الاساوِرِ

تعاوَرَها الأرواحُ ينسِفْنَ تُرْبَها ... وكُلُّ مُلِثٍّ ذى أهاضيبَ راعدِ (٢)

بها كلُّ ذيالٍ وخنساء ترعوى ... إلى كلِّ رجافٍ من الرَّملِ فاردِ (٣)

عهدتُ بها سُعدى، وسعدى غريرةٌ ... عروبٌ تهادى فى جَوارٍ خرائدِ (٤)

لعمرى لنعمَ الحىُّ صبَّحَ سِربَنا ... وأبياتنا يومًا بذاتِ المرابدِ (٥)

وتارة يأرق الشاعر ، وأصحابه قعود على ربوة . ترى لماذا يأرق ؟ . أنه يحس بذكرى تجدد ذاكرته ، حين كان برق فى تهامة يلمع ، ويقعد له يطيل إليه النظر ، وأصحابه يتساءلون ما له ؟ فإذا به يطلب منهم أن يتأملوا ، أين يقع هذا البرق ، الذى أجاد على ذى فرتنا فالقوارغ ، فلماذا يجود على هذه الديار ؟ أهى دياره ؟ أنها ديار سعاد ، وأحبب بسعدى ، من خليط موادع . قال (٦) :

أرقتُ وأصحابى قعودٌ بربعوةٍ ... لبرقٍ تلألا فى تهامَةَ لامعِ

يجدُّ فيستشرى كأنَّ وميضَه ... وميضُ سيوفٍ فى أكفٍّ قواطعِ

---

(١) الديوان : ١٦٧ — ١٦٨ .

(٢) تعاورها : تداولها هذه مرة ، وهذه مرة . والملث : السحاب يكون مطره دائماً . وأهاضيب : دفعات من مطر .

(٣) كل رجاف ، رمل يتحرك لينهار .

(٤) غريرة : حدثة لم تجرب الأمور . عروب : مزاحة ضحاكة محبة لزوجها . وتهادى فى جوار : أى تمشى قد اكتنفتها الجوارى . وخرائد : حييات .

(٥) السرب : القطيع من البقر والظباء والنساء . ذات المرابد : موضع .

(٦) الديوان : ١٨٧ .

قعدتُ له ذاتَ العشاء فلم أنم	لدى مَرْقَبٍ من هضبِ نخلةَ فارع
وقلتُ: تأمَّل صاحِ اين مصابُه ؟!	أجادَ على ذى فَرْتَنا فالفوارع
لترعَ سعادَ حيث حلّتْ بناتُه	وأحببْ بسُعدى من خليطٍ موادع

ويبقى الشاعر منازلا « بمريتنات » ، وقد تعاورها صرف الدهر ، فيقف بها قلوصه مكتئباً ويسائلها وقد سفحت دموعه ويتراءى له من شدة ولهه وحزنه ، أن الطبيعة تشاركه ذلك الحزن فتبكي الحمامة ، وتهدل مفجعة .

كما أن الشاعر انطلاقاً من هذه العاطفة القوية ، يحاول أن يطرد أصحابه عنه حين يحاولون تعزيته . قال[1] :

غشيتُ منازلاً بعُرَيتناتٍ	فأعلى الجِزْعِ بالحىِّ المبنِّ
تعاورهنَّ صَرْفُ الدهرِ حتى	عَفَوْنَ وكلُّ منهمرٍ مرِنُّ
وقفتُ بها القلوصَ على اكتئاب	وذاكَ تفارُطُ الشوقِ المُعَنِّى
أسائلُها وقد سفحتْ دموعى	كأنَّ مفيضَهُنَّ غُروبُ شنِّ
بكاءَ حمامةٍ تدعو هديلاً	مفجّعةٍ على فننٍ تغنّى
ألِكْنى يا عيينَ إليكَ قولاً	سأبديه إليكَ ، إليكَ عنّى

وقال النابغة[2] :

عوجوا فحيّوا لنُعمٍ دمنةَ الدارِ	ماذا تحيّونَ منْ نؤىٍ وأحجارِ ؟!

هنا يطالع الإنسان نفسه ، ويقرأ ماضيه ، ويأسف على أيامه المنقضية . يطلب من صحبه أن يحيوا الدار ، لكنه سرعان ما يصطدم بالحقيقة المرة : ألا وهي أن الدار ليست الدار ! . فيتسائل « ماذا تحيون من نؤى وأحجاراً ؟ » . نعم . لقد أقفرت الدار ، ولم يبق فيها إلا آثار ، قد عملت فيها الطبيعة عملها ، وامتدت إليها يد الإهمال

(١) الديوان : ١٩٦ — ١٩٧ .
(٢) الديوان : ٢٢٣ — ٢٢٤ .

وكيف لهم أن يحيوا دمنة الدار ، وصاحب الشأن يقف سراة اليوم يسائلها عن آل نعم ، فلم تحير جواباً ، فلا علك إلا التمنى ، وليتها كلمته ، اذن لتزود منها بأخبارهم . وكل هذا يهون ، لو كان فى الدار شىء يعوج به غير الثمام ، وغير موقد النار. وماذا يغنى الثمام؟ وماذا يغنى موقد النار، وقد بعد الأحبة ، ولا سبيل إلى اللقاء ! قال :

عوجوا فحيُّوا لنُعمٍ دمنةَ الدارِ ماذا تحيُّون من نُؤيٍ وأحجارِ

أقوى وأقفرَ من نُعمٍ وغيَّره هُوجُ الرياحِ بهابي التُّربِ موَّارِ

وقفت فيها سراةَ اليومِ أسألُها عن آلِ نُعمٍ أمونًا عبرَ أسفارِ

فاستعجمتْ دارُ نُعمٍ ما تُكلِّمُنا والدارُ لو كلَّمتْنا ذاتُ أخبارِ

فما وجدتُ بها شيئًا أعوجُ به ألا الثُّمامَ ، والا موقِدَ النارِ

وحاتم الطائى(١) معروف بالكرم ورقة العاطفة الصادقة ، التى تشده إلى الناس لذا نراه حين يحن إلى جبال طىء ، يخوض فى عالم غير العالم الاعتيادى، حتى أنه ليخال أن ناقته تحن معه — أيضاً ، لكنه يقول لها : أن الطريق أمامنا ، وإنا لمكرهان على السير فيه . قال(٢) :

حنتْ إلى الأجبالِ أجبالِ طيِّءٍ وحنتْ قلوصٌ أن رأتْ سوطَ أحمرا

فقلتُ لها : أن الطريقَ أمامَنا وأنا لمحيو ربعِنا أن تيسَّرا(٣)

فياراكبَيْ عُليا جَديلةَ إنَّما تُسامانِ ضَيْمًا مستبينًا فتنظرا(٤)

ويسيطر عليه الحنين ، وتسوقه العاطفة سوقاً فيتمنى الموت وحين حل الحيّ أكناف جابر ، ولا غرو فى ذلك ، فإنه قد تذكر ليالى الهوى ، حين يدعوه فيجيبه حثيثاً ، ولا ينصت ... الزاجرين . قال(٥):

---

(١) توفى عام ٦٠٥ م تقريباً (٢) ديوان حاتم الطائى : ٤٧ .

(٣) محيو ربعنا : واجدوه . (٤) علياً جديلة : موضع . (٥) الديوان ٥٢ .

ألا ليت أن الموت كان حمامُهُ ليالى حلّ الحى أكنافَ جابر [١]

ليالى يدعونى الهوى فأجيبُهُ حَثيثًا ولا أرعى إلى قولِ زاجرِ [٢]

يبكى حاتم الطائى . ومم يبكى ؟ أنه يبكى من طلل قفر : هذا الطلل القفر ، يحدده لنا الشاعر ، تحديداً كاملا . ولا نرى دافعاً لهذا التحديد ، إلا الحنين ، وشدة الشوق ، والرغبة العظيمة فى ترديد أسماء هذه الأماكن على لسانه من حبه لها . وأنه يعود ليتأسى بالقضية المعروفة ، وهى أن الموت ، لا بد أن يأتى على كل كائن حى ، فلا عجب إذا نالت يد الفناء من هذه الدار ، ومن أهلها . قال[٣] :

بكيتَ وما يُبكيك من طللٍ قفرِ بسقفِ اللوى بين عمورانَ فالغَمرِ [٤]

بمُنعَرجِ الغُـلّانِ بين سُتيرةٍ إلى دارِ ذاتِ الهضبِ فالبُرَقِ الحُمرِ [٤]

إلى الشعبِ من أعلى سِتارٍ فثَرْمَدٍ فبلدةِ مَبنى سِنْبِسٍ لابنتَى عمرو [٤]

وما أهـلُ طودٍ مُكفَهِرٍّ حصونُهُ

من الموت الأمثلُ من حلّ بالصخرِ [٥]

ويلوح حاتم الطائى فى بعض قصائده ، متسائلا حين يقف على طلل ، يعيد إلى ذهنه ملامح من الماضى ، ملامح مغبشة بالنسيان ، والطلل قد تهدم ، حتى أضحى كالكتاب المنمنم ، فليس فيه إلا الدوارج والأتربة المتغيرة ، ولا ما غيرته الأيام من معالمه ، التى غيرتها الأيام ، فى حقبة من الزمن عاشها الشاعر ، كانت له فيها ساعات

---

(١) أكناف : جوانب . جابر : موضع .

(٢) حثيثاً : سريعا ، أرعى : أصغى .

(٣) الديوان : ٤٥ .

(٤) سقف اللوى . وعموران . والغمر . ومنعرج الغلان ، وستيرة . ودار ذات الهضب . والبرق الحمر . والشعب . وستار . وثرمد . وبلدة مبنى سنبس : كلها أسماء مواضع . (٥) الطود : الجبل .

مشهودة . تغيرت الديار بفعل الزمن ، الذى يمضى ولا يرحم الكائنات ، فتنال منها الأمطار والرياح ، وهوج الأنواء ، قال [١] :

أتعرفُ اطلالاً ونُؤياً مهدّما ... كخطّك فى رقٍّ كتاباً منمنما [٢]

أذاعتْ به الأرواحُ بعد أنيسها ... شهوراً وأياماً وحولاً مُجَرّما [٣]

دوارجُ قد غيّرْنَ ظاهرَ تُرْبَةٍ ... وغيّرتِ الأيامُ ما كان مُعلما [٤]

وغيّرها طولُ التقادمِ والبلى ... فما أعرفُ الأطلالَ إلا توهُّما

تهادى عليها حَلْيُها ذاتَ بهجةٍ ... وكشحاً كطىِّ السابريّةِ أهضما [٥]

وزهير بن أبى سلمى [٦] طالما وقف على المرابع ، والدمن ، والديار ، وهو يتساءل لمن هى ؟ ديار قد أقفرت وأقوت ، ولعبت بها الرياح وغيرها المور والقطر . قال [٧] :

لمن الديارُ بِقُنّةِ الحِجْرِ ... أقوينَ من حِجَجٍ وَمِن دهرِ [٨]

لعبَ الرياحُ بها وغيّرها ... بعدى سوافى المورِ والقطرِ [٩]

قفرا بمندفعِ النحائتِ من ... ضَفْوَى أولاتِ الضّالِ والسّدرِ [١٠]

---

(١) الديوان : ٧٩ .

(٢) النؤى : الحفير حول الخيمة يمنع السيل . والرق . الجلد الرقيق يكتب فيه والمنمنم : المنقش المرقوم .

(٣) المجرم : الكامل .

(٤) دوارج : نعت للأرواح ، أى تحمل التراب وتدرج به ، أى تمشى . المعلم : المعروف .

(٥) الكشح : الخاصرة . السابرية : ثياب رقيقة . الأهضم : اللطيف ، الدقيق

(٦) توفى سنة ٦٠٩ م تقريباً .

(٧) الديوان : ٨٦ وما بعدها .

(٨) القنة : الجبل الصغير . الحجر : موضع . أقوين : خلون

(٩) سوافى : ما تسفى الريح من التراب . المور : التراب تثيره الريح .

(١٠) النحائت : آبار فى موضع يقال لها النحائت . ضفوى : موضع أولات : يريد النحائت ذوات السدر البرى . الضال : السدر البرى .

ويتساءل مرة أخرى عن دمن أم أوفى ، بحومانة الدراج فالمتثلم ، هذه الدمنة ، التى لم يبق منها ، إلا آثار كمراجع الوشم فى المعاصم ، وليس فيها إلا العين والآرام ، وأطلاؤها اللائى ينهض من كل مجثم ، يقف بها زهير بعد أن فارقها عشرين سنة ، حتى عرف الدار وما كاد . إذن ما الذى بقى منها ؟ ليس إلا الاثافى والنؤى ، وكيف يستطيع زهير أن يعرف الدار ، التى لم يتبق منها غير هذه الآثار ؟ وحين يعرف زهير أنها دار سلمى ، يحييها تحية الصباح ، تحيــة يثيرها الحنــين ، وتذكى ذبالتها الذكريات . قال (١) :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ (٢)

دِيَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا ... مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِى نَوَاشِرِ مِعْصَمِ (٣)

بِهَا الْعِينُ وَالآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ (٤)

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ (٥)

أَثَافِىَّ سُفْعًا فِى مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْيًا كَحَوْضِ الْجُدِّ لَمْ يَتَثَلَّمِ (٦)

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا ... أَلَا أَنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَأَسْلَمِ

---

(١) الديوان : ٤ وما بعدها .

(٢) الحومانة : الجمع حوامين . أماكن غلاظ . المتثلم : موضع . الدمنة : آثار الدار .

(٣) الرقمتان : موضعان . أحدهما قرب المدينة ، والآخر قرب البصرة ، وهنا أراد بينهما . النواشر : عصب الذراع ، الواحدة ناشرة . المعصم : موضع السوار .

(٤) العين : البقر الوحشى . الواحدة عيناء ، والذكر أعين . الآرام : الظباء البيض . قوله خلفة : أى إذا مضى فوج جاء آخر ، أطلاؤها أبناء البقر والظباء . مجثم : من جثم ويجثم بمعنى ربض .

(٥) لأيا : بعد جهد .

(٦) معرس مرجل : حيث أقام الرجل ، وأراد موضع الاثافى . المرجل : القدر . السفعة : سواد تخالطه حمرة . الجد : البئر . والمعرس : موضع تعريس القوم .

وفى القصيدة التالية ، حنين طاغ ، وذلك حين يتأوبه ذكر الأحبة ، فيهجع وقد أقسم أن يلحق بهم . ويلحقهم مرتحلا ، بالفجر ، دائباً إلى الليل . أنهم المعشر الذى يهم قال [1] :

تأوبنى ذكرُ الأحبةِ بعدما هَجَعْتُ ودونى قُلّةُ الحَزْنِ فالرَّمْلِ [2]

فأقسمتُ جَهْدًا بالمنازلِ من مِنىً وما سُحِقَتْ فيه المقاديمُ والقَمْلُ [3]

لأرتحِلَنْ بالفجرِ ثم لأدأَبَنْ إلى الليلِ إلا أن يعرِّجَنى طِفْلُ [4]

إلى معشرٍ لم يورثِ اللؤمَ جدُّهم أصاغِرَهم وكلُّ فحلٍ له نَجْلُ [5]

ورب متسائل يسأل : أين الحنين إلى الوطن ، وهو مرتحل فى أثر الأحبة ؟ وفى رأينا ، أن هذا التساؤل غير وارد ، لأن الرحيل فى أثر الأحباب ، بحث عن وطن جديد ، سيكون له شأن عند الشاعر ، إذا ما سمح الزمن له بالوقوف عليه ، وقد تعفت آثاره ، واندرست آياته . أنها طبيعة الحياة الجاهلية ، وهل لزهير فكاك عنها ؟

وتهيج معارف الرسوم فؤاده ، وأية رسوم تلك ؟ أنها دياره التى كان يقيم بها وهى قفر — الآن — كالوشم ، وقد تعهدها الغيث (وافتخرت ذواخره بتهاول) ويراها زهير ، وقد صرمه سكانها (عكرا) ، وابتعدوا عنه ، واستأثر بهم الدهر ، وطال ما كان هو هدف الدهر فى رميه . وكيف لزهير أن يناضل هذا الدهر ؟ انه لا يملك إلا أن يعاتبه على كثرة الفجائع وعلى سلبه ما ليس يعقبه ويختم زهير قصيدته

---

(١) شرح الديوان : ٩٨ وما بعدها .

(٢) تأوبنى : أتانى مع الليل . القلة : أعلى الجبل . والحزن : ماغلظ من الأرض

(٣) سحقت : حلقت . المنازل : حيث ينزل الناس من منى . المقاديم : مقاديم الرؤوس . مفردة مقدم الرأس . القمل : الشعر الذى فيه القمل .

(٤) أدأبن : من الدءوب ، أى المثابرة . يعرجنى طفل . يقول الا أن تجهش ناقتى فتحبسنى أقوم عليها ، أو أقدح النار فتحبسنى .

(٥) النجل : النسل .

بصرخته المعروفة : يا دهر ما أنصفت فى الحكم . قال [1] :

هاج الفؤادَ معارفُ الرسمِ ... قفرٌ بذى الهضباتِ كالوشمِ [2]

تعتادُه عِينٌ مُلَمَّعَةٌ ... تُزجى جآذِرَها مع الأُدْمِ [3]

القفرُ يعطفُها أقبُّ ترى ... نسفًا بِلَيْتَيْهِ من الكَدْمِ [4]

فى عانةٍ بَذَلَ العِهادُ لها ... وسمىُّ غيثٍ صادقِ النَّجْمِ [5]

فاعتمَّ وافتخرتْ زواخرُه ... بتهاوِلٍ كتهاوِلِ الرَّقْمِ [6]

ولقد أراها والحُلولُ بها ... من بعد صرمٍ أيُّما صَرْمِ [7]

عَكَرًا إذا ماراح سَرْبُهم ... وثنوا عُرُوجَ قنابِلٍ دُهْمِ [8]

(١) شرح الديوان : ٣٨٢ وما بعدها .

(٢) معارفه : علاماته . الهضبات : جبال فى هذه المواضع .

(٣) ملمعة : بها لمع تخالف سائرها . والجاذر : أولاد البقر والظباء . الأدم : الظباء البيض : تزجى : تسوق .

(٤) القفر : الخالى من الأرض . وأقب عير ضامر الخاصرتين . ونسف : آثار المضاض من الحمير . وليتاه : صفحتا عنقه . وقوله : يعطفها أقب : أى أراد الحمار أن يلى البقر ويغلبها على المراعى .

(٥) عانة : قطعة من الحمير . العهاد ؛ الواحدة عهدة ، وهى المطرة تجىء بعد الأخرى . والوسمى : أول المطر . وغيث : نبت . والنجم من النبت : مالا ساق له .

(٦) أعتم النبت : التف وطال . افتخرت زواجره : ظهر جمال ما طال منه والتف . وتهاوله : ألوان زهرة . الرقم : نقوش الوشى .

(٧) الحلول : جمع حال ، يقال رجل حال من قوم حلول . الصرم : الأبيات من الناس أو الجماعة .

(٨) العكر القطعة من الإبل ما بين الخمسين إلى المائة . والعروج : جمع عرج وهو حيث شاء وراح من المرعى . والسرب : مال القوم الراعى .

فاستأثر الدهرُ الغداةَ بهم والدهرُ يرميني ولا أرمي

لو كان لي قِرنًا أناضِلُه ما طاشَ عند حفيظةٍ سهمي

أو كان يعطي النَّصْفَ قلتُ له أحرزتَ قِسمكَ فاله عن قسمي [1]

يا دهرِ قد أكثرتَ فجعَتَنا بسَراتِنا وَقَرَعْتَ في العظمِ [2]

وسلبتنا ما لستَ مُعْقِبَهُ يا دهرُ ما أنصفتَ في الْحُكمِ

وطفيل الغنوي[3] يفتتح قصائد كثيرة له، بذكر الأطلال، ويشوب هذا الذكر، شيء من الحنين إليها وإلى سكانها، ويظهر في شعره — أحياناً — قوة وصدقا، مردهما إحساسه الأصيل بالحنين، وتوقه إلى الديار وسكانها. فهو يقول[4]:

بالعُفرِ دارٌ من جميلة هيَّجتْ سوالفَ حُبٍّ في فؤادكَ مُنصِبِ [5]

وَكنتَ إذا بانت بها غُربةُ النوى

شديدَ القوى لم تدرِ ما قولُ مُشْغِبِ [6]

وتفيض دموعه من رسم قد بلى، ويستنكر هذا الفيضان، ويصور ذلك الاستنكار في شعره، إذ يقول[7]:

أمن رسومٍ بأعلى الجزع من شَرِبِ

فاضتْ دموعكَ فوق الخدِّ كالشَّرَبِ

---

(١) النصف: الانصاف. (٢) السراة الأشراف.

(٣) توفي قبل بدء الدعوة الإسلامية بقليل تقريباً.

(٤) الديوان ١٧ وما بعدها.

(٥) العفر: كثبان حمر بالعالية في بلاد قيس. سوالف. مواض. منصب: متعب.

(٦) بانت: بعدت. الشغب: الاعتراض.

(٧) الديوان: ٩٥.

وهكذا يظل الشاعر بين عرفان واستجهال . تارة يعرف الدار فيقول[١] :

عرفتُ لليلى بين وقطٍ فضالعٍ ... منازلَ أقوتْ من مصيفٍ ومربعِ[٢]

إلى المنحنى من واسطٍ لم يبن لنا ... بها غيرُ أعوادِ الثمامِ المنزَّعِ

وتارة يجهل الدار ، فيتساءل محنقاً[٣] :

لمن طللٌ بذى خيمٍ قديمُ ... يلوحُ كأنَّ باقيهِ وشومُ

كأغلبَ من أسودِ كراءَ وَردٍ ... يشدُّ خشاشهُ الرجلُ الظلومُ[٤]

ومن هنا ، فإننا نكاد نخرج من دراستنا لشعر الطفيل الغنوى ، بما خرجنا به من دراستنا لغيره من الشعراء . فى كثير من الأحوال ذكر الديار والأطلال ، وقد يشوبه حنين إليها ، وفى قليل من الأحيان نحس بصدق العاطفة فى ذلك الحنين عنده .

وأمية بن أبى الصلت[٥] يعرف الدار وقد أقوت سنين ، أنها دار لزينب ، لكن زينب رحلت عنها وتركتها ، وأتت عليها السنون ، وعصفت بها الرياح ، فيقف عليها ، ويظهر حنينه إليها ، وإلى أيامه الحوالى التى انقضت بين جنباتها . حيث يقول[٦] :

عرفتُ الدارَ قد أقوتْ سنينا ... لزينبَ إذ تحلُّ بها قطينا[٧]

وأذرتْها حوافلُ معصفاتٌ ... كما تذرى الململمةُ الطحينا[٨]

---

(١) الديوان : ١٠٣٩ — ١٠٤ . (٢) وقط وضالع : موضعان .

(٣) الديوان : ١١١ (٤) الخشاش والخشاش : الخفيف الروح الذكى .

(٥) توفى عام ٦٢٤ م تقريباً .

(٦) جمهرة أشعار العرب : ١٨٥ وشعراء النصرانية : ١/٢٢٣ .

(٧) القطين : سكان الدار . والقطون : الإقامة ، قطن بمكان : أقام به وتوطن .

(٨) الحوافل : النوق أو الشياه وقد حفل ضرعها باللبن .

وسافرتِ الرياحُ بهنّ عُصرًا بأذيالٍ يرحن ويغتدينا

فأبقين الطلولَ مخبّياتٍ ثلاثًا كالحمائمِ قد بلينا

والبرّاق هو أبو نصر البراق بن روحان بن أسد بن بكر بن مرة من بنى ربيعة . وهو من قرابة المهلهل وكليب ، وكان شاعراً مشهوراً من أهل اليمن ، من شعراء الطبقة الثانية ، وهو جاهلى قديم توفى عام ٤٧٠ م [شعراء النصرانية ١٤١/١]

والبراق يغادر دياره ، ويصبح غريباً فى ديار لايجد فيها أخاً يواسيه ، أو صديقاً يشد أزره . ويسفح دماً . ويرجّع العبرات التى من يسمعها . قال(١):

وقد أصبح البرّاقُ فى دارِ غربةٍ وفارق اخوانًا له ومواليا

حليفُ نوىً ، طاوى حشًا ، سافحُ دمًا

يرجّعُ عبراتٍ يهجن البواكيا

فمن مبلغٌ عنى كريمةَ أمّه لتندبَ غرسانًا وبرّاق ثانيا

وينادى عميرة التغلبى هو عميرة بن جعل بن عمرو بن مالك بن الحارث بن حبيب بن حرقة بن ثعلبة بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب شاعر جاهلى . و « عميرة » بفتح العين . [المفضليات شرح شاكر وهارون : ٢٥٧]

وينادى عميرة التغلبى ، ديار الحى بالبردان ، التى أتت عليها حجج ثمان ، بعد بعاده عنها ، فلم يبق فيها إلا بقية من الآثار والدمن ، وقد لعبت بها الريح والأمطار ، فأضحت قفراء ، يحاربها القطا ، وتتحرك فيها السباع . قال(٢) :

ألا يا ديارَ الحىِّ بالبردانِ(٣) أتتْ حججٌ بعدى لهن ثمانِ

فلم يبق منها غيرُ نؤىٍ مهدمٍ وغيرُ اوارٍ كالركىِّ دفانِ(٤)

---

(١) شعراء النصرانية : ١٤٧/١ : (٢) شعراء النصرانية : ١٩٥/١ .
(٣) البردان : موضع . (٤) الركى : جنس للركية . وهى البئر .

وغيرُ حطوباتِ الولائدِ زعزعتْ ... بها الريحُ والأمطارُ كلَّ مكانِ[1]

قفارٍ مروراةٍ يحارُ بها القطا ... يظلُّ بها السبعانِ يعتركانِ[2]

يثيرانِ من نَسْجِ الترابِ عليهما ... قميصين أسماطاً ويرتديانِ

ويتساءل الحارث بن عباد هو أبو بجير وقيل أبو المنذر الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة البكرى، من أهل العراق، من فحول شعراء الطبقة الثانية، كان من سادات العرب وحكامها وشجعانها الموصوفين: توفى عام ٥٥٠م. [شعراء النصرانية ١/٢٧٠].

ويتساءل الحارث بن عباد، عن رسم درس بعد أهله، هذا الرسم، قد زعزعته الصبا، وهاجت عليه الدبور، وأمترته الجنوب، وأنهالت عليه السجالات المكفهرات، ويبدو أن هذه هى سنة الزمن فكما عفت ديار سلمى، كذلك عفت ديار الرباب التى كانت مأهولة بها، لكن السنين والرياح، قد غيرت معالمها. قال[3]:

هل عرفتَ الغداة رسماً محيلا ... دارساً بعد أهلِهِ مجهولا

لسُليمى كأنه سَحْقُ بُرْدٍ ... زادَهُ قِلَّةُ الأنيسِ محولا

زعزعته الصبا فأدرجَ سهلاً ... ثم هاجت له الدَّبورُ نخيلا

فكأن اليهودَ فى يومِ عيدٍ ... ضربت فيه روقشاً وطُبولا

وأمترتْهُ الجنوبُ حتى إذا ما ... وجدتْ فودَهُ عليها ثقيلا

ثم هالت عليه منها سجالاً ... مكفهرًا فتستقيه سجيلا

وتذكرتُ منزلاً لرباب ... أنه كان مَرَّةً مأهولا

غير أن السنين والريح أبقت ... تُربَةً فى رُسومِهِ منحولا

(١) الولائد: الشواب من الجوارى.

(٢) المروراة: الأرض أو المفازة التى لاشىء فيها.

(٣) شعراء النصرانية: ١/٢٧٩

هو عمر بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن ثعلبة . . . كان من أقدم شعراء بكر فى الجاهلية ويعد من شعراء الطبقة الثانية . ولد نحو ٤٦٩م وتوفى نحو ٥٦٠م [شعراء النصرانية ٢٩٣/١]

وعمرو بن قميئة . تسأله ابنته عن وجهة هجرته ، وتتذكر أرضاً بها أهلها ، وأخوالها وأعمامها فتبكى حنيناً إليها ، وتنكر الارض التى تجهل أعلامها . ولا يخفى على القارىء حنين الشاعر نفسه إلى دياره وإلا فلم قال (لله در اليوم من لامها !) أرأيت إذن ؟ فهو يحن ، ويود أن يفصح ، إلا أن ابنته سبقته . قال [1] :

قد سألتنى بنتُ عمرٍو عن الأر ضين إذ تُنكِرُ اعلامُها

لما رأتْ ساتيدما استعبرتْ لله درُّ اليوم من لامها [2]

تذكّرتْ أرضاً بها أهلُها أخوالُها فيها وأعمامُها

والمثقب ، بكر القاف : وهذا لقب لُقِّبَ به لقوله فى قصيدة .(وثقّبن الوصاوص للعيون) والوصاوص : البراقع . واسمه:عائذ ، ويقال عائذ الله بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن عدى بن عوف بن دهن ابن عذرة : . . شاعر فحل قديم جاهلى كان فى زمن عمرو بن هند .

[المفضليات تحقيق شاكر وهارون : ١٤٩] .

والمثقب العبدى ، يتوسل إلى صاحبيه أن يقفا على الدار ، التى قد حالت رسومها فيحيياها . ويستسقى النوادى ، وقد وقف فيها ، يرد عينه من عبراتها الواكفة ، كأنه يقاسى من سوابق شجن ، ومن ليلة ضاق فيها صدره . قال [3] :

ألا حيِّيا الدارَ المُحيلَ رسومُها تَهيجُ علينا ما يَهيجُ قديمُها

سقى تلك من دارٍ ومَنْ حلَّ ربعَها ذِهابُ النوادى وبلُها وقديمُها [4]

---

(١) شعراء النصرانية ٢٩٥/١ (٢) ساتيدما : جبل .

(٣) ديوان المثقب العبدى : ٤٧ : ٤٨ .

(٤) الذهاب : الأمطار ، واحدتها ذهبة . والوبل . المطر الشديد . والديم ما كان دائماً . وهى المطر الذى يدوم فى سكون بلا رعد وبرق .

ظللتُ أردُّ العينَ عن عبراتِها ... إذا نزفتْ كانت سريعاً جُمومُها (١)

كأني أقاسي من سوابقِ عبرةٍ ... ومن ليلةٍ قد ضافَ صدري همومُها

ويقف عوف بن الأحوص على ديار قد هدمت حياضها ، ويذكر أنها كانت لخولة ، وقد كان أهلها قد ساكنوا أهله فيها ، ولله در الأيام ما تفعل ، فيعسر عليه أن يتبين آثار الدار . قال (٢) :

هُدِّمتِ الحياضُ فلم يغادرْ ... لحوضٍ من نصائبِهِ إزاءُ (٣)

لخولةَ إذ هُمُ مغنىً وأهلي ... وأهلُكِ ساكنون معاً رئاءُ (٤)

فلأْياً ما تبينُ رسومُ دارٍ ... وما أبقى من الحطبِ الصِّلاءُ (٥)

وربيعة بن مقروم . وهو ربيعة بن مقروم بن قيس بن جابر بن خالد بن عمرو وهو أحد شعراء مضر المعدودين فى الجاهلية والإسلام ، أسلم فحسن إسلامه ، وشهد القادسية وغيرها من الفتوح . وعاش ١٠٠ سنة .

[المفضليات تحقيق شاكر وهارون : ١٨٠]

وربيعة بن مقروم ، ويعرف ديار آل هند ، وهى قفراء ، حتى كأنك تخال معارفها كرسوم الوشوم . فيقف ناقته عليها يسائلها ، وما سؤاله للرسوم ؟ أنها خرساء لا تجيب ، بكماء لا تنطق ، إلا أنه يتذكر العهد الذى قضاه فيها ، فيشتعل قلبه ، وتفيض دموعه على لحيته وردائه فينهاها . (٦)

أمِنْ آلِ هندٍ عرفتَ الرسوما ... بجمرانَ قفراً أبتْ أن تريما (٧)

---

(١) الجموم تجمع الماء بكثرة
(٢) المفضليات ٣٤١ — ٣٤٢
(٣) النصائب : حجارة يشترف بها الحوض ، والإزاء ، مصب الدلو .
(٤) المغنى : الموضع الذى يقام فيه . والرئاء . المقابلة .
(٥) لأيا بطيئاً . (٦) المفضليات : ٣٥٥ (٧) جمران : موضع .

تخالُ معارفَها بعـــدما أتى سنتانِ عليها الوشُوما[1]

وقفتُ أُسائلُها ناقتى وما أنا أم ما سؤالى الرُّسوما[2]

وذكَّرنى العهدَ أيامُها فهاجَ التذكُّرُ قلباً سقيما

ففاضتْ دموعى فنهنهتُها على لحيتى وردائى سُجُوما[3]

« والمرقش (لقبه واسمه ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة . وهو ابن أخى المرقش الأكبر . والمرقش الأصغر أشعر المرقشين وأطولها عمراً . وكان أحد عشاق العرب المشهورين وفرسانهم . وهو جاهلى .

[المفضليات تحقيق شاكر وهارون : ٢٤١] .

والمرقش الأصغر ، يستغرب كيف يسفح ماء عينيه ، من رسم الدار التى فارقها أهلها ورحلوا عنها ، فلم يبق فيها إلا خنس الظباء . لاشىء فى نظرنا يدعوه لذلك إلا الحنين والشوق . قال (٤)

أمِنْ رسمِ دارٍ ماءُ عينيكَ يسفحُ غدا من مقامٍ أهلَه وتروَّحوا[5]

تُزجّى به خنسُ الظِّباءِ سخالَها جآذرُها بالجوِّ وردٌ وأصبحُ[6]

ويصف خراشة بن عمرو العبسى . لم نعثر له على ترجمة ، رسما بالجوتين أبى أن يتحول ، وقد تبدل من ليلى ، بنعاج الملا ، ترعى الدخول وحوملا . وهى علمة بالشام ، وخدودها سفح أنها صورة فنية جيدة يرسمها خراشة لرسوم هذه الدار ، مستكملا عناصر الصورة ، من ظلال وضوء ، بحنينه إليها . قال(٧) :

---

(١) الوشوم : جمع وشم ، وهى الخضرة تكون فى اليد من فعل العجم .

(٢) الرسوم . آثار الديار . (٣) نهنهتها . كففتها .

(٤) المفضليات : ٤٩٣ . (٥) مقام . موضع .

(٦) تزجى . تسوق سوقاً ضعيفاً . والجآذر : جمع جؤذر ، ولد البقر . والورد والأصبح فى ألوانها : هى الوردة والصبحة .

(٧) المفضليات : ٨٢٣ .

أبى الرسمُ بالجونينَ أن يتحوّلا
وقد زادَ بعد الحولِ حولاً مكمّلا (١)

ويُبْدِلَ من ليلى بما قد تَحُلُّهُ نعاجَ الملا ترعى الدَّخولَ فحوملا (٢)

ملمّعةً بالشام، سُفْعاً خدودُها كأن عليها سابريّاً مُذَيَّلا (٣)

ويقف بشامة بن الغدير، هو بشامة بن الغدير، والغدير هو عمرو بن هلال بن سهم بن مره بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان. شاعر جاهلي محسن مقدم. وهو خال زهير بن أبي سلمى. ولد مقعداً ولا ولد له، وكان مكثراً من المال، وكان أحزم الناس رأياً، كانت غطفان تستشيره إذا أرادت الغزو [المفضليات تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. ص ٥٥].

ويقف بشامة بن الغدير، على ديار عفت بالجزع ودرست بمضى سنين سبع عليها، فلم تبق فيها إلا بقايا خيمة درست، فيقف فيها وقد جالت دموعه من الشوق والحنين. قال(٤):

لمن الديارُ عفونَ بالجَزْعِ بالدَّومِ بين بُحارَ فالشُّرعِ (٥)

دَرَسَتْ وقد بقيت على حِجَجٍ بعد الأنيسِ عَفَوْنَها سبعِ

إلا بقايا خيمةٍ دَرَسَتْ دارت قواعدُها على الرَّبعِ (٦)

---

(١) الجونان: موضع.
(٢) النعاج: البقر. الملا: المتسع من الأرض. الدخول وحومل: موضعان.
(٣) السفعة: سواد يضرب إلى الحمرة. والسابرى: ثياب.
(٤) المفضليات: ٨٢٦ — ٨٢٧.
(٥) الجزع: منعطف الوادي حيث انحنى. والدوم وبحار والشرع: كلها مواضع.
(٦) قواعدها: دعائمها التي تدعم بها. والربع: المنزل.

فوقفتُ فى دارِ الجميعِ وقد جالتْ شئونُ الرأسِ بالدمعِ (١)

ويقف العباس بن مرداس السلمى (٢)، وقفة تمكنه من رسم صورة رائعة، لدار أسماء، بين السفح فالرحب، وقد أقوت، وعفا عليها ذاهب الحقب، وليس فى هذه الدار، إلا راسيات يعدها الشاعر، فيجدها ثلاثا حول منتصب: أنه لايغفل صغيرة أو كبيرة فى هذه الصورة التى يلتقطها لهذه الدار، يضاف إلى هذا، أن عرصة الدار، تستن الرياح بها، فكأنها تحن (حنين الوله السلب) هذه الدار، قد كلف بها العباس بن مرداس فعشقها. وحن إليها قال (٣):

يا دارَ أسماء بين السفحِ فالرُّحُبِ أقوتْ وعفى عليها ذاهبُ الحقبِ (٤)

فما تبيّنَ منها غيرُ مُنْتَضَدٍ وراسيات ثلاث حول منتصبِ

وعرصةُ الدارِ تستنُّ الرياحُ بها تحنُّ فيها حنينَ الوُلّهِ السُّلُبِ (٥)

دارٌ لأسماء إذ قلبي بها كَلِفٌ وإذ أقرّبُ منها غيرَ مقتربِ (٦)

والأعشى، شاعر كبير، ومن الرعيل الأول فى الشعر، وهو عظيم متمكن، ولعل سر عظمته يكمن فى رسمه الصور الجميلة، وفى إحساسه الأصيل بالأشياء، ذلك أنه تنقل من بادية إلى حاضرة، ومن حاضرة إلى بادية، فامتلأ ذهنه بضروب من الثقافات التى تلوح لنا بين آونة وأخرى فى شعره. ولعل من أسباب عبقرية الأعشى،

---

(١) الشؤون: جمع شأن وهى شعوب قبائل الرأس الأربع ومنها منحدر الدمع إلى العينين.

(٢) توفى فى خلافة عثمان بن عفان (رضى).

(٣) ديوان العباس: (٣١).

(٤) السفح والرحب. موضعان. أقوت: خلت. عفى: درس. الحقب: السنون، والحقب: الدهر.

(٥) الوله جمع والهة. والوله: ذهاب العقل والتحير من شدة الوله. السلب: اللواتى فى السلاب وهى ثياب المآتم السود.

(٦) كلف: مولع

أنه يخوض فى النفس الإنسانية ، مستخرجاً أدق خلجاتها ، مصوراً أسباب ما تزخر به من انفعالات . ترى هذا فى بيتيه اللذين يقول فيهما(١) :

حَجُونٌ تُظِلُّ الفتى جاذياً   عَلَى واسِطِ الـكورِ عندَ الذَّقَنْ(٢)

ترى الشيخَ منها لِحُبِّ الأيا   بِ يرجُفُ كالشارِفِ المستحق(٣)

أنه يذكر الحنين ، ويجعله صورة للتشبيه به ، تحسها إحساساً قوياً ، ينقلها إلى العالم الذى يريده الشاعر . هذا وأن الحنين إلى الوطن فى شعر الأعشى ، جزء من هذه العبقرية التى لا تنفك تأتى بالغرائب .

تراها فى تشوقه إلى الأطلال التى غير المطر آياتها فعادت خلاء ليس فيها إلا ذكرى ، من ذكريات حب الأعشى لقتيلة ، التى طال ما تنزل بها . يقول(٤) :

شاقتكَ من قتــلةَ أطلالُها   بالشَّطِّ فالوِترِ إلى حاجِرِ(٥)

فرُكْنِ مِهْراسٍ إلى مارِدٍ   فقاعِ منفوحةَ ذى الحائرِ(٦)

دارٌ لها غــيَّرَ آياتِها   كلُّ ملثٍّ صوبُهُ زاخِرِ(٧)

وقد أراها وسطَ أترابِها   فى الحىِّ ذى البهجةِ والسَّامِرِ(٨)

(١) ديوان الأعشى : ٢٣ .

(٢) الحجون - الغزوة البعيدة الطويلة . الكور : الرحل بأداته .

(٣) الشارف . الجمل الهرم .

(٤) الديوان : ١٢٩ .   (٥) الشط والوتر وحاجر : مواضع .

(٦) وركن مهراس ، ومارد ، وقاع منفوحة : مواضع . الحائر : مجتمع الماء والموضع المطمئن من الأرض .

(٧) آيات جمع آية . والآية العلامة . ملث : مقيم . الصوب : السحاب ذو الصوت زخر البحر : طا وكثر ماؤه .

(٨) الترب : من ولد معك . السامر : اسم فاعل من سمر أى لم ينم وتحدث ليلا .

وهناك دار لميثاء ، قد تعفت طلولها ، بفعل الصبا ومسيل المطر ، تعفت فبكى عليها ، ويعود الشاعر القهقرى بالذكرى سنين إلى الوراء ، فيخال نفسه مع ميثاء ، وأهله جيرة لها ، وهو تمنّ أن تعود تلك الأيام ، تمنّ ملح إليه غير مصرح به قال (١) :

لميثاء دارٌ قد تعفّتْ طُلُولُها عفتها نضيضاتُ الصَّبا فسيلُها (٢)

لما قد تعفّى من رمادٍ وعرصةٍ بكيتُ وَهَلْ يبكى إليك مُحِيلُها (٣)

لميثاء إذ كانت وأهلُكَ جيرةٌ رئاءً وإذ يفضى إليك رسولُها (٤)

ولميثاء هذه — أيضاً — دار تعفت . فيتعرف عليها الشاعر . فى صدفة من صدف الزمان ، فيرتاع فؤاده حين يعرفها ، وتهيج على نفسه أذكارها ، حنيناً وشوقاً إليها . قال (٥) :

لميثاء دارٌ عفا رسْمها فما إن تبيّنُ أسطارَها (٦)

وربعَ الفؤادُ لعرفانِها وَهاجت عَلَى النّفسِ أذكارها

ديارُ لميثاء حلّتْ بها فقد باعدَتْ منكم دارَها

---

(١) الديوان : ١٧٥ .

(٢) النضيضة : المطر القليل . والريح التى تنص بالماء فيسيل ، أو هى الضعيفة . تعفى : انطمس .

(٣) العرصة : ساحة الدار ، وهى كذلك البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء . محيل : دائر مطموس .

(٤) قوم رئاء يقابل بعضهم بعضاً . أفضى إليه : وصل إليه ، وأصله أنه صار فى فضائه .

(٥) الديوان : ٢١٧ .

(٦) تبين : أى تبين أنت ، تميز وتعرف .

وهناك شوق عند الأعشى إلى قومه ، يشتاقهم إذا شط الحبيب ، وبعد المزار ، يشتاق إليهم ، لأنهم منه ، وهو منهم ، هذا الشوق إلى الأهل ، يتبعه بطبيعة الحال — أن لم يكن ممزوجا به — شوق إلى الأرض والوطن . قال (١) :

فهل مثلها أزورُ بنى قيـ ... ـس إذا شطَّ بالحبيبِ الفُراقُ (٢)

أنى منهمُ وأنهمُ قو ... مى وأنى إليهم مشتاقُ

وتفيض دموعه بغزارة من ديار ذكرته ما ذكرته من أيامه الخوالى . قال (٣) :

من ديارٍ بالهَضْبِ هَضْبِ القلبِ ... فاض ماءُ الشئونِ فيضَ الغروبِ (٤)

وفى يوم من أيام الأعشى يعرف مقام (تيا) ، ويعرف خيامها ، مساجر عليه هياج الشوق المحزون الطروب ، فانهلت مدامعه انهلالا ، ويبدو أنه كان عاطفيا ، فبعد انهلال دموعه ، من حمامة هاجت صباه ، يثوب إلى رشده ، فيتساءل ، هل يجدو به الشوق إلى رسوم عفت ، ولم يبق فيها ، إلا الأياصر والثمام ؟ وفى رأينا — نقول عنه — نعم . لا لشىء إلا للحنين الذى دفعه إلى ذلك دفعا . قال (٥) :

عرفتَ اليومَ من تيّا مُقاما ... بجوٍّ أو عرفتَ لها خياما (٦)

فهاجتْ شوقَ محزونٍ طروبٍ ... فأسبَلَ دمعَهُ فيها سِجاما (٧)

ويومَ الخرجِ من قرماءَ هاجَتْ ... صِباكَ حمامةٌ تدعو حَماما (٨)

---

(١) الديوان : ٢١٣ (٢) شط : بعد (٣) الديوان : ٢٢٣ .

(٤) القليب : البئر ، لأن ترابها قلب ، وقد تطلق على القـديم العادى منها ، وهضب القليب جبل . ماء الشئون ، مجارى الدمع ، جمع شأن الغروب ، جمع غرب ، الدلاء .

(٥) الديوان : ١٩٥ .

(٦) تيا اسم اشارة تصغير تى ، الخيمة بيت يبنى من عيدان الشجر ويلقى عليه ثمام ويتبرد به فى الحر ، والثمام : نبت ضعيف له خوص .

(٧) السجم الدمع : سال .

(٨) الخرج . السحاب أول ما ينشأ . قرماء : موضع باليمامة . الصبا : الشوق

عفت ألا الأياصِرَ والثماما[1] وهل يشتاقُ مثلُك من رسومِ

وتتجلى فى شعر لبيد[2] ظاهرة الحنين إلى الوطن متداخلة بالوقوف على الأطلال فهو يقف على الدمن الخوالى ، ولا يجد فيها إلا ما لا يبلى على مر الأزمان ، هذه الدمن الخوالى ، قد تحمل أهلها ، وأصبحت مرتعاً لنعاج الصيف ولغير ذلك من حيوانات البادية التى ترودها طلباً للظلال ، أو للكلأ ، يقف عليها لبيد ، فيخرج جزعا شديداً ، يقلق مداه حين يزجره أصحابه من شدة الجزع . قال[3] :

ألم تُلمم عَلَى الدِّمنِ الخوالى لِسَلمى بالمذانبِ فالقُفالِ[4]

فجَنبَىْ صَوْأرٍ فنعافِ قوٍّ خوالِدَ ما تَحَدَّثُ بالزَّوالِ[5]

تحمَّلَ أهلُها الأعرارَا وَعزفَا بعد أحياء حِلالِ[6]

وَخيطاً من خواضبَ مؤلفاتٍ كأنَّ رئالها أُرُقُ الإفالِ[7]

تحمَّلَ أهلُها وَأجدَّ فيها نعاجُ الصَّيفِ أخبيةَ الظِّلالِ[8]

وَقفتُ بهِنَّ حتى قال صحبى جَزِعتَ وليس ذلك بالنَّوالِ[9]

---

(١) الأيصر والأصار : الحشيش . (٢) توفى عام ٤١ هـ تقريباً .

(٣) شرح ديوان لبيد : ٧٢ — ٧٣ .

(٤) تلم : تقف . الخوالى : الخالية من أهلها . المذانب والقفال : موضعان .

(٥) النعاف : رؤوس الأودية ، واحدها نعف . خوالد : باقية قو وجنبا صوأر موضعان .

(٦) العرار صوت ذكر النعام ، والزمار . صوت الأنثى . العزف ، صوت الجن . الحى الحلال : المقيمون فى حلهم ومنازلهم .

(٧) الخيط : القطيع من النعام . الخواضب : قد خضبها الربيع ، صبغ أطراف ريشها . رئالها : فراخها . الأورق : الرماد . الأفال : الفصلان ، واحدها أفيل .

(٨) أجد فيها . أى اتخذت أخبية جديدة .

(٩) النوال : الصواب .

وتعفو الديار ، فيقف متسائلا : لمن هى ؟ حتى تعود به الذكريات ، إلى روابطه بهذه الديار ، حين يذكر الفوارس والندامى ، وكأن هذه الذكرى . كانت حافزاً لدموعه . فتسح وتنهمل . قال[١] :

لمن طللٌ تضمَّنهُ أثالُ فسرحةُ فالمرانةُ فالخيالُ[٢]

فتبعٌ فالنبيـع فذو مديرٍ لآرام النعاج به سخالُ[٣]

ذكرتُ به الفوارسَ والندامى فدمعُ العينِ سحٌ وانهمالُ

وينكر الشاعر على قومه شمائل يبدلونها فيبتعد عنهم ، ويرحل من ديارهم ، إلا أنه مع ذلك — يغلبه الشوق والحنين إلى قومه ، وإلى وطنه . فيـدعو لهم ولمرابعهم ، بالسقى والخصب . وكيف لا يتخذ هذا الموقف ، وهم قومه على أية حال ، كانوا : قال[٤] :

أقولُ وصوبةٌ منى بعيدٌ يحطُّ الشثَّ من قُلَلِ الجبالِ[٥]

سقى قومى بنى مجدٍ وأسقى نميرًا والقبائلَ من هلالِ

رعوه مربعًا وتصيفوه بلا وبأٍ سُمّىَ ولا وبالِ[٦]

هم قومى وقد أنكرتُ منهم شمائلَ بدلوها من شمالى[٧]

---

(١) شرح الديوان : ٢٦٧ .

(٢) أثال وسرحة والمرانة والخيال : كلها مواضع .

(٣) تبع والنبيع وذو مدير : كلها مواضع . السخال : جمع سخلة وهى ولد الشاة من المعز والضأن ، أى قد نتجت تلك النعاج فيه .

(٤) شرح الديوان ٩٣ — ٩٤

(٥) صوبة : مصاب مطره . والشث : شجر من شجر السراة . وقلل : أعاله .

(٦) الوبأ : المرض . والوبال : مثله . سمى : أراد سمية فرخم .

(٧) الشمائل : الخلائق . والطبائع . شمالى : طبيعتى .

وترتفع نبرات الشاعر ، حين يذكر أهله (الذين يعاش فى أكنافهم) فيقتله الحنين ، شوقاً إليهم . ويتمنى أن يجرى الزمان على ما يشتهيه ، فيقضى عمره فى تلك الديار ، حيث أهله الكرام ، ومعشره ، وصحبه ، ووطنه . قال(١) :

قضِّ اللبانةَ لا أبا لك واذهبِ
والحقْ بأسرتِكَ الكرامِ الغُيَّبِ(٢)

ذهب الذين يُعاشُ فى أكنافهم
وبقيتَ فى خَلَفٍ كجلدِ الأجربِ(٣)

يتأكلون مَغالةً وخيانةً ويعابُ قائلهم وأن لم يَشْغَبِ(٤)

يا أَرْبَدَ الخيرَ الكريمَ جُدودُهُ خلَّيتنى أمشى بقَرنٍ أعضبِ(٥)

لولا الالهُ وسعىُ صاحبِ حِميرٍ وتعرُّضى فى كل جونٍ مُصْعَبِ(٦)

لتقيَّظتْ عَلَكَ الحجازِ مقيمةً فجنوبَ ناصفةٍ لقاحُ الحوأبِ(٧)

أنَّ الرزيَّةَ لا رزيةَ مثلُها
فقدانُ كلِّ أخٍ كضوءِ الكوكبِ(٨)

---

(١) شرح الديوان : ١٥٣ — ١٥٥ (٢) اللبانة : بقية الحاجة .
(٣) خلف : بقية . يقال فلان فى كنف فلان : أى فى ناحيته وخيره .
(٤) يشغب . يجور عن القصد . والمغالة : الفحش .
(٥) رجل أعضب : إذا كان منفرداً . الأعضب : المكسور أحد قرنيه .
(٦) فى كل جون مصعب : فى كل ليل شديد الظلمة .
(٧) تقيظت : أى صارت فى القيظ . علك الحجاز ، شجر يقال له العلك .
جنوب ناصفة : موضع . لقاح : ابل . الحوأب : رحل .
(٨) الرزية : المصيبة .

والمزرد بن ضرار(١)، يذكر بصراحة ووضوح أن الحنين إلى الوطن، شعور ملازم للاحياء، لأنه ينبثق من المشاعر الإنسانية، مهما تباعدت الاماكن، وشطت الديار. قال(٢):

وما خالدٌ منا، وأن حلَّ فيكم أبانَين، بالنائي ولا المتباعدِ(٣)

تسفَّهتهُ عن مالهِ إذ رأيتهُ غلامًا كغصنِ البانةِ المتغايدِ(٤)

تحنُّ لقاحُ التعليِّ صبابةً لاوطانِها من غيقةٍ فالقدافدِ(٥)

والشماخ بن ضرار(٦) يفصح عن جمال حين يتغنى بالوطن، وحين يقف على الديار وهو يكثر من رسم الصور الفنية المبتكرة لتلك الديار. ويبدو لنا، أن أصل الأسباب التي تدعوه إلى الحنين، ذكريات لهواه في تلك المنازل التي استعجمت، وضاعت معالمها، في زحمة الأيام: فمثلا. يقف الشاعر على رسم دارس متغير، وقد أقوى بعد ليلى. فيرسمه ويصور اندراسه، كخط حبر يكتب العبرانية بيمينه. قال(٧)

أتعرفُ رسمًا دارسًا قد تغيَّرا بذروةَ أقوى بعد ليلى وأقفرا(٨)

كما خطَّ عبرانيَّةً بيمينهِ بتيماء حبرٌ ثمَّ عرَّضَ أسطُرا(٩)

ويتحدث الشاعر، عن إحدى صويحبات سفره، وقد غلبها الارق والحنين إلى أهلها ووطنها، حينما رأت سهيلا، وقد بدا لها في السماء، فذكرها بهم قال(١٠):

---

(١) توفى عام ٣٠ ه تقريباً (٢) ديوان المزرد: ٧٧

(٣) أبانان: جبلان.

(٤) تسفهته: خدعته. المتغايد: من الغيد وهو التثني.

(٥) غيقة والقدافد: موضعان. (٦) توفى عام ٣٠ ه تقريباً.

(٧) ديوان الشماخ: ١٢٩. (٨) ذروة: موضع.

(٩) خط: كتب. الحبر: العالم. (١٠) الديوان: ١٤٣

تحنّ على شطّ الفراتِ وقد بدا سهيلٌ لها من دونِه سَرْوُ حِميرا[١]

ففاءت إلى قومٍ تُريحُ رعاؤهم عليها ابنَ عِرسٍ والأوزَّ المُكَفَّرا[٢]

وابن مقبل[٣]، واحـد من الشعراء المخضرمين، الذين كانوا يجمعون بين المدرستين، مدرسة التقليد الشعرى للجاهليين، ومدرسة الخروج الجزئى على هذه التقاليد، لذلك فإننا حين نحلل شعره — فى الحنين إلى الوطن — نجد فيه المدرستين تتآخيان، فإلى جانب الأطلال والوقوف عليها، والبكاء فيها، فهو يفرغ أحياناً إلى نفسه ليستجلى عواطفه. فنراه يطلب من الناس، أن يتركوا عينه تبكى فى الدار، لأن التعزى لايشفيها، وأن القلب لايستطيع أن يصحو، وأن العين لاتبخل بدمعها، وأن الشاعر يشتاق لدياره، إذ يتذكر إخوانه الذين هجرهم، من غير بغضٍ أوكره ولكنّ النوائب قد تنوب، وقد يتمنى أن يلتقى بهم، وبمن يحب، من أهله، وأصحابه وخلانه، وأهل مودته. قال[٤]:

ذَرِ العينَ تَسفحُ فى الديارِ فلا أرى الـتَّـ ـعَزِّىَ يشفيها ولا تَرْكَها الجهلا[٥]

ولا يستطيعُ القلبُ لو تعذُرانِه صُحُوّاً ولا عينى بِعَبْرَتِها بخلا

مَرَتْها فلم تُسْبِل طويلاً ولم تكد بِدِرّةِ ماء الشأن تَسفحُها ضَهلا[٦]

---

(١) سهيل : كوكب. السرو : ما ارتفع من الوادى وانحدر من غلظ الجبل.

(٢) فاء : رجع. وتريح : من الاراحة وهى رد الإبل والغنم من العشى إلى مراحها حيث تأوى عليه. ابن عرس : دويبة معروفة دون السنور.

(٣) شاعر متخضرم معمر. (٤) ديوان ابن مقبل : ٢٠٢.

(٥) الجهل : الطيش والخفة ها هنا.

(٦) مرتها : أى مرت الديار عينه، أى أن منظر الديار أبكاه. من مرى ضرع الناقة إذا مسحه لتدر. فلم تسبل : أى لم تسبل بالدمع الشأن : مجرى الدموع من العروق إلى العين. والجمع شئون. والضهل : الماء القليل، مثل الضحل.

تذكرت اخواني الذين هجرتهم

كأن لم يكن شكلى لهم مرةً شكلا[١]

هجرتهم من غير بغض ولا قِلىً ولكن مرَّ الدهرِ كان لهم شغلا[٢]

ونحن نرجّى أن نلاقى عزّةً على آخرٍ لم نلقَ قبلُ لهم عِدلا[٣]

ويقف ابن مقبل ، على دار كبشة التى لم تستطع الجنوب أن تغيرها ، وحينما يغشاها تهيجه الذكريات . ، وتنسكب دموعه شوقاً وحزناً على ما مضى له فيها من أيام وذكرى . قال[٤]:

يا دارَ كبشةَ تلك لم تتغيّر

بجُنوبِ ذى خشَبٍ فحَزم عَصَنْصَرِ[٥]

فجنوبِ عَرْوى فالقهادِ غشيتها وهنًا فهيّجَ لى الدموعَ تذكّرى[٦]

ويتلهف شاعرنا على الحى الكريم ، الحنيف ، العزيز ، فيبكى الدار ، وأهل الدار ، وله عذره ، فقد حل فيها (رواد علك وحميراً) ، بينما أضحى قومه ، مشتتين مشردين . قال[٧] :

---

(١) الشكل : الشبه والمثل .

(٢) القلى : الكره والبغض .

(٣) على آخر : أى على أناس أخر . والعدل : النظير والمثيل .

(٤) الديوان : ١٢٣

(٥) ذو خشب : جبل . وجنوبه : نواحيه وسفوحه ، جمع جنب . والحزم : ما غلظ من الأرض وكثرت حجارته . وعصنصر : موضع وكأنه ماء .

(٦) عروى : هضبة بالعالية ، متاخمة بلاد اليمن . والقهاد : موضع .

(٧) الديوان : ١٣٠ .

أَلهفى عَلَى عِزٍّ عزيزٍ وظِهرةٍ وظلُّ شبابٍ كنتُ فيه فأدْبَرا (١)

وَالهفى عَلَى حىٍّ حُنَيفٍ كِليهما إذا الغيثُ أُمسى كابىَ اللونِ أغبرا (٢)

يذكّرنى حيَّى حُنيف كليهما حمامٌ ترادفنَ الركِىَّ المُعوَّرا (٣)

ومالىَ لا أبكى الديارَ وأهلَها وقد حلَّها روّادُ عكٍّ وحِميرا (٤)

فإن بنى قَيْنانَ أصبح سَرْبُهم بجرعاء عبسٍ آمنًا أن يُنفَّرا (٥)

ويستغرب ابن مقبل من صحبه ، كيف لا يحيون الدار ، وكيف لا يسائلونهـا . ويستغرب أيضاً لأنه هو نفسه ، يحي الدار ، ويسائلها ، وهي عجماء . لاتجيب ، وقد انتحت عليها الرياح ، واندرست معالمها ، فيلتاع شاعرنا ، ويعصف بقلبه الحزن والألم ، حتى تنهل مدامعه . فأين القوم ، وأين الديار ، وأين الأيام الحلوة فيها ؟ ! . قال(٦) :

هل أنت محيى الربعَ أم أنت سائلُه بحيث أحالت فى الرَّكاء سوائلُه (٧)

وكيف تحيى الربعَ قد بانَ أهلُه فلم يبقَ إلا أُسُّه وجنادلُه (٨)

---

(١) الظهرة : الأعوان .

(٢) الغيث : الكلأ الذى ينبت من ماء السماء .

(٣) ترادفن : أى أتين يتبع بعضهن بعضاً . الركى : جمع الركية . وهى البئر . والمعور . من عور الركية ، إذا طمها ودفنها وسد عيونها التى ينبع منها الماء .

(٤) الرواد : جمع الرائد ، وهو الذى يتقدم القوم فى طلب الكلأ ومساقط الغيث .

(٥) السرب : المال الراعى ، أى الإبل . الجرعاء الأرض الخشنة . جرعاء عبس : موضع .

(٦) الديوان : ٢٣٨ ومابعدها .

(٧) الركاء : وادى . السوائل : مياه الأمطار .

(٨) أسه : أساسه . جنادله حجارته . واحدها جندل .

عفته صناديدُ السّماكَيْنِ وانتحت   عليه رياحُ الصيفِ غبراً مجاوِلُهْ[1]
وقد قلتُ من فرطِ الأسى إذ رأيتُه   وأسبلَ دمعى مستهلاً أوائلُه[2]
ألا يا لقومٍ للديارِ ببدوةٍ   وأنّى مِراحُ المرءِ والشيبُ شاملُه[3]
وللدار من جنبَىْ قرورى كأنها   وُحِىُّ كتابٍ أتبعته أناملُه[4]

أننا نلمس فيه حنيناً صادقاً، وشوقاً ونسكيداً لمشكلات الحياة وحكم الدهر القاسى حين يجلو هو وعشيرته وأحبته عن هذه الديار، ويحلها أعداؤه. ثم إذا به يلتفت فيطلب من صاحبه، أن يسائل الأطلال الدارسات التى هيجته للسؤال، والدار أحياناً تثير مكامن الشوق والحنين، وتدل سائلها على الجواب بطبيعة حالها بدون أن تنطق أو تتحدث. قال[5]:

سائلْ بكبشةَ دارسَ الأطلالِ   قد هيَّجتْكَ رسومُها لسؤالِ
والدارُ قد تَدَعُ الحزينَ لما بهِ   ويدلُّ عارفَها بغيرِ دلالِ

وعبيد بن الأبرص[6] يقف فى قصيدته — التى يعدها بعض النقاد الأقدمين من المعلقات على الدار وقد أقفرت، ويسمى لنا الأماكن التى تحدها كما يذكر أنها تبدلت، كما تبدل سكانها، حيث حلت الوحوش محلهم، وغيرت الخطوب حالها

---

(١) عفته: هدمته. مطر صنديد: عظيم القدر. السماكان: نجمان نيران أحدهما السماك الأعزل، والآخر السماك الرامح. المجاول: التراب وسواقط ورق الشجر وحطام النبت.   (٢) استهل الدمع: أى سال.
(٣) بدوة: جبل بنجد لبنى العجلان، وهم رهط بن مقبل. المراح: المرح.
(٤) قرورى: إسم موضع، الوحى: جمع وحى، وهو الكتابة ها هنا. الكتاب: الصحيفة المكتوبة ها هنا.
(٥) الديوان: ٢٥٥.   (٦) قتل فى منتصف القرن السادس للميلاد.

ويبدو أن هذه الأرض عند الشاعر منحوسة ، وكل من يحل فيها محارب ، فإما قتيلا ، وإما هالكا ، وإما كهلا لا تنفعه الحياة . ومن خلال هذا الوصف نلمس الحنين عند الشاعر ، إلى هذه الديار ، وإلى أيامه فيها . قال(١) :

أَقفرَ من أهلهِ مَلحوبُ ... فالقُطَّبيَّاتُ فالذنوبُ(٢)

فراكسٌ فثُعَيلباتٌ ... فذاتُ فِرقَين فالقليبُ(٣)

فعردةٌ فقفا حِبرٍّ ... ليس بها منهم عَريبُ(٤)

وبُدِّلَتْ من أهلها وحوشاً ... وغيَّرَتْ حالَها الخُطوبُ

أرضٌ توارثَها شعوبُ ... فكلُّ من حلَّها محروبُ(٥)

إما قتيلاً وإما هالكاً ... والشيبُ شَيْنٌ لمن يشيبُ

ويقف الشاعر على الدار يسأل ، لمن هي وقد أقفرت ، وليس فيها غير نؤى ودمنة كالكتاب . لمن هي وقد غيرتها الرياح ، والمطر الدائم الرعد ، المرجحن السحاب ، لمن هي وقد أوحشت ، وباتت مجالا للمراح ، ومسرحاً للرعابيب ، لمن الدار ، وكانت منزلا لكهول ذوى ندى ، وحلوم الشباب غلب شجعان . هيج الشوق معارفه منها ، ولكن بعد أن حل المشيب دار الشباب ، لمن الدار قد استوطنتها الظباء ، وكانت من قبل مرتعاً لمعارفه وأصحابه وأحبابه ، ومن يلذهم

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص : ١٠ وما بعدها .

(٢) ملحوب : ماء لبنى الأسد بن خزيمة . والقطبيات . جبل . والذنوب : موضع .

(٣) راكس . وثعيلبات . وذات فرقين ، والقليب : كلها مواضع .

(٤) عردة : هضبة فى أصلها ماء لكعب بن عبد . وقفا حبر : موضع . وعريب : أحد لا يستعمل إلا فى النفى .

(٥) شعوب : إسم للمنية : محروب : مسلوب ، أو ذهب ماله .

واحدة سبته بدلالها : أنه تساؤل ، ليس له من مجيب ، فلا الشاعر يجيب عنه ، ولا أحد هناك ، يستطيع إلى الإجابة سبيلا . قال[١] :

لمن الدارُ أقفرتْ بالجنابِ ... غيرَ نؤى ودمنةٍ كالكتابِ [٢]

غيّرتها الصَّبا ونفحُ جنوبٍ ... وشمالٍ تذرو دُقاقَ التُرابِ [٣]

فتراوحْنها وكلُّ مُلِثٍّ ... دائمِ الرّعْدِ مرجحنِّ السَّحابِ [٤]

أوحَشَتْ بعد ضُمّرٍ كالسَّعالى ... من نباتِ الوجيهِ أو حَلابِ [٥]

ومراحٍ ومسرحٍ وحُلولٍ ... ورعابيبَ كالدُّمى وقبابِ [٦]

وكهولٍ ذوى ندىً وحُلومٍ ... وشبابٍ انجادَ غُلبِ الرّقابِ [٧]

هيّجَ الشوقَ لى معارفُ منها ... حين حلّ المشيبُ دارَ الشبابِ

---

(١) الديوان : ٢١ — ٢٢

(٢) الجناب : موضع .

(٣) نفح : هبوب . تذرو : تطير . دقاق الترب : الناعم الذى تطيره الرياح .

(٤) تراوحنها : تعاقبن عليها . الملث : المطر الدائم . المرجحن ، المهتز والثقيل أيضاً .

(٥) السعالى : جمع سعلاة ، وهو الغول ، أو الأنثى منه . الوجيه : فرس معروف عند العرب بكرم أصله لبنى غنى . حلاب : فرس لبنى تغلب كريم أيضاً .

(٦) المراح مأوى الإبل . المسرح : مرعاها . الحلول الاقامة . وربما أطلق على المقيمين اطلاق المصدر على الصفة . الرعابيب : جمع رعبوبة ، وهى البيضاء الحسنة الرطبة الحلوة من النساء . الدمى : جمع دمية ، وهو الصورة فيها حمرة .

(٧) الندى : السخاء . الحلوم . جمع حلم ، بكسر الحاء ، وهو الأناة والعقل . انجاد : جمع نجد ، وهو الرجل الشجاع الماضى السريع الاجابة على مايدعى إليه . غلب الرقاب : غلاظها ، دليل القوة والشجاعة .

أوطَنَتْها عُفْرُ الظِّباءِ وكانت قبل أوطان بُدْنٍ أتراب[١]

خُرُدٍ بِيضِهِنَّ خَوْدٌ صبتنى بدلال وهيَّجَتْ أطرابى[٢]

ويتذكر الشاعر أهله ، فيهلك قلبه ، ويقتله الحنين شوقاً إليهم ، فيتذكرهم ، وهو بالتالى يتذكر منازلهم ، ويحن إليها . قال[٣]

تذكرتُ أهلى الصالحينَ بملحوبِ فقلبى عليهم هالكٌ جِدُّ مغلوبِ

تذكَّرتُ أهْلَ الخيرِ والباعِ والنَّدى
وأهلَ عِتاقِ الجُرْدِ والبِرِّ والطيبِ[٤]

تذكَّرْتُهم ما أَنْ تَجِفُّ مدامعى
كأنْ جَدْوَلٌ يسقى مزارِعَ مخروبِ[٥]

ويبدو لنا ، أنه شاعر بكاء ، سرعان ما تستثار عواطفه ، حين يرى أن الأيام ، قد لعبت لعبتها فى الديار ، حتى عفتها بأمطارها ، ورعدها ، ورياحها : ويظل فيها وقد فقد مشاعره ، فكأنه شارب صهباء ، مختنقة من شدة الشوق وكثرة الحنين. قال[٦]

أمِنْ رسومٍ نُؤْيُها ناحِلُ ومن ديارٍ دمعُكَ الهامِلُ[٧]

---

(١) أوطنتها . اتخذتها وطناً لها . العفر : جمع أعفر وعفراء وهو يعلو بياضه حمرة . البدن : جمع بادن ، وهو السمين . الأتراب : جمع ترب بكسر التاء واسكان الراء ، وهو الصديق ، أو من ولد معك .

(٢) الخرد : الخفرات ، أو العذارى ، جمع خرود وخريدة : الخود : المرأة الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة . الأطراب : جمع طرب ، وهو الخفة تلحقك ، تسرك أو تحزنك .

(٣) الديوان : ٢٤ — ٢٥ .

(٤) العتاق : جمع عتيق ، وهو الفرس الكريم النجيب . الجرد : القليلة الشعر .

(٥) مخروب موضع لبنى أسد . (٦) الديوان : ٩٧ — ٩٨

(٧) الناحل : البالى . الهامل : الفائض .

قد جرَّتِ الريحُ به ذيلَها عامًا ، وجَوْنٌ مُسبلٌ هاطلُ [1]

حتى عفاها صَيِّتٌ رعـدُهُ دانى النَّواحى مُسبِلٌ وابلُ [2]

ظَلْتُ بها كأننى شاربٌ صهباءَ مما عَتَّقَتْ بابلُ [3]

ويجده آونة أخرى ، يخاطب دار هند ، التى عفاها المطر ، وجرت عليها رياح الصيف ، فيحبس أصحابه كى يسائلها . ودمعه قد بل سرباله . دمع هطال بفعل الشوق إلى الجمع المشتمل . وإلى ديار الحى ، ولكن ، كيف يطرب أو يشتاق عبيد بن الأبرص ؟ فكأنه يرى الطرب والاشتياق بعيدين عنه فحرى به أن يبكى ، وأن يكثر من تهطال دموعه . قال [4] :

يا دارَ هندٍ عفاها كلُّ هطالِ بالجَوِّ مثلَ سحيقِ اليُمْنَةِ البالى [5]

جرتْ عليها رياحُ الصيفِ فأطْرَقَتْ والريحُ مما تعفِّيها بأذيالِ [6]

حبستُ فيها صِحابى كى أسائلَها والدمعُ قد بلَّ منى جيبَ سِربالى [7]

شوقًا إلى الحىِّ أيامَ الجميعُ به وكيف يطربُ أو يشتاقُ أمثالى

---

(١) الجون : السحاب الأسود ، أو الابيض . المسبل : الدانى من الأرض .

(٢) عفاها : محاها . صيت : عظيم الصوت والجلبة . الوابل : المطر الشديد .

(٣) ظلت : مكثت نهارى كله . الصهباء : الخمر .

(٤) الديوان : ١٠١ .

(٥) الجو ، موضع . السحيق ، الثوب الخلق . اليمنة : البرد اليمنى .

(٦) فأطرقت : فتلبدت . . أراد تجر هذه الرياح على هذه الدار التراب كما تجر المرأة ذيلها .

(٧) حبست : ماهنا أوقفت . جيب السربال : طوقه . السربال : القميص .

وعودة بن حزم(١) ، شاعر من الشعراء العذريين ، وما تبقى من شعره حافل بالحب والحنين إلى ديار أحبابه ، وأننا ذاكروه هاهنا ، لأن شعره يحفل بدافع قوى من دوافع الحنين ، ألا وهو الحب الذى ملك عليه فؤاده .

فهو يحب عفراء ، إبنة عمه ، فيحب بالتالى ، كل ما يتصل بها ، وما يربطه معها بذكريات الهوى والحب . ولو رحنا ندرس ما تبقى لنا من شعره ، لوجدنا هواه القوى العنيف ، يصور له أن ناقته — أيضاً — تحب . وأنها تحن إلى اليمن . بينما يحن هو إلى العراق ، البلد الذى ترك حبيبته فيه ، والتى رحل عنها ليأتها بمهرها . وبدقة حنينه وشوقه ، إلى أن يتصور أن ناقته ، أحسن منه حظاً ، لأنها تحن وتبدى حنينها ، أما هو ، فيحن ويخفى حنينه الذى يكاد يقضى عليه ، لولا تأسيه بغيره من العشاق الذين رحلوا عن أحبابهم قال(٢) :

هوى ناقتى خلفى وقُدّامى الهوى   وأنى وأيّاهـا لمختلفانِ

هواىَ عراقىٌّ وتثنى زمامَها   لبرقٍ إذا لاحَ النجومُ يمانِ

هواىَ أمامى ليس خلفى مُعَرَّجٌ   وشوقُ قلوصى فى الغُدُوِّ عانِ

وفى رواية أخرى ، للمبرد فى كامله .

فمن يكُ لم يغرضْ فأنى وناقتى   بحجرٍ إلى أهلِ الحِمَى غرضانِ

هوى ناقتى خلفى وقُدّامى الهوى   وأنى وإياها لمختلفانِ

تحنُّ فتُبدى ما بها من صبابةٍ   واخفى الذى لولا الأسى لقضانى

فيا كبدينا أجملا قد وجدتما   بأهلِ الحمى مالم يجدْ كبدانِ

إذا كبدانا خافتا وشكَ نيّةٍ   وعاجلَ بَيْنٍ ظلتّا تجبانِ

---

(١) توفى زمن عثمان بن عفان أو زمن معاوية ! .

(٢) شعر عروة بن حزام : ١٢ — ١٣ .

وسحيم عبد بني الحسحاس[1] عند ما يقول :

أَرقاً وتغنيظاً ونأياً وفرقةً على حينَ أبصرتُ المشارِعَ تَنْشَفُ

فإننا نحس في قوله (نأياً) ذلك الحنين إلى الوطن ، الذي يثيره البعد عنه ، وعن أهله وأحبابه ، الذين سكنوا تلك الديار ، وعاشوا فيها . وهو يرى أن الفراق قد يجر إلى المهلكات ، فالخـــوف فيما يبدو ، هو الذي أبعده عن الوطن ، وهذا الخوف هو الذي يجعله لا يستطيع البوح بحنينه خوفاً من (باطن الجوى) على حد تعبيره هو ، وإن باح به ، كان مصيره القتل ، وهو يرى أن السيف أحجى للقاسات من الوجد الذي لا يقضى على الإنسان . ففي المقطع التالي : نلمس هذه الروح المتشائمة بوضوح ، ونستطيع أن نقررها بعبارة : أن البين قد فرض على الشاعر ، وأنه إن باح بالسبب قتل ، وإذا لم يبح به ، فإن الكتمان سوف يقضى عليه قال[2] :

خليليَّ هٰذا البينُ قدَ جدَّ جِدُّه فعوذا لنا من شرِّ البينُ مُقرِفُ

وأن لم تبوحا خِفتُ من باطِنِ الجوى

وان بحتُهُ فالسيفُ عُريانُ ينطِفُ

وللسـيفُ احجى انأقاسى والشّبا من الوجدِ لا يقضى عليَّ فيرعُفُ

أَرقاً وتغنيظاً ونأياً وفرقةً

على حينَ ابصرتُ المشارِعَ تَنْشَفُ[3]

وما كنتُ أخشى جندلاً خابَ جندلُ

عَلَى مثلِها ، والظنُّ يُخطى ويُخلِفُ

أعاليَ تناءٍ فموعدُ بيننا وبين المنايا مَرّ زرتِ بخنْفِ[4]

---

(١) توفى عام ٤٠ هـ تقريباً (٢) ديوان سحيم : ٦٣ — ١٤

(٣) الغنظ : الغيظ . (٤) الخنف : رميك بعصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك

وعلى المنوال نفسه ، ينساق الشاعر ، فينسج أبياتاً أخرى ، يضمنها لوعته وتشاؤمه ، من الظروف المريرة ، متى كان يقاسيها ، فيغادر قومه مكرهاً ، ويشتاق اليهم رغم ذلك الإكراه ، ويشتاق إليهم ، ولما تمض غير ليلة واحدة على الفراق ، فكيف به وقد تسير المطى لياليا إثر ليال فيستحلفهم بأنه أخوهم ، وبأنه مولى خيرهم وحليفهم ومن ثوى فيهم وعاشرهم دهراً ، وذلك غير عجيب ، لأن سحيما كان عبداً لبنى الحسحاس . قال(١) :

أشوقاً ولما تمض بى غيرُ ليلةٍ	فكيف إذا سارَ المطىُّ بنا عشرا
أخوكم ومولى خيرِكم وحليفُكم	ومَنْ قد ثوى فيكم وعاشَرَكم دهرا
وما خفتُ سلاَّما عَلَى أنْ يبيعَنى	بشىءٍ ، ولو أمست أناملُه صفرا

ويبكى سحيم ، إذ فارقته جارتاه ، فأصبح يبكى طلليهما ، ولكن الدموع لا تجدى لأنه لا يرى من أثرها ، حيه دانيا ، فكأن الفراق المستمر المتواصل عن أحبابه ودياره قد كتب عليه قضاء لا يرد . قال(٢) :

هما جارتاكَ اليومَ شطَّتْ نواهما	وأصبح يُبكى ذا الهوى طَلَلاهما
وفاضت دموعُ العينِ منى ولا أرى	نوى الحىِّ يدنيها جميعا بكاهما(٣)

وعمر بن الأهتم هو عمرو بن سنان وهو الأهتم بن سمى بن سنان بن خالد ابن منقر بن عبيد بن الحارث ، وهو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، كان سيداً من سادات قومه ، خطيباً بليغاً شاعراً شريفاً ، جميلا ، ولقبه « المكحل » ، وكان يقال لشعره « الحلل المنشرة » ، وفد إلى رسول الله (ﷺ) فى وفد بنى تميم ، وسأله الرسول عن الزبرقان بن بدر فمدحه ثم هجاه ولم يكذب فى الحالين ، فقال رسول الله « إن من الشعر حكماً وأن من البيان سحراً » .

[المفضليات تحقيق شاكر وهارون : ١٢٥] .

---

(١) الديوان : ٥٦	(٢) نفسه : ٢١ — ٢٢

(٣) النوى : التحول من دار إلى دار .

وعمر بن الأهتم ، يطلب الغنى ، لكنه يحب وطنه . فيصطرع نفسه بين الحنين وحب الوطن ، وبين هجرته عنه بحثاً عن هدفه . فهو كريم ، ويؤمن بأن البلاد لاتضيق بأهلها ، ولكن أهل البلاد تضيق أخلاقهم ، فتضيق عليهم الدنيا . قال[١] :

ذريني فإنَّ البخلَ يا أمَّ هيثمٍ لصالحِ أخلاقِ الرِّجالِ سَروقُ

لعمرُكِ ما ضاقتْ بلادٌ بأهلِها ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تضيقُ

ويكون هلال بن الأسعر بأرض اليمن ويقول : أن ناقته تحن ، وهو أيضاً يحن ، وأن الدهر قد فرق بينهما وبين وطنهما وأهليهما ، فسقيا لتلك الصحراء ، ولمازن حيث حلت ، ولأيامها الغراء . قال[٢] :

أقولُ وقد جاوزتُ نُعمى وناقتي تحنُّ إلى جَنبيْ فَلَيجٍ مع الفجرِ

سقى اللهُ يا ناقَ البلادَ التي بها هواكِ ، وإن عنا نأتْ سَبَلَ القطرِ[٣]

فما عن قِلىً منها خَفَتِ النوى بنا عن مراعيها وكثبانِها العُفرِ

ولكنَّ صرفَ الدهرِ فرَّقَ بيننا وبينَ الأداني ، والفتى غرضُ الدهرِ

فسقياً لصحراءِ الإهالةِ مربعاً وللوقبى من منزلٍ دمثٍ مُثْرِي[٤]

وسقياً ورعياً حيث حلَّتْ لمازنٍ وأيامُها الغرُّ المحجَّلةُ الزُّهرِ

ويدعو الصمة القشيري ، أن يسقي الله الحمى وأن يسأل الحي عنه كيف حاله في غربته . قال[٥] :

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٢/٦٣٤ .

(٢) الأغاني لابي فرج الاصفهاني : ٣/٦١ — ٦٢ .

(٣) السبل : المطر النازل من السحاب قبل أن يصل إلى الأرض .

(٤) الإهالة : موضع . ودمث : سهل لين . ومثرى : كثير الثرى خصب .

(٥) الاغاني : ٦/٥ .

أَلا تسأَلانِ اللهَ أن يسقيَ الحِمى بلى فسقى اللهُ الحِمى والمطاليا[1]

وأسأَلُ من لاقيتُ هل مُطِرَ الحمى فهل يسأَلَنْ عنى الحمى كيف حاليا

ويتعزى الصمة القشيرى بصبره ، رغم أن فؤاده يهفو به ريش الطائر إلى أهله وحماه . قال[2] :

تعزَّ بصبرٍ لا وجدِّكَ لا ترى بشامَ الحمى أخرى الليالى الغوابرِ

كأَنَّ فؤادى من تذكُّرِهِ الحمى وأهلَ الحمى يهفو به ريشُ طائرِ

ويذكر أيام الحمى ، ثم ينثنى على كبده ، مخافة أن تتصدع ، لأن أيام الحمى ليست راجعة عليه ، لذا فإنه لايجد مناصاً من البكاء . قال[3] :

واذكُرْ أيامَ الحمى ثم انثنى على كَبِدى من خشيةٍ أن تَصَدَّعا

فليستْ عشيَّاتُ الحِمى برواجعٍ عليكَ وَلكنْ خَلِّ عينيكَ تدمعا

ويقول وضاح اليمن ، وهو فى الشام ، مشتاقاً إلى دياره : أن نفسه أبت أن تطيب بديار الشام ، لأنها تذكرت المنازل والأحبة ، الذين سبوا قلبه ، فارتحل معهم ، ودعاهم ، فلم يلبوا دعوته . فياليت الرياح كانت رسولا إليهم ، تعود برجع سؤاله وتحياته ، فيا أيها الروض لقد عذبت قلبى حتى عاد مكتئباً ، ورققته بعد أن كان جلداً ، وأبديت المشيب فى مفارقى ، بعد أن كنت شاباً . قال[4] .

أَبت بالشام نفسى أَن تطيبا تذكَّرتُ المنازلَ والحبيبا

تذكرتُ المنازلَ من شَعوبٍ وحيًّا أَصبحوا قطعوا شعوبا[5]

---

(١) المطالى : جمع مطلاء . وهو مسيل ضيق من الأرض ، أو هو أرض سهلة لينة .

(٢) الأغانى : ٦/٦ . (٣) نفسه : ٧/٦ . (٤) نفسه : ٢٠٤/٦ .

(٥) شعوب : موضع قريب من صنعاء .

صَبَوا قلبي فحلَّ بحيث حلُّوا ... ويُعظِمُ إنْ دَعَوا ألا يُجيبا

ألا ليتَ الرياحَ لنا رسولٌ ... إليكم إنْ شمالا أو جَنوبا

فتأتيكم بما قلنا سريعا ... ويبلُغنا الذى قلتم قريبَا

ألا يا رَوْضَ قَد عَذَّبْتِ قلبي ... فأصبح من تذكُّركم كئيبا

ورققنى هواكِ وكنتُ جلدًا ... وأبدى فى مفارق المشيبا

ويهرب أبو عدى إلى اليمن ، فيعتاد قلبه عائد الأطراب ، ويتذكر عهد المعالم والأحباب ، وهيهات منه معالمه وأحبابه ! ، لأنه حل بدار ، ليس له فيها إخوان ، ولا أصحاب ، إذ بعدت به الدار . قال (١) :

هُيِّجتَ للاجزاعِ حول عَرابِ[2] ... واعتاد قلبَكَ عائدُ الأطرابِ

وذكرتَ عهدَ معالمٍ بلوى الثرى ... هيهات تلك معالمُ الأحبابِ

هيهات تلك معالمٌ من ذاهبٍ ... المسى بحوضى أو بحقلِ قبابِ[3]

قد حَلَّ بين أبارقٍ ما إن له ... فيها من أخوانٍ ولا أصحابِ

شطَّتْ نواهُ عن الأليف وساقَهُ ... لقُرى يمانيةٍ حمامُ كتابِ[4]

وقوم أبو زبيد(٥) قد شحطوا ، فمن يبلغهم أن الفؤاد بهم متعلق . قال(٦) :

---

(١) الأغانى : ٢٨٢/١١ .　　(٢) عراب : اسم جبل .

(٣) حوضى وحقل قباب : موضعا .

(٤) شطت بعدت . والنوى هنا : الوجه الذى تقصده لبلد غير البلد الذى أنت فيه . وحمام قباب : قدره وقضاؤه .

(٥) توفى بعد عام ٤٠ هـ بقليل تقريبا .

(٦) شعر أبى زبيد الطائى : ١٠٨ .

مَنْ مبلغٌ قومَنا النائين إذ شحطوا ... أنَّ الفؤادَ إليهم شيّقٌ وَلِعُ

فالدارُ تُنبيهم عنى فإنَّ لهم ... وُدى وَنصرى إذا أعداؤهم نصعوا[1]

وأبو كبير الهذلى ، يطلب من صاحبه ، أن يقف وقفة بدار الحى ، تلك الديار المقفرة ، ويتمنى لها السقى ، ويتمنى أن يكون بها ، وأن يعود العيش الرغد فيها ، مع أهله وأحبابه ، وبين جنبات دياره . قال[2] :

يا صاحِ قِفْ بديارِ الحَىِّ مقفرةً ... من الأحبّةِ وأحبس أينقًا قُودا

سقى الإلهُ وإن بانوا وقلَّ لهم ... مبنى الخيامِ ، وتلك الأجبلَ السودا

منازلاً كنتُ أهوى أن أكونَ بها ... كما مضى ليت كان العيشُ مردودا

وجميل بن معمر[3] علم الشعراء العذريين ، وقد وقف شعره على التغزل بحبيبته بثينة . وبالتالى فإن شعره كان وقفاً على ذكرياتهما ، وهنا يتتبع ذكراً للأطلال وللديار . لأنه — كما سبق أن ذكرنا — يعود إلى الحياة العربية البدوية ، وطبيعتها . التى من مستلزماتها ، الرحلة والانتقال من مكان إلى آخر ، فيقف الشاعر على المنازل ، ويتمنى عودة أيامه ، ويبكى إذ يأخذه الحنين إليها بهذه المنازل وتلك الديار : ويكاد شعر جميل لا يخرج عن هذه الدائرة إلا قليلا ، فهو تارة يقف على المنازل فتهيج أطرابه ، وتستعجم آياتها بجوابه ، لأنها قفراء ، تلوح كسطور الكتاب أو كالوشم ، لذلك فهو يبكى ويذكر أيام بثينة التى ذهبت ، كما يذكر أيام شبابه ، ويذكر الذكريات الحلوة فى تضاعيفها . قال[4] :

---

(١) نصع الرجل : أظهر عداوته وبينها ، وقيل أظهر ما فى نفسه .

(٢) المنازل والديار لأسامة بن منقذ : ٧٣ .

(٣) توفى عام ٨٢ هـ تقريباً .

(٤) ديوان جميل : ٢١ — ٢٢ .

أنَّ المنازلَ هيّجتْ أطرابى   واستعجمتْ آياتُها بجوابى[1]

قفرٌ تلوحُ بذى اللجَيْنِ كأنها   أنضاءُ وَشْمٍ أو سطورُ كتابِ[2]

لمّا وقفتُ بها القلوصَ تبادرتْ   منى الدُّموعُ لفرقةِ الأحبابِ

وذكرتُ عصراً يا بثينةُ شاقنى

إذ فاتنى ، وذكرتُ شرخَ شبابى[3]

وتارة أخرى ، يتساءل جميل عن أيامه التى ذهبت مع بثينة ، ويتمنى أن تبقى دائماً وأبداً كى تظل بها معانى الحياة ، فإن هذه الدار : وإن بلت وضاعت معالمها ، ورفعت خيامها ، فإنها لتثير منه ذكرياته ؛ حين كان الشمل مجتمعاً . قال[4] :

أعائدةٌ يا بثنَ أيامُنا الأُلى   بذى الظلمِ أم لا لهنَّ رجوعُ[5]

متى منزلينا يا بثينَ بحاجرٍ   على الهجرِ منا صَيفٌ وربيعُ[6]

ودورُكِ بالبلى وأن كنَّ بعدنا   بلينَ بلىً لم تبلهنَّ ربوعُ

وخيماتكِ اللاتى بمنعرجِ اللوى   لقمريها بالمشرقينِ سجيعُ[7]

وهو تارة أخرى ، يتمنى أن يبيت بوادى القرى أنها كانت منازلا لبثينة ، وهو فى تمنيه لو تحقق لسعيد غاية السعادة . قال[8] :

ألا ليتَ شعرى هل أبيتنَّ ليلةً   بوادى القُرى أنّى إذن لسعيدُ

---

(١) الأطراب : جمع طرب ، وهو الشوق ، والآيات : العلامات .

(٢) ذو اللجين : موضع . وأنضاء : جمع نضو ، وأصله البعير المهزول ، وأطلق هنا على ما تبقى من الوشم لقلته وامحائه .

(٣) شرخ الشباب : أوله ونضارته وقوته .

(٤) الديوان : ١٢٠ — ١٢١ .   (٥) ذو الظلم : موضع .

(٦) حاجر : موضع . والصيف : مطر الصيف . والربيع : مطر الربيع .

(٧) السجيع : الهديل وصوت الحمام .   (٨) الديوان : ٦٥

وهل القينُ سعدى من الدهرِ مرةً ... وما رثَّ من حبلِ الصفاءِ جديدُ (١)

وكرة رابعة ، يقف على الدار ، فيتمنى أن يبيت بها ، والمسك يفوح عليه من أذيال حبيبته (٢) .

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بأبطحِ فياجٍ بأسفلهِ نخلُ

يفوحُ علينا المسكُ منه وإنما ... به المسكُ أن جرَّت به ذيلها جُمْلُ

وتهيجه المنازل والطول التي عفت ، والتي ذكرته بنعيمه مع حبيبته بثينة ، فوقف يسأل الدار ، أين حلت بثينة ، يسأل الدار ، وكأنه ينتظر منها جـــواباً ، وكأنها تفهم ما يقول (٣)

أهاجتكَ المنازلُ والطلولُ ... عفونَ وخفَّ منهن الحمولُ

نعم ، وذكرتَ دنيا قد تقضتْ ... وأىُّ نعيمِ دنيا لا يزولُ

أسائلُ دارَ بثنةَ : أينَ حلَّتْ ؟ ... كأنَّ الدارَ تفهمُ ما أقولُ

أنها سنة الحياة ، فى عدم ثبات أى نعيم على حاله ، بل كل نعيم فى هذه الحيــاة ، إلى زوال .

وعند القطامى (٤) ، شعر صادق العاطفة ، حين يشتعل الحنـــين فى ألفاظه ، وفى صوره وذلك حين يفرغ إلى نفسه ، ويستجلى عواطفه ، ويرسمها بصورة جميلة ، وبألفاظ آسرة ، تأسرك كما يأسر الحب الصادق صاحبه . يحن شاعرنا إلى منازله ، وهو بعيد عنها كلما رأى طائراً ، فى أيكة يترنم ، . يبكى من البين ، وهو الصبور على تحمل الشدائد ، وعلى طعن القنا إلا أن الحنين والشوق قد غلبه . قال (٥) :

---

(١) كثرة الاختلاف فى هذا البيت .
(٢) الديوان : ١٥٦ .
(٣) نفسه : ١٦٤ .
(٤) توفى عام ١٠١ هـ تقريباً .
(٥) ديوان القطامى : ٢٠٦ .

إحنُّ إلى تلك المنازلِ كلّما غدا طائرٌ فى أيكةٍ يترنّمُ
بكيتُ من البينِ المشتّتِ وانّى صبورٌ على طعنِ القنا لو علمتُمُ

ويقف الشاعر على الطلل يحييه ، وإن كان باليا . ويتعدى إلى الدمن بعد لأى ، حين يجد السيول قد تموجت أعناقها به ، فأمسى ظاهرها كالخلل الموشى ، بعد أن كانت منازله يحل فيها ، حتى غدر الدهر الخائن الخبل . فعاد الجديد قديماً ، ليست فيه بشاشة . قال(١) :

أنّا مُحيّوكَ فاسلمْ أيها الطللُ وأن بليتَ وأن طالت بكَ الطِّيَلُ(٢)
أنى اهتديتُ لتسليمٍ على دمنٍ بالغمرِ غيّرهنَّ الأعصرُ الأولُ(٣)
صافَتْ تمعّجَ أعناقُ السيولِ به من باكرٍ سبطٍ أو رائحٍ يبلُ(٤)
فهنَّ كالخللِ الموشىِّ ظاهرِها او كالكتابِ الذى قد مسّهُ بللُ
كانت منازلُ منا قد نحلُّ بها حتى تغيّر دهرٌ خائنٌ خبلُ(٥)
ليس الجديدُ به تبقى بشاشتهُ إلا قليلاً ولا ذو خلّةٍ يصلُ

ومن كل هذا ، يستخلص الشاعر ، الحكمة الخالدة فى قوله(٦) :

والعيشُ لا عيشُ إلا ما تقرّ به عينٌ ولا حالُ إلا سوف تنتقلُ

وتلح شكاية الشاعر من بعده عن وطنه ، حين يتساءل ، هل سيرى الربوتين ،

---

(١) ديوان القطامى : ١٨٩ . (٢) طيلك : عمرك . ويقال : غيبتك .
(٣) الغمر : موضع .
(٤) صاف : عدل . وتمعج : تلوى ، وأراد بالسبط : المطر الواسع الكثير . وابل : أعني فساداً وخبثاً .
(٥) الخبل : الجنون . (٦) الديوان : ١٧٨ .

وحاجراً ، وسكانهما ، وهل سيجتمع بأحبابه على أرض الشربة واللوى ، وهل سيرتع في أكناف تلك المرابع . فابتهالا إلى نسمات البان ، أن تخبر عبلة عن الموضع الذي يحله هو . قال (١) :

أيا علمَ السعديّ هل أنا راجعُ ‏ وانظرُ في قطريكَ زهرَ الأراجعِ

وتبصرُ عيني الربوتين وحاجرًا ‏ وسكانَ ذاك الجزْعِ بين المرابعِ

وتجمعُنا ارضُ الشربةِ واللّوى ‏ ونرتعُ في اكنافِ تلك المرابعِ

فيانسماتِ البانِ باللهِ خبّري ‏ عبيلةَ عن رحلي بأيّ المواضعِ

وعبد الله ابن الدمينة (٢) ، شاعر سلس الأسلوب ، جيد العبارة ، لذلك خلط شعره الرقيق بشعر غيره من شعراء هذا الباب ، كالمجنون وقصيدته (٣) .

ألا ياصبا نجدٍ متى هجتَ من نجدِ ‏ لقد زادني مسراكَ وجدًا على وجدي

ألا ياصبا نجد متى هجتَ من نجدِ لقد زادني مسراك وجداً على وجدي فقد نسبت له ، كما نسبت المجنون .

يغترب شاعرنا عن وطنه ، ويخاطب الحمامات في غربته ، ويدعوهن إلى الهديل لأنه يريد أن يسمع أصواتهن . فلما استجبن له ، كاد يموت ، وكاد يفضح أسراره . لأن حاله من حالهن ، فهو مغترب وبعيد عن أهله ووطنه ، وهن كن بنعمة ، إلى أن نالتهن يد الفراق . وهو يستغرب منهن إذ يبكين بدون دموع ! قال (٤) :

ألا يا حماماتِ اللّوى (٥) عُدْنَ عودةً ‏ فإني إلى أصواتكُنَّ حزينُ

فَعُدْنَ فلما عدنَ كِدْنَ يُمتنني ‏ وكِدْتُ بأسراري لهن أبينُ

(١) الديوان : ١٥٨ ‏ (٢) توفي عام : ١٤٢ هـ تقريباً .

(٣) تنظر في حديثنا عن المجنون .

(٤) ديوان عبد الله بن الدمينة : ٣٩ — ٤٠ .

(٥) اللوى : منقطع الرمل ؛ وهو طرفه حين يَنقطع .

وعدن بقرقار الهدير كأنما ... شربن حُمَيّا أو بهنّ جنونُ
ولم ترعيني قبلهن حمائما ... بكين ولم تدمع لهن عيونُ
فكنّ حمامات جميعاً بنعمة ... فأصبحن شتى ما لهن قرينُ
فأصبحن قد فرّقن غير حمامة ... لها عند عهد بالحمام رنينُ

ونجد أشهر بلاد العرب، وألطفها جواً، وأكثرها إقامة لهم. فليس بدعا أن تكون معدن الشعر، وأكثره ترديداً على ألسنة شعرائها في ذكرها، من مدح لهوائها، ووصف لرياضها، وثناء على العيش فيها، وشوق إليها، وحنين إلى ربوعها وقد خلف الشعراء لنا قصائد رائعة، في الشوق والحنين إليها، نعرض لجمهرة منها بالدرس والتحليل:

هذا ابن مقبل، يأمر أصحابه أن يتأملوا ضوء البرق اليماني، وقد ساقته ريح نجد إلى تهامة. وأما أمره أصحابه بالتأمل، إلا تعبيراً عن شوقه وحنينه إلى دياره. قال[1]:

تأمل خليلي هل ترى ضوء بارق ... يمانٍ مرته ريح نجد ففترا[2]
مرته الصبا بالغور، غور تهامة ... فلما ونت عنه بشعفين أمطرا[3]
يمانية تمري الرباب كأنه ... رئال نعام بيضه قد تكسرا[4]

وحميد بن ثور الهلالي[5] يطلب من صاحبيه أن يعلاه، وأن ينظرا إلى البرق.

---

(١) ديوان ابن مقبل ١٢٩ — ١٣٠

(٢) بارق: سحاب، ذو برق. ومرت الريح: السحاب: استدرته وأنزلت منه المطر. وفتر: تحير لا يسير وتهيأ للمطر.

(٣) الغور: المنخفض من الأرض. وشعفان: أكمتان.

(٤) الرباب: السحاب الذي ركب بعضه بعضاً وتدلى. والرئال. جمع رأل، وهو الحولي من ذكر النعام.

(٥) توفي عام ٤٠ هـ تقريباً.

لأن الشاعر مشتك مما أصابه ، لأنه يحن إلى حبيبته ووطنه . ويطلب من صاحبيه ألا يفشيا سره ، وألا يذيعا حديثه المكتم اليهما . لأن من يحمل الأمانة ، سيتحمل إثماً من الله . لذا فعليهما إضافة لذلك ، أن يتخذا له إلى ليلى العامرية سبيلا قال[1] :

خليليَّ هُبَّا عللانى وانظُرا ... إلى البرقِ إذ يفرى سناً وتبسَّما[2]

عُروضاً تعدَّتْ من تهامةَ أهْديَتْ ... لنجدٍ فساحَ البرقُ نجداً وأتهما[3]

كأن رياحاً أطلعَتْهُ مريضةً ... من الغورِ يُسْعِرْنَ الأباءَ المُضرَّما[4]

كَنَفْضِ عتاقِ الخيلِ حين توجَّهتْ ... اليمنَ أبصارٌ وأيقظنَ نُوَّما[5]

خليليَّ أنِّى مُشتَكٍ ما أصابنى ... لتَستَيْقِنا ما قد لقيتُ وتَعْلَما

أملِّكُما أنَّ الأمانةَ من يَخُنْ ... بها يَحْتَمِلْ يوماً من اللهِ مأثما

فلا تُفْشيا سِرىَّ ولا تخذلا أخاً ... أبثُّكما منه الحديثَ المُكتَّما

إتَّخذا لى بارَكَ اللهُ فيكما ... إلى آلِ ليلى العامريةِ سُلَّما

ويقف سحيم ، على أطلال حبيبته ، في واد من وديان الجزيرة العربية ، فيحييه لأنه ديار حبيبته أيام كان يلتقيان فيه . ويتمنى أن يلتقي بها اليوم ، وإن كانت الديار قد خلت من سكانها . ثم يحاول أن يتأسى ويتسلى ، فيصب اهتمامه على سنا البرق ،

---

(١) ديوان حميد : ٢٧ — ٢٨ .

(٢) يفرى : من فرى البرق ، يفرى فرياً ، وهو تلألؤه وتراعده في السماء .

(٣) عروضاً : سحائب ، وأحدها عرض . تعدت : أقبلت . فساح : انتشر .

(٤) الغور : غور تهامة . يسعرن : يوقدن . الأباء (بالفتح) جمع أباءة ، وهي القصبة أو هي أجمة الحلفاء . والمضرم : الذي أضرم بالنار .

(٥) كذا . ولعله : (كركض عتاق الخيل) . وعتاق الخيل : كرامها .

الذى يذير (هضب متالع) ، ويا ليت هذا الهضب كان دانيا ! . قال[١] :

ألا أيُّها الرائد [illegible] يميلُ ... إلينا ذرى الحسناء حُيِّيتَ واديا

فياليتنى والعامرية نلتقى ... نزودُ لأهلينا رياضَ الخواليا[٢]

فدع ذا، ولكن هل ترى ضوء بارقٍ ... يضىء حَبِيًّا مُنْجِدًا متعاليا[٣]

يضىء سناهُ الهضبَ هَضْبَ مُتالِعٍ ... وحُبَّ بذاك الهضْبِ لو كان دانيا[٤]

وهذا أحد المهاجر الفاتحين[٥] ، يذكر وطنه — نجدا — الذى طال ما كرّ نحوه طرفه برغمه ، وإن لم يدركه . يكرّ طرفه حنيناً إليه ! إلى ذلك التراب الذى إذا أمطر صار مسكاً وعنبراً ! وكيف لا يحن إلى نجد ، وكأن الأقحوان فيه وأقاحيه (وشى برد حبر) ! . يحن إلى الحجاز ، وحاجته أمام بنجد — على حد تعبيره — ولا يستطيع أن يراه . إنه التصور الذاتى لدى الإنسان ، ينظر فلا يبلغ طرفه إلا أطراف الأفق ، فأين نجد منه ، وما نفع نظره نحوه ؟ ! وفى كل يوم له نظره ثم عبرة ، يتحدر ماؤها . وأخيراً يصرخ متسائلا : متى يستريح القلب ، ومتى يستطيع أن يرى نجداً ، بل — وأدنى من ذلك — هل له من نازح يذكر ؟ وهل من مار قرب نجد يحمله تحياته ؟ إنها العاطفة الصادقة المشبوبة ، لأحد المجاهدين

---

(١) ديوان سحيم ٢١ — ٢٢ .

(٢) الرائد : الذى يتقدم القوم ليتخير لهم المنزل .

(٣) حبياً : أى عالياً على وجه الأرض . ومنجدا : من ناحية نجد .

(٤) الهضبة : الأكمة الملساء القليلة النبات .

(٥) هناك قسم من الشعراء لم نهتد إلى أسمائهم — على الرغم من الجهد الكبير الذى بذلناه فى هذا المجال — كهذا الشاعر وغيره ممن ذكرتهم ، ولهم أشعار جميلة تتصل بموضوعنا ، ونظن أن السبب فى ذلك يعود إلى أن هؤلاء الشعراء من المغمورين الذين ليس لهم الشعر الكثير ، أو أنهم من الجند الفاتحين الذين أنطقتهم الغربة ، وألم الحنين إلى الوطن .

الخارجين فى سبيل الفتح المبين ، وقد نذر نفسه فى سبيل الله ودينه الحنيف ، ولكن حب الوطن [illegible] وكأنهما شىء واحد : الجهاد والوطن ، يرتبطان برباط وثيق ! . قال(١) :

أكرّرُ طرفى نحو نجدٍ وأننى ... إليه، وأن لم يُدْرِكِ الطرفُ، أنظرُ

حنيناً إلى أرضٍ كأن ترابَها ... إذا أمطرتْ عودٌ ومسكٌ وعنبرُ

بلادٌ كأنَّ الأقحوانَ بروضةٍ ... ونورَ الأقاحى وشىٌ بُردٍ محبَّرُ

أحنُّ إلى أرضِ الحجازِ وحاجتى ... خيامٌ بنجدٍ دونَها الطرفُ يقصرُ

وما نظرى من نحوِ نجدٍ بنافعى ... أجل — لا — ولكنى إلى ذاك أنظرُ

أفى كلِّ يومٍ نظرةٌ ثم عبرةٌ ... لعينيك مجرى مائها يتحدرُ

متى يستريحُ القلبُ إمّا مجاورٌ ... بحربٍ وإما نازحٌ يتذكرُ

ويبكى شاعر آخر على نجد ، وعما يذكى دموعه ، أنه لن يرى نجدا ، ولا ريا ، ولن يرى (أقفار وجرة) ، ولن يسمح له الزمان بوطىء ثراهن الجعد ، وأنه لن يجد ريح الخزامى ، حين تسوقها الصبا . فيا للمأساة ، حين يتبدل من ريا وجارات بيتها ، بهذه القرى التى وصلت الفتوح إليها . وماذا يستطيع أن يصنع ، والمساهمة فى الفتوح فرض لازم عليه ، إلا أن يتجه إلى البرق الذى يجلو دجى الظلماء ، والذى ذكره بنجد ، يخاطبه وكأنه يسمع خطابه ، فيقول له : إن الليل بنجد يقصر طوله ، وأن الرياح به باردة . إنه إلتجاء الشاعر إلى الطبيعة ، يبثها همه ، ويحكى لها شكاته . قال(٢) :

أتبكى على نجدٍ وريّاً ولن ترى ... بعينيك ريا ما حييتَ ولا نجدا

ولا مشرفاً ما عشتَ أقفارَ وجرةٍ ... ولا واطئاً من تربهنّ ثرىً جعدا

---

(١) معجم البلدان : ٥/٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٢) شعر الفتوح الإسلامية للنعمان عبد المتعال القاضى : ٢٥٤ — ٢٥٥ .

ولا واجداً ريحَ الخزامى تسوقها ... رياحُ الصَّبا تعلو دكادكَ أو وهداً

تبدَّلتَ من ريًّا وجارات بيتها ... قرى نبطيَّاتٍ يسمّينني مَرْداً (١)

ألا أيُّها البرقُ الذي باتَ يرتقي ... ويجلو دجى الظلماء ذكرتني نجدا

ألم ترَ أنَّ الليلَ يقصرُ طولُه ... بنجدٍ وتزدادُ الرياحُ به بَرْداً !

ومن يجاهد آخر إلى نجد ، وإلى من يحل بنجد ، بسبب عدم انسجامه مع الجند ، إذ أنه لم يعتد مثل هذه الحياة . قال(٢) :

تبدلتُ من نجدٍ وممن يحلُّه ... محلة جُنْدٍ ! ما الأعاريبُ والجندُ ؟!

وأصبحتُ في أرض البنود وقد أرى ... زماناً بأرضٍ لا يقال له بندُ(٣) ؟

« وأدخل على عبد الملك بن مروان عشرة من الخوارج فأمر بضرب رقابهم وكان يوم غيم ومطر ورعد وبرق فضربت رقاب تسعة منهم ، وقدم العاشر ليضرب عنقه ، فبرقت برقة فأنشأ يقول :

تألَّقَ البرقُ نجديا فقلت له : ... يا أيُّها البرقُ أنّي عنك مشغولُ

بذلّةِ العقلِ حيران بمعتكفٍ ... في كفِّهِ كحباب الماء مسلولُ

فقال له عبد الملك : ما أحسبك إلا وقد حننت إلى وطنك وأهلك ، وقد كنت عاشقاً ؟ . قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : لو سبق شعرك قتل أصحابك لوهبناهم لك ، خلّوا سبيله . فخلوه(٤) ؟

---

(١) مرد : بالفارسية رجل .

(٢) شعر الفتوح الإسلامية : ٢٥٥ .

(٣) البنود بأرض الروم كأجناد بأرض الشام والكور بالعراق .

(٤) معجم البلدان : ٥/٢٦٤ .

ومن هذا الحنين الطاغي ، القوي ، اللاهب المشاعر ، أبيات لأبي زياد الطائي . الذي لم ينس داره ولا قومه ، ولا تلك البلاد التي ربته ورعته ، وبها نيطت تمائمه ، وقضى فيها عصر الصبا ، بين قومه وأحبابه . والتي هجرها مكرهاً . قال(١) :

أحقّاً عبادَ الله أن لستُ ناسيًا ... بلادي ولا قومي ولا سا كنًا نجدا

ولا ناظراً نحو الحمى اليوم نظرةً ... أُسلّي بها قلبي ولا شُعبَتَا عهدا

بلادٌ بها نيطت عَلَيَّ تمائمي ... وكان بها عصرُ الصِّبا نَضِراً رغدا(٢)

بلادٌ بها قومي وأرضٌ أُحبُّها ... وان لم أجد من طول هجرتها بُدًّا !

ويتميز شعر المجنون(٣) ، بالرقة والسلاسة والنعومة . لذا يأسرنا شعره بعاطفته الأخاذة ، وحبه الصادق ، وحنينه الى دياره وديار أحبابه ، وتغنيه بالذكريات الجميلة منها والحزينة .

أنه يحب نجدا ، وأنه موشك على مغادرتها ، سيفارقها غداً ، لذا عليه أن يتمتع من ذرى هضباتها . يقول(٤) :

تمتّعْ من ذرى هضباتِ نجدٍ ... فإنَّكَ موشكٌ ان لا تراها

أُودِّعها الغداةَ فكلُّ نفسٍ ... مفارقةٌ إذا بَلَغَتْ مداها

وتارة أخرى ، يتغنى بنجد وطيب ترابها وأرواحها . ثم يتساءل ، هل تغيرت نجد بعده ! وهل ظلت جارتاه على عهده بهما ، أم خانتاه ؟ وهل الرياح مستمرة في جريها بريح الخزامى وهبوبها إلى نجد ، أم تركت تلك العادة الحلوة !؟ قال(٥) :

---

(١) المنازل والديار : ٢٤٦ — ٢٤٧ .
(٢) نيطت : علقت . والتمائم : واحدها تميمة وهو ما يعلق في العنق لدفع العين .
(٣) توفي عام ٨٥ هـ تقريباً .
(٤) ديوان مجنون ليلى : ٣٥ .
(٥) الديوان : ١٩ .

ألا حبّذا نجدٌ وطيبُ ترابها ... وأرواحُها إن كان نجدٌ على العهدِ (١)

ألا ليت شعري عن عُوَيْرِضَتَيْ قَنًى ... لطول التنائي هل تغيّرتا بعدى (٢)

وعن أقحوانِ الرّملِ ما هو فاعلٌ ... إذا هو أمسى ليلةً بثرىً جعدِ (٣)

وعن جارتينا بالبتيلِ إلى الحمى ... على عهدِنا أم لم تدوما على عهدِ (٤)

وعن علويّاتِ الرّياحِ إذا جرتْ ... بريحِ الخُزامى هل تهبُّ إلى نجدِ (٥)

ويحن المجنون إلى الحجاز (٦) ، وحاجته خيام بنجد ، ولكن طرفه ، لم يستطع أن يراها ، وهو ينظر إلى نجد ، مع علمه بأن هذه النظرة ليست نافعة ، لأنها لا تريه نجدا ، ومع ذلك ينظر ، ثم يستعبر ، ويجرى ماء عينه . ويتساءلون متعجبين من جريان دمعه . ولكنه يؤكد لهم ، أن الذى يجرى من عينه ، ليس ماءها ، وإنما هو ذوب نفسه وتقطرها قال (٧) :

أحنُّ إلى أرضِ الحجازِ وحاجتي ... خيامٌ بنجدٍ دونها الطّرفُ يقصرُ

وما نظرى من نحو نجدٍ بنافعى ... أجل لا ولكنّى على ذاك أنظرُ

أفى كلِّ يومٍ عبرةٌ ثم نظرةٌ ... لعينيكَ يجرى ماؤها يتحدّرُ

متى يستريحُ القلبُ إمّا مجاورٌ ... حزينٌ وإمّا نازحٌ يتذكّرُ

يقولون: كم تجرى مدامعُ عينِهِ ... لها الدّهرُ دمعٌ واكفٌ يتحدّرُ

وليس الذى يجرى من العينِ ماءها ... ولكنّها نفسٌ تذوبُ وتقطرُ

---

(١) أرواحها : جمع ريح . (٢) عويرضتي قنى : جبل فى بلاد طيء . (٣) اقحوان الرمل : الاقحوان ، نبات أوراقه مفلجة صغيرة تشبه بها الأسنان . بثرى جعد : تراب ندى . (٤) البتيل : جبل . (٥) الخزامى : نبت طيب الزهر . (٦) هناك تشابه كبير بين هذه القصيدة وقصيدة أحد المهاجرين النابتين التى عرضنا لنا قبل قليل — كما هو ملاحظ . (٧) ديوان المجنون : ٣١ — ٣٢ .

ومن أرق الشعر وأعذبه، قصيدته التي ترن على صفحات القلوب، حين يطلب من صاحبه أن يتمتع بشميم عرار نجد، إذ الشهور تنقضي ولا يشعر بها، لجمالها بلياليها ونهاراتها (فأما ليلهن فخير ليل) ونهارها كأطول ما يكون. قال(١):

أقولُ لصاحبي والعِيسُ تهوى   بنا بين المُنيفةِ فالضِّمارِ (٢)

تمتَّعْ من شَميمِ عَرارِ نجدٍ   فما بعد العشيَّةِ من عَرارِ (٣)

ألا يا حبَّذا نفحاتُ نجدٍ   وريَّا روضِهِ غِبَّ القِطارِ (٤)

وأهلُكَ إذ يَحلُّ الحيُّ نجدًا   وأنت على زمانك غيرُ زاري

شهورٌ ينقضِينَ وما شعرنا   بأنصافٍ لهنَّ ولا سَرارِ (٥)

فأما ليلهنَّ فخيرُ ليلٍ   وأطولُ ما يكونُ من النهارِ

ويحن المجنون الى نجد، مع يأسه من الرجوع إليه. ذلك اليأس الذي يدفعه الى الظن، بأنه لن يرى نجدا، حتى تقوم القيامة. قال(٦):

أحنُّ إلى نجدٍ وإني لآيسٌ   طوالَ الليالي من قُفولٍ إلى نجدِ

وأن يكُ لا ليلى ولا نجدُ فاعترفْ   بهجرٍ إلى يوم القيامةِ والوعدِ

ويحن — أيضا — الى نجد، إذا رأى جمال قومه. ويبكي ان سمع حنين تلك الجمال. ويدعو بالسقيا لبلاده، وان خلت البلاد، وبليت بها الأطلال. ثم لا يملك غير أن يبعث التحية لتلك البلاد وأهلها. يقول(٧):

---

(١) الديوان: ٦٣.

(٢) العيس: الإبل لونها أبيض في سواد. تهوى: تسرع. المنيفة والضمار: موضعان.

(٣) العرار: النرجس البري.

(٤) القطار: السحاب الكثير المطر.

(٥) سرار: الليالي الأخيرة من الشهر القمري.

(٦) الديوان: ٦٧.   (٧) المصدر السابق: ٦٤ — ٦٥.

أَحنُّ إذا رأَيت جمالَ قومى وأَبكى إنْ سمعتُ لها حنينا

سقى الغيثُ المجيدُ بلادَ قومى وأَن [illegible] الديارُ وأن بلينا

على نجدٍ وساكنِ أرضِ نجدٍ تحياتٌ يَرُحْنَ ويغتدينا

وحين يهب الصبا من نجد ، يزيد مسراه وجد الشاعر (وجداً على وجد) واذا ما تغنت الحمامة (فى رونق الضحى) بكى كما يبكى الوليد ، مع أنه معروف بجلده ، لكنه يبدى الذى لم يكن ليبديه ، لأنه قضى كل لبانة من تهامة ، واشتاق قلبه الى نجد ، لأنها ديار حبيبته ، التى اذا وعدت زاد هواها ، وان ضنت بوعدها ، مات على الوعد ، وان قربت دارها بكى ، وان بعدت حزن ، فلاقى القرب دواؤه ، ولا فى البعاد . وهو فى كل الأحوال ليس له الا الحنين الى نجد . فياليته يستطيع إسلوانها ، ولكن أنى له ذلك ، ونجد طيبة التراب ! قال(١) :

خليلىَّ مُرَّابى عَلَى الأبرقِ الفردِ وعهدى بليلى حبَّذا ذاك من عهدِ(٢)

أَلا يا صبا نجدٍ متى هجتَ من نجدِ فقد زادنى مسراكَ وجداً على وجدى

إذا هتفتْ ورقاءُ فى رونقِ الضحى على فَنَنٍ غضِّ النباتِ من الرَّندِ

بكيتُ كما يبكى الوليدُ ولم أزلْ جليداً وأَبديتُ الذى لم أَكنْ أُبدى(٣)

وأصبحتُ قد قضيتُ كلَّ لبانةٍ تهاميةٍ واشتاقَ قلبى إلى نجدِ

---

(١) الديوان : ٧٤ — ٧٥ .

(٢) الأبرق الفرد : موضع .

(٣) كذا فى الديوان . وفى رواية أخرى (ولم أكن وليدا) .

إذا وعـدتُ زاد الهوى لانتظارها
وأن بخلت بالوعدِ مُتُّ على الوعدِ

وأن قَرُبَتْ داراً بكيتُ وأن نأتْ
كلفتُ، فلا للقربِ أسلو ولا للبعدِ[١]

أحنُّ إلى نجدٍ فياليت أنني سُقيتُ عَلَى سلوانةٍ من هوى نجدِ
ألا حبَّذا نجدٌ وطيبُ ترابِهِ وأرواحُهُ ان كان نجدٌ على العهدِ

أنها العاطفة الصادقة ، والحبّ والشوق إلى الوطن . وإلى من هم فى الوطن ، من الأهل والأحباب . جسّدها لنا المجنون ، فى أجـــلى صورة ، وأجمل منظر ، وأسهل لفظ وأسلسه . وهل هذا إلا منهج المجنون ، وأضرابه من الشعراء العذريين ، الذين تيمهم الحب ، وغلبهم الشوق ، وأحرقتهم نار الفرقة والبعاد عن الوطن والأحباب ! ؟

ويخاطب ابن الدمينة أخويه فى المدينة ، أن يصعدا به جبلا ، ليرى نجدا . فما فعلا ، زادت صبابته ، كما زاد بعده عن معارفها ، حتى براه الشوق ، فلم يترك منه عظاماً ولا جلداً ، قال[٢] :

أيا أخويَّ بالمـــدينةِ أشرفا
بى الصمدِ أنظرْ نظرةً هل أرى نجدا[٣]

فما زادنى الاشرافُ إلا صبابةً ولا ازددتُ إلا عن معارفِها بعدا[٤]

---

(١) كذا فى الديوان . ولعله (البعد) .

(٢) ديوان عبد الله بن الدمينة : ١٨٧ — ١٨٨ .

(٣) الصمد : ماء للضباب (٤) الأشراف : الأطلال من عل .

فإنَّ بنجدٍ من براني حُبُّهُ   فلم يتركْ منى عظاماً ولا جلدا

فقال المَدينيَّانِ أنت مُكلَّفٌ   بداعى الهوى لا تستطيعُ له ردَّا

والحجاز من أشهر بلاد العرب ، سكنها كثير منهم ، وتعلقوا بها ، وكثر ترديد اسمها على ألسنة شعرائها . وحنوا إليها وقت البعاد عنها .

ففى إحدى قصائد عنترة ، نلمح مقارنة فى شعر الشاعر ، بين حياته خارج الحجاز وحياته فيه . وهو فى تلك المقارنة ، يفضل « نسيم الحجاز » على الأموال ، واللآلئ والبدر . كما أنه يفضل رؤية وجه حبيبته ، على ملك كسرى .

ونتيجة لحبه هذا ، وولعه العنيف بالحجاز وأهله ، ونسيمه العليل ، فإنه يندفع إلى الدعاء بالسقى للخيام والمنازل التى تطل البدور منها ، وقد تبرقعت بالشعر الأسود كما أنه يذكر بتفخر ، الأسود الذين يحمون تلك البدور ، وكأن ذلك عنده ، مدعاة من دواعى الفخر والسرور ، تلك الدواعى ، التى نراها سبباً وثيق الصلة بحنينه إلى منازله وأوطانه . كيف لا ! وهو الفارس البطل ، الذى يفخر بالبطولة والفروسية : قال[1] :

يردُ نسيمِ الحجازِ فى السَّحَرِ   إذا أتانى بريحِهِ العطِرِ

ألذُّ عندى مما حوَتهُ يدى   من اللآلى والمالِ والبِدَرِ[2]

وملكُ كسرى لا أشتهيهِ إذا   ما غاب وجهُ الحبيبِ عن نظرى

سقى الخيامَ التى نُصِبنَ على   شَرَبَّةِ الأُنسِ وابلُ المطرِ[3]

منازلٌ تطلعُ البدورُ بها   مبرقعاتٍ بظلمةِ الشَّعَرِ[4]

---

(١) ديوان عنترة : ٨٩ .

(٢) البدر : جمع بدرة ، وهى كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار .

(٣) الشربة : موضع .   (٤) يريد بالبدور الجوارى .

بيضٌ وسمرٌ تحمى مضاربَها أُسادُ غابٍ بالبيضِ والسُّمْرِ

وفى قصيدة أخرى ، يجد الشاعر أن دواءه من بعاده عن أحبابه وأصحابه فى الحجاز ، التى تمر على كبده الحرى ، الذائبة من الوجد . يطالعنا عنترة بهذه القصيدة بالمظهر الرجولى اللائق بأمثاله من الفرسان . فهو إذا رشقت سهام البعد قلبه ، وإذا تبدلت الأحداث ، فأبعدته عمن يحب . فأنه سيصبر وسيلاقى ، جيش الشوق ، بهمته وقوة عزيمته . وهو يجد عزاءه عن هذا البعد عن أحبابه ودياره ، بريح الحجاز ، والبرق الذى يحمله ، أرق عواطفه لقبيلته بنى عبس . قال[1] .

إذا رَشقَتْ قلبى سهامٌ من الصدِّ وبَدَّلَ قُربى حادثُ الدهرِ بالبُعدِ[2]

لبستُ لها دِرعًا من الصَّبْرِ مانعًا

ولاقيتُ جيشَ الشَّوقِ مُنْفرِدًا وحدى

وبتُّ بطيفٍ منك [illegible]

فباللهِ يا ريحَ الحجازِ تنفسى

على كبدٍ حرَّى تذوبُ من الوجدِ[3]

ويا برقُ إن عرَّضتَ من جانبِ الحمى

فحىُّ بنى عبسٍ على العَلَمِ السَّعدى

وأن خمدتْ نيرانُ عبلةَ مَوْهِنًا

فكُنْ أَنتَ فى أكنافِها نيِّرَ الوَقْدِ[4]

---

(١) الديوان : ٦٥ — ٦٦ . (٢) رشق : الرمى بالنبل وغيره .
(٣) حرى : مؤنث حران ، أى ظامئة .
(٤) الموهن : نحو من منتصف الليل ، أو بعد ساعة منه .

وَخلُ الندى يَنهلُ فوق خيامِها ... يُذَكّرُها أنى مقيمٌ على العهدِ

عدمتُ اللّقا إن كنتُ بعدَ فراقِها ... رقدْتُ وما مثّلتُ صورتَها عندى

وَماشاقَ قلبى فى الدُّجى غيرُ طائرٍ ... ينوحُ عَلَى غصنٍ رطيبٍ من الرَّندِ[1]

به مثلُ ما بى فهو يُخفى من الجَوى

كَمِثْلِ الذى أُخفى ويُبدى الذى أُبدى

ألا قاتلَ اللهُ الهوى كم بسيفهِ ... قتيلُ غرامٍ لا يوسّدُ فى اللحدِ

وغنى عن البيان، أن الحنين إلى الوطن واضح فى أبياته هذه، وأن الشوق إلى الأهل والأحباب فيها جلى. كما أنها تختلف اختلافاً بيناً عما اصطلح عليه، بأبيات الأطلال، وليس فيها وقوف على طلل، ولا بكاء واستبكاء، ولا شىء من مطالع [illegible] ألم الا ذكر الحبيب. ويقول[2]:

يا نسيمَ الحجازِ لو لاكِ تُطفا ... نارُ قلبى أذابَ جسمى اللهيبُ[3]

لكِ منى إذا تنفستُ حرٌّ ... ولرياكِ من عُبيْلَةَ طيبُ[4]

ولمع البرق، فيحدث سناه أثراً فى نفس الشماخ بين ضرار إذ يذكر الحرى، والأهل، والوطن، فيشتعل الحنين فى قلبه إلى الحجاز. قال[5]:

رأيتُ سنا برقٍ فقلت لصاحبى ... بعيدٌ بفالجٍ ما رأيتُ سحيقُ[6]

فباتَ مُهِمّاً لى يذكرنى الهوى ... كأنى لبرقهِ بالحجازِ صديقُ[7]

---

(١) الرند: شجر طيب الرائحه.

(٢) الديوان: ١٠٠

(٣) تطفأ: تطفا

(٤) الريا: الريح الطيبة.

(٥) ديوان الشماخ: ٢٤٨.

(٦) فلج: موضع

(٧) مهما لى: محزناً لى.

ويفخر جميل بأن الحجاز وطنه ، وهو يضم هواه وشجنه . قال(١) :

أنا جميـلٌ والحجازُ وطنى   فيه هوى نفسى وفيه شجنى

وتموج عواطف القطامى ، وتلوب ذكريات الحجاز فى قلبه ، فيتجه إلى ريح الحجاز يستحلفها — بحق الله الذى أنشأها — أن ترد سلامه وتحييه حين يحييها . أن ترد عليه ، فتخفف من وجده المتأصل فى قرارة نفسه وعواطفه ، عسى أن تنطفىء نيران شوقه ببرد هواها ، فيا ريح الحجاز ، لولا أنك تحملين ، بقية من طيب عبلة ، لمات قبل أن يلقاها ! قال(٢) :

ريحَ الحجازِ بحقٍّ من أنشاكِ   رُدّى السلامَ وحىٍّ من حيّاكِ

هُبِّى عسى وجدى يخفُّ وتنطفى   نيرانُ أشواقى ببردِ هواكِ

يا ريحُ لولا أنّ فيكِ بقيّةً   من طيبِ عبلةَ متُّ قبلَ لقاكِ

ويحن الشاعر إلى وطنه فيتمنى أن يطير إلى الحجاز . علّه يرى ركاباً لجارية تبكى شوقاً إلى وطنها الذى بعد ، وإلى جيرانها قال(٣) :

وطِرْ لعلّك فى أرض الحجاز ترى   ركبًا على عالجٍ أو دون نعمانِ(٤)

يَسْرِ بجاريةٍ تنهلُّ أدمُعُها   شوقًا إلى وطنٍ ناءٍ وجيرانِ

ويتذكر الشاعر صبابته بعد حين من الفراق ، فيحن القلب إلى الحجاز . فتهيج دموعه ، ويهيج غرامه ، قال(٥) :

ذكرتُ صبابتى من بعد حينٍ   فعاد لى القديمُ من الجنونِ

وحنّ إلى الحجازِ القلبُ منى   فهاجَ غرامه بعد السكونِ

---

(١) ديوان جميل : ٢٠٦ .

(٢) ديوان القطامى : ١٦٩   (٣) الديوان : ١٢٤ .

(٤) عالج ، ونعمان : موضعان .   (٥) الديوان : ٢١٦ .

وأننا لنلمس الحنين الصادق، المنفعل بمعاناة تجربة الغربة، عند أدباء السجون. ومن الطبيعي أن يحن السجين إلى بلاده، وإلى أهله، عائلته وعشيرته، لأنه مكره على الإقامة في السجن.

فيحق إذن ليعلى الأزدي، أن يأرق للبرق اليماني، الذي يضيء الجزيرة كلها، فيمين السبل والمعالم، ويدخل في قلبه. لأنه صديق لحي قد فارقه بالاكراه والقصر. فتثور أحزانه، حين يقارن بين حالة تلك، وبين أيامه في اليمن، حين كان الحمام يتغنى في ظل الأيكة، وحين كان القيان يعزفن في حيه. فياليت حاجاته اللواتي حبسته قد انقضت منذ زمن، كي يتسنى له أن يعود إلى ذلك الوادي السعيد حيث ينبت السدر في صدره. قال(١):

أرقت لبرق دونه شدوان	يمان وأهوى البرق كل يمان(٢)
فبت لدى البيت الحرام أخيله	ومطواي من شوق له أرقان
جرى منه أطراف الشرى فشبيع	فابيان فالحيان من زمران
فران فالاقياص أقياص امأج	فما وان من واديهما شطئان
هنا لك لو طوقتما لوجدتما	صديقا من إخوان بها وغواني
وعزف الحمام الورق في ظل أيكة	وبالحي زي الرودين عزف قيان
ألا ليت حاجاتي اللواتي حبسنني	لدى نافع قضين منذ زمان
وما بي بغض للبلاد ولا قلي	ولكن شوقا في سواه زعاني

---

(١) معجم البلدان: ٣/٣٢٩. وأدباء السجون لعبد العزيز الحلفي: ٧٨—٧٩ مع خلاف في الروايتين.

(٢) الشدوان: جبلان باليمن.

فليت القلاص الادم قد وخدت بنا ... بوادى يمان ذى ربى ومجانى
بواد يمان ينبت السدر صدره ... وأسفله بالمرخ والشبهان

كما يحق لدراج الضبان ، أن يهتف بغراب البين ، الذى يسمعه صوته المشئوم ، أن يربع عن الديار ، أو يرحل ، أو أن يقع ، فيطير الغراب . ولكن ما فائدة هذا الطيران المعنى المغترب المسجون . فهو يبكى ، إذ ليست لياليه بمرتجعات ، فليبك ما شاء له البكاء ، وليبلغ السامع تحياته لبنى عمرو . قال[١] :

ألا يا غرابَ البينِ اسمعتَ فارجع ... وطِرْ بالذى قد حُمّ ويحك أوقع
فطارَ بتحقيقٍ ، وجدتُ بعبرةٍ ... أتاها رشاشُ العينِ من كلّ مدمع
فليس ليالينا بطخفةَ والحمى ... بمرتجعاتٍ ، فابكِ شجوكَ أودع[٢]
إذا أمُّ سرباحٍ غدت فى ظعائنٍ ... حوابس نجدا فاضت العين تدمع
فبلّغ بنى عمرو سلاماً ورحمةً ... بآيات شداتى إذا الخيل تقدع

ومن سجن المدينة ، تنطلق مشاعر حنانى البرجمى ، حين يدعوه الهوى والشوق ، وتهدل فى سمعه حمامة طروب ، تجاوبها أصوات الورق الحمام ، فيرق كل شىء لصوتها . فكيف لا يشوقه هذا الهديل ، وهو سجين غريب ؟ . قال[٣] :

دعاكَ الهوى والشوقُ لما ترنّمتْ ... هتوفُ الضحى بين الغصونِ طروبُ
تجاوبها ورقُ الحمامِ لصوتها ... فكلٌّ لكلٍّ مسعدٌ ومجيبُ
ومن يكُ أمسى فى المدينةِ رحلهُ ... فانى وقيار بها لغريبُ[٤]

---

(١) أدباء السجون : ٩٧ .
(٢) طخفة والحمى : موضعان .
(٣) أدباء السجون : ٤٣ — ٤٤ .
(٤) قيار : اسم جمل الشاعر .

وما عجلات الطير تدنى من الفتى ... نجاحا ولا عن ريثهن يخيبُ

ويشكو حبيب بن عدى الأنصارى ، غربته إلى الله ، وكربته ، بعد أن جمع الأعداء جيوشهم ، واحتشدوا من كل جانب ومكان ، وهم لا يألون يبدون له العداوة ، فى كل منظر ومشهد ، فابتهالا إلى الله ، ذى العرش ، أن يصبر به على مصابه . قال(١) :

لقد جمّع الأحزابُ حولى وألّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمعِ

فقد قرّبوا أبناءهم ونساءهم ... وقرّبتُ من جذعٍ طويلٍ ممنعِ

وكلّهم يبدى العداوةَ جاهدًا ... علىّ لأنى من وثاقٍ مضيعِ

إلى الله أشكو غربتى بعد كربتى ... وما جمّع الأحزابُ لى عند مصرعى

فذا العرشِ صبّرنى ما أصابنى ... فقد بضعوا لحمى وقد ضلّ مطمعى

إنها حالة الغريب ، الوحيد ؛ البعيد عن أهله ووطنه ؛ وهل له منها فكاك ؟ !

ويقول قيس بن مسعود فى سجنه ؛ أن ليله قد طال ؛ وأن الفكاك منه بعيد ؛ لذا فليبلغ المهاجرون رسولا لبنى ذهل ؛ عن حاله ، وهو أنه فى الأسر . قال(٢) :

ألا أبلغْ بنى ذهل رسولا ... فمن هذا يكون لكم مكانى

ويا من فيكم الذهلى بعدى ... وقد وسموكم سمة البيانِ

ألا من مبلغ قومى ومن ذا ... يبلّغ عن أسير فى الأوانِ

تطاول ليله وأصاب حزنا ... ولا يرجو الفكاكَ من المنانِ

* * *

(١) أنباء السجون : ٣٥ .

(٢) المصدر السابق : ٢٥ .

وبمجيء الإسلام، وانتشار المسلمين الفاتحين فى الأمصار، أبان الفتوح الإسلامية، زخر الشعر العربى، بحنين هؤلاء الفاتحين المقاتلين — الذين حملوه معهم، أجل مبدأ، وأعظم عقيدة — إلى أوطانهم، التى لم ينسوها، بل أن الحنين إليها، كان يأخذهم، فيظهرونه حيناً، ويسترونه حيناً آخر.

فهذا كثير بن الغريرة النهشلى، يدعو لدياره بالسقيا، ويذكر أنه جزع بسبب الحنين، وإلى من؟ إلى البرق اليمانى، وإلى أناس يشتاقون لرؤياه، ويشتاق لرؤياهم، وإلى ديار عاش فى رحابها سنين طويلة، ولكنه لن يراهم، وأنهم لن يرونه. انها قمة المأساة عند الإنسان! . قال[1] :

سقى مزن السحاب إذا استقلت ... مصارع فتية بالجوزجان[2]

إلى القصرين من رستاق خوط ... أثابهم هناك الأقرعان[3]

وما بي أن أكون جزعت ألا ... حنين القلب للبرق اليمانى

ومحبور برؤيتنا يرجى الـ ... لقاء ولن أراه ولن يرانى

وشاعر آخر من هؤلاء الفاتحين، يصل مرو الشاهجان، فيشعر بألم الغربة الممض، فيدعو قرية الوادى، التى خان إلفها أحداث الدهر وخطوبه، أن تأتيه ليطارحها البكاء! ولماذا؟ لأنهما كلاهما غريبان فى هذا المكان، وكل يغلبه الشوق والحنين. قال[4] :

أقرية الوادى التى خان إلفها ... من الدهر أحداثٌ أتت وخطوبُ

---

(١) الأغانى : ١١/ ٢٦٠ .

(٢) الجوزجان : كورة واسعة من كور بلخ بخراسان .

(٣) القصرين هنا : مدينة السيرجان بكرمان ، كانت تسمى القصرين . وخوط هنا : من قرى بلخ . ورستاقها : سوادها وقراها . والأقرعان : يريد الأقرع بن حابس وأخاه .

(٤) معجم البلدان : ٥/ ١١٤ .

تعالى أطارحك البكاء فإننا ٭ كلانا بمرو الشاهجان غريب

وبمرو الشاهجان — أيضاً — يقول شاعر آخر ، أنه قد أسف على بر العراق ، وأن فؤاده أصبح حزيناً معتلا ، وأنه لمعذور على هذا الاعتلال والألم ، لأنه فارق الأرض التي يحبها ، وعاش فيها قال(١) :

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت ٭ أرضٌ تتابعَ ثلجها المذرورُ(٢)

أسفي على برّ العراقِ وبحرِهِ ٭ أن الفؤادَ بشجوهِ معذورُ

ففي هذين البيتين ، نلمح سبباً من أسباب الحنين ، ألا وهو البيئة الجديدة ، على هؤلاء الفاتحين ، فهو يذكر أن البيئة ، قد تنكرت بتتابع ثلجها ، وهذا مالم يعهده — سابقاً — في بلاده .

ومغترب آخر « هو ورد بن الورد » ، يصبح في رامهرمز ، فيرى كل كمي — هناك — غريباً ، لذلك يشتعل الحنين به إلى وطنه ، فيضفي عليه مسحة من الفلسفة العملية ، التي عايشها ، حين يقول : أن الدنيا لاتساوي شيئاً ، إذا لم تتمتع فيها بزيارة حبيب ، وإذا (لم يطرب إليك حبيب) . قال(٣) :

أمغتربا أصبحت في رامهرمز ؟ ٭ ألا كلُّ كمي هنالك غريبُ(٤)

إذا راح ركبٌ مصعدونَ فقلبُهُ ٭ مع المصعدين الرائحين جنيبُ

وأن القليبَ الفرد من أيمن الحمى ٭ إليَّ وأن لم آتِهِ لحبيبُ

ولاخير في الدنيا إذا لم تزر بها ٭ حبيبا ولم يطرب إليك حبيبُ

---

(١) معجم البلدان : ٥/١١٤ .
(٢) مرو : أشهر مدن خراسان .
(٣) معجم البلدان : ٣/١٧ — ١٨ ، وشعر الفتوح الإسلامية : ٢٥٥ .
(٤) رام بالفارسية : المراد والمقصود . وهرمز : أحد الأكاسرة . وهي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان .

ويلوح الحنين الصادق ، بوضوح وجلاء ، فى أية قصيدة يمكن أن نطالعها ، فى هذا الموضوع ، حتى أن الأستاذ النعمان عبد المتعال القاضى يقول : أن بعض الفاتحين ، قد استبدل المطلع الطللى ، بمطلع الحنين إلى الوطن[1] ويستشهد على ذلك بأبيات أحد الفاتحين ، يقول فيها[2] :

خليلى هل بالشام عينٌ حزينةٌ   تبكى على نجدٍ لعلى أعينها
وهل بائعٌ نفساً بنفسٍ أو الأسى   إليها فأخلاها بذاك حنينها
وأسلمنها الباكون إلا حمامة   مطوقة قد بان عنها قرينها
تبادلها أخرى على خيزرانة   يكاد يدانيها من الأرض لينها
نظرت بعينى مؤنسين فلم أكد   أرى من سهيل نظرة أستبينها
فكادت نفسى ثم راجعت نظرة   فهيّج لى شوقاً لنجد يقينها
خليلىَّ هل بالشام عينٌ حزينةٌ   تبكى على نجدٍ لعلى أعينها

ثم يتساءل الأستاذ القاضى قائلا : (فهل هناك فرق بين هذه الأبيات ، وأية مقدمة طللية ؟ وهل هناك فرق بينها وبين ما نراه عند العذريين من آلام الشوق والتبريح[3]) ونحن نرى ، أن هذه العطوف الصادقة ، ليست بكثيرة على هؤلاء البدو ، الذين حملوا راية الإسلام إلى العالم ، ذلك الدين ، الذى جعل حب الوطن جزء لا يتجزأ من الإيمان .

وهناك مجموعة أخرى من الأبيات ، من هذا الباب ، تظهر مدى تعلق العربى بمظاهر بيئته ، حين يخاطب النخلة ويتمنى لها أحلى الأمانى من سقى الغوادى ، ومجاورة الجان لها — أنه حنين الى الوطن ، يتخذ ثوب الشوق الى كل ما يذكر بذلك الوطن . قال الشاعر[4] :

ألا يا اسلمى يا نخلة بين جرعة   يجاورك الجان دونك والرمل

---

(١) ينظر شعر الفتوح الإسلامية : ٢٥٧ .
(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها   (٣) نفسه : ٢٥٨ .
(٤) شعر الفتوح الإسلامية ، ٢٥٦—٢٥٧ .

وقال آخر (١) :

ألا فاسلمى يا نخلة بين قادس وبين العذيب لا يجاورك النخل

وآخر يقول (١) :

ألا يا نخلة الجرعاء يا جرعة العدا سقتك الغوادى والغيوث الهواطل

والأعور بن قطبة قال (١) :

ألا يا نخلة الركبان لا زلت فانضرى ولا زال فى أكناف جرعائك النخل

وعوف بن مالك التيمى يقول (١) :

أيا نخلة دون العذيب بتلعة سقيت الغوادى المدجنات من النخل

شعر الحنين هذا ، لم نلمحه غرضاً مستقلاً فى القصيدة الجاهلية ، لأنها بطبيعتها كانت متعددة الأغراض ، ولأن الشاعر الجاهلى كان يلتزم بالافتتاحية الطللية ، فى غالب الأحيان . ونحن لا نستطيع أن نوافق الأستاذ القاضى حين يقرر ، أنه لا يعرف لهذا الشعر شبيهاً يقابله فى الشعر الجاهلى . فنحن استطعنا أن نستنبط ، أثناء تحليلنا لكثير من القصائد الجاهلية ، أن تلك القصائد كانت تزخر من حين لآخر بالحنين إلى الوطن ، تصريحاً أو تلميحاً ، لكنها على كل حال ، كانت تسير فى نمط معين ، يختلف عن هذه الشعلة المتوقدة فى شعر الحنين الإسلامى ، ومع ذلك فقد سبق أن لسنا شعلاً متوهجة من الحنين إلى الوطن فى الشعر الجاهلى ، نستطيع أن ندلك عليها بقصائد مرت ، وفى مطلع القصيدة التى سنعرض لها فيما بعد :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ففى هذه القصيدة حنين واضح وقوى ، وحزن شديد . ونحن نؤمن أن الحنين إلى الوطن ، متشرب بالدماء ، لا يستطيع الإنسان أن يتنصل منه ، حتى ولو أكره على ذلك .

---

(١) شعر الفتوح الإسلامية : ٢٥٦ — ٢٥٧ .

ومالك بن الريب التميمي ، يخرج غازياً في جيش سعيد بن عثمان بن عفان [illegible] وتوديه الأقدار إلى خراسان . وفي خراسان ، تدركه منيته ، ويكون في حالة تذكرنا بحالة امرىء القيس ، حين وافته منيته في غربته ، وكلاهما يشكو من الغربة والبعاد ، ويشعر بالشوق والحنين إلى دياره وأوطانه . مرض مالك ، أو لدغ ، وجعل ينفث أنفاسه الأخيرة ، ولا يتمنى شيئاً في تلك اللحظات الحرجة ، إلا أن يزور بلاده ، وينام فيها ليلة . ينفث أنفاسه وهو يتذكر أهله وعشيرته ، وينظر إلى نفسه غريباً وحيداً فيبكيها ، ويحن الى أولئك الذين كانوا يشفقون عليه ويبكونه . على حين أصبح اليوم يتلفت حواليه ، فلا يجد من يبكيه غير السيف ، والرمح الرديني ، وغير حصانه الخنذيذ ، الذي لم يعد يجد له من يجرر عنانه ليسقيه ، أنه غريب : لا يجد من يلجأ إليه ، فيحاول التأسي والنسيان ، ويلتمس السلوان عند نسائه بأطراف السمينة ، اللواتي يعز عليهن أن يكون غريباً . ووفاء منه لهؤلاء النسوة ، بل ولقومه جميعاً ، يبعث إليهم بردية ومئزره ، ويبعث سلاماً حاراً ، منبعثاً من قلبه . لابن عمه وخاله . ويعود كرة أخرى إلى النسوة ، فيخال أنهن لو رأينه لبكين عليه . إن الدموع لتندفع إلى العين ، حين تطالع الصورة الحزينة المكتئبة ، لأمه وابنتيها ، وخالته الباكية الأخرى — ولعلها زوجته — التي تهيج البواكي . وأنه يتلهف لرؤية سهيل ، الذي يلوح من وطنه ، والذي طال ما طالعه وهو في أحضان أحبابه وخلانه ، وبين قومه ، وعلى ثرى وطنه . قال[1] :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة … بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الدرب عرضه … وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا … مزار ، ولكن الغضا ليس دانيا

تذكرت من يبكي علي فلم أجد … سوى السيف والرمح الرديني باكيا

وأشقر خنذيذ يجر عنانه … إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا[2]

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي : ١٦٩ وما بعدها .

(٢) الخنذيذ : الجواد الكريم الأصل .

ولكن بأطراف السمينة نسوة عزيز عليهن العشية ما بيا
أقول لأصحابي : ارفعوني لأنني يقر بعيني أن سهيل بداليا
فيا راكبا أما عرضت فبلغن نداماى من نجران أن لا تلاقيا
وبلغ أخي عمران بردي ومئزري وبلغ عجوزى اليوم أن لا تدانيا
وسلم على شيخيّ منى كليهما وبلغ كثيراً وابن عمى وخاليا
وعطل قلوصى فى الركاب فإنها ستبرد أكباداً وتبكي بواكيا
أقلب طرفى فوق رحلى فلا أرى به من عيون المؤنسات مراعيا
وبالرمل منى نسوة لو شهدننى بكين وفدّين الطبيب المداويا
فمنهن أمى وابنتاها وخالتى وباكية أخرى تهيج البواكيا
وما كان عهد الرمل منى وأهله ذميا ، ولا بالرمل ودعت قاليا

أرأيت إذن ، ماذا يفعل الحنين والشوق ، فى النفس الإنسانية ، فى لحظة من أحرج لحظات الإنسان فى حياته ، ألا وهى لحظة الموت ! .

* * *

وبعد ، فهل لنا أن نقول ، بعد هذا الذى مرّ بنا ، أن الشاعر البدوى — على الرغم من بساطة الحياة التى كان يحياها ، فى الجاهلية ، أو الإسلام — كان مرتبطاً بدياره وأوطانه ، ارتباطاً وثيقاً ، ليس له منه فكاك . وأنه حن إلى هذه الديار والأوطان — إذا ما ابتعد عنها لأى سبب من الأسباب — حنيناً صادقاً ، ناتجاً عن عاطفة قوية ، وحب عظيم إليها ؟ ! .

أما نحن ، فهذا ما نراه .

الفصل الثاني

ب ــ الحنين إلى الوطن فى شعر الحضر

وكما كان البدوى شديد الحنين إلى وطنه ــ وهو كثير التنقل والترحال من مكان لآخر ــ فقد كان الحضرى . وهو الأولى بذلك ، فى حبه لوطنه ، وشوقه إليه ، وولهه الشديد فى العودة إلى ربه ــ إذا ما ابتعد عنه ، وذلك لأسباب عديدة لا تخفى ، منها : الإقامة الدائمة المستمرة فى هذا الوطن والذكريات الجميلة ، التى ما تنفك عن الإنسان فيه ، من المولد إلى الممات .

وقد وصلنا ــ من العصر الجاهلى ــ من شعر الحنين إلى الوطن ، ما يجد فيه هذا . فى القصيدة التالية ، نلمح حنيناً واضحاً قوياً ، وحزناً شديداً وذلك حينما يتحدث الشاعر عن وطنه مكة ، وقد أخرج منه إخراجاً ، فى وطنه . وقد كان يعيش فيها ، حياة كلها رخاء ورفاهية ، إلى أن بدله الدهر منه بالرحيل والبعاد . فسحت دموع عينه ، من شدة الشوق والحنين إلى ذلك الوطن العزيز ، وعلى ما أصابه من يد الدهر ، ونوائبه التى لا ترحم . قال عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض الأصغر [1] :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ [2]

ولم يتربعْ واسطاً فجنوبه إلى السرِّ من وادى الأراكة حاضر

بلى ، نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثرُ

وأبدلنا ربى بها دارَ غربةٍ بها الجوعُ بادٍ والعدوُّ المحاصرُ

---

(1) معجم البلدان ١٨٦/٥ . ومروج الذهب : ٥٠/٢ مع اختلاف فى الروايتين

(2) الحجون : جبل بأعلى مكة .

وكنا ولاةَ البيتِ من بعد نابتٍ ... نطوف بباب البيتِ والخيرُ ظاهرُ

فإن تنثنِ الدنيا علينا بحالِها ... فإن لها حالاً وفيها التشاجرُ

فأخرجنا منها المليكُ بقدرةٍ ... كذلك يا للناس تجري المقادرُ

أقول إذا نام الخليُّ ولم أنم ... إذا العرش لا يبعد سهيل وعامرُ

وبدلت منها أوجهاً لا أحبها ... قبائل منها حمير ويحابرُ

وصرنا أحاديثاً وكنا بغبطةٍ ... بذلك عضتنا السنونُ الغوابرُ

فساحت دموعُ العين تبكي لبلدةٍ ... بها حرم أمن وفيها المشاعرُ

أنها اللوعة الحقة، والحنين الصادق، على الأيام السالفة. يوم كان الشاعر وقومه سادة الموقف فى وطنهم، يأمرون ولا يؤمرون، يطاعون ولا يطيعون، يهابون ولا يهابون. واليوم يغلبه الحنين،، وتشده الذكرى فيزداد بكاء منها.

* * *

ويهاجر المسلمون — فى سبيل الله — إلى المدينة، وهم يعتنقون أجل عقيدة، وأعظم رسالة. ومع ذلك، فأن حب الوطن يسيطر على مشاعرهم وتبقى قلوبهم معلقة به.

فهذا بلال الحبشى يغلبه الحنين والشوق إلى مكة، فيتمنى لو قدر له أن يبيت فيها ليلة واحدة، وتمتلىء نفسه بمنظر نباتها الأذخر، ويشرب من مائها، ويبدو لعينيه مناظر جبالها. يقول[1]:

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلة ... بفجٍ وحولى اذخرٌ وجليلُ ؟!

وهل أردنْ يوماً مياه مجنَّةٍ ... وهل يبدون لي شامةٌ وطفيلُ ؟

(١) معجم البلدان: ١٨٢/٥.

وابن مكتوم ، يغلبه الحنين وهو آخذ بذمام ناقة رسول الله — ﷺ — وقت الهجرة ، فيذكر وطنه مكة ، وأهله فيه ، يذكر الأرض التي شب فيها ، ودرج يعرفها حق المعرفة ، ولا يحتاج إلى هاد أو دليل ، إذا ما أراد المشى فيها . قال[1] :

يا حبذا مكة من وادى   أرض بها أهلى وعوادى
أرض بها ترسخ أوتادى   أرض بها أمشى بلا هادى

ويحن أمية بن أبي عائذ — وهو فى مصر عند عبد العزيز بن مروان — إلى وطنه مكة ، وإلى أهله فيها . فينظم أبياتاً ، يصور شوقه ، ويتساءل أهله عن وقت رجوعه ويصور فى هذه الأبيات — أيضاً — الضمر التى « تبارى السرى » — على حد تعبيره — التى كثيراً ما أرادت الرواح ، فكأنها تشاركه الشوق والحنين إلى وطنها قال[2]

متى راكبٌ من أهل مصر وأهلُهُ   بمكة من مصر العشية راجعُ
بلى أنها قد تقطع الخرق ضُمَّرٌ   تبارى السُّرى والمسفون الزعازعُ[3]
متى ما تجزها يا بن مروان تعترف   بلاد سليمى وهى خرصاء ظالعُ[4]
وباتت تؤمُّ الدار من كل جانبٍ   لتخرج واستدت عليها المصارعُ
فلما رأت أن لا خروج وإنما   لها من هواها ما تجِنُّ الأضالعُ
تمطّتْ بجدولٍ سبَطْرٍ فطالعتْ   وماذا من اللوح اليمانى تطالعُ

فلا غرو بعد ذلك ، أن يقول له عبد العزيز بن مروان « اشتقت والله إلى أهلك

---

(١) معجم البلدان : ١٨٢/٥ .   (٢) الأغانى : ١٦٥/٢٢ .

(٣) الخرق : الأرض الواسعة . والزعازع : من جرى زعزع . أى شديد ، وزعزع الإبل : حثها . والمسفون : من عسف الرجل : سار بالليل خبط عشواء .

(٤) خرصاء مرتفعة . وأرض مخوصة التى بها خوص الأرطى والآلاء .

يا أمية ! فقال : نعم والله أيها الأمير . فوصله وأذن له ، على حد تعبير أبى الفرج الأصفهانى(١) .

وقيس لبنى(٢) شاعر عاشق . والعاشق دائم الحنين ، موصول الشوق ، يذكر حبيبته وديارها كل حين . فيتساءل فى قصيدة له : هل ستعود أيامه السالفات ، حين كان مع حبيبته لبنى بذى الطلح . يعيشان عيشة العاشقين ، داعياً إلى الدار التى بها حبيبته ، بأن يسقيها الحيا ، وأن يستمر فيها الخصب والنماء . قال(٣) :

أراجعةٌ يا لبنُ أيامنا الألى ... بذى الطلح(٤) أم لا ما لهنَّ رجوعُ

سقى طللَ الدارِ التى أنتم بها ... حيا ثم وبلٌ صيفٌ وربيعُ

وعند ابن مفرغ الحميرى(٥) ، تلمح صدق العاطفة ، وحرارة الشوق والحنين إلى الوطن حين يلمح البرق . ويتمنى الشاعر ، أن يحور ذلك البرق ناراً ، لأنه ذكره بمنازله ودياره ، وديار حبيبته التى أقفرت ، وهاجت ذكرياته ، فلم يملك دموعه . فبكى على الطلل القفر ، وقال لصاحبه : أن عرّج قليلا ، ليتذاكرا شوقهما ، ويعيدا إلى ذهنهما أيام اجتماع الشمل الذى تبدد ، حتى كاد الصب أن ينتحر انتحاراً . فقال له صاحبه : أن الحى قد سار وأنه لن يغنيهما شيئاً بقاؤهما فى هذه الدار ووقوفهما على هذه الأطلال ، فلم يسمع الشاعر منه ، لأنه صب ، لايستطيع إلى هذا الذى دعاه صديقه إليه . قال(٦) :

سما برقُ الجمانةِ فاستطارا(٧) ... لعلَّ البرقَ ذاكَ يحورُ نارا

قعدت لها العِشاء فهاجَ شوقى ... وذكرى المنازلَ والديارا

دياراً للجمانةِ مقفراتٍ ... بلينَ وهجنَ للقلبِ ادّكارا(٨)

---

(١) الأغانى : ١٦٥/٢٣ .
(٢) توفى فى زمن معاوية .
(٣) قيس ولبنى شعر ودراسة للدكتور حسين نصار : ١١٣ .
(٤) ذو الطلح : موضع
(٥) توفى عام ٦٩ هـ تقريباً .
(٦) شعر ابن مفرغ الحميرى : ٨٨ — ٩٠ .
(٧) سما برق الجمانة : ارتفع من ناحيتها . يحور : يرجع .
(٨) الادكار . التذكر .

فلم أملك دموعَ العينِ مني　　ولا النفسَ التي جاشتْ مرارا

فَسُرَّق فالقرى من صَهْرِ تاج　　فديرَ الراهبِ الطلل القفارا[١]

فقلتُ لصاحبي عرِّج قليلاً　　نذاكرْ شوقَنا الدُّرسَ البوارا[٢]

بآيةِ ما غدٍ وهمُ جميعٌ　　فكاد الصبُّ ينتحرُ انتحارا

فقال بَكوا الفقدكَ منذُ حينٍ　　زمانا ثم أن الحيَّ سارا

بدجلةَ فاستمر بهن سفينٌ　　تشقُّ صدورها اللجج الغمارا[٣]

كأن لم أغنَ في المرصاتِ منها　　ولم أذْعَرْ بقاعتها صُوَارا[٤]

ولم أسمع غناء من خليلٍ　　وصوتُ مُقرطقٍ خلَعَ العذارا[٥]

وفي سجن سجستان ، يتذكر ابن مفرغ دار سلمى وأطلالها . ويسألها على بعد المسافة ، كيف يستطيع أن ينام : وقد كبلته الأغلال ! فهو أسيرها . وأين منه السلام ، وهو ناء عنها ! فلترجع له التحية . ان كان في امكانها رجوعاً . وأين منه النجائب والجياد والغزلان ! وأين منه جنته والمطايا التي يسرها لارتحاله ! . لقد ذهب كل شيء . وهدم الدهر عروشهم . وأبلى وطنهم . وكل الدنيا وكل النعم ستنفد يوماً وتفنى .

---

(١) سرق . إحدى كور الأهواز ، وصهر تاج ودير الراهب . أماكن قريبة منها
(٢) درس الرسم . عفا . البوار . ما بار من الأرض .
(٣) اللجج الغمار : أعالي الموج .
(٤) أذعر : أخاف . القاع : أرض سهلة مطمئنة . الصوار : القطيع من البقر .
(٥) القرطق . لبس خلع . العذار : من خلع عذاره ورسنه . أي غدا على الناس بشر .

والموت مصير كل حي ، ولو كان الحي مليكا . أنها محاولة للتأسي ، ينطلق الشاعر بها ، وهو غريب سجين في بلده . قال(١) :

دارُ سلمى بالخبت ذى الأطلال ... كيف نومُ الأسيرِ فى الأغلالِ(٢)

أين منى السلامُ من بعدِ نأىٍ ... فأرجى لىَ تحيتى وسؤالى

أين منى نجائبى وجيادى ... وغزالى سقى الالهُ غزالى(٣)

أين لا أين جنتى وسلاحى ... ومطايا يسَّرْتُها لارتحالى(٤)

هدم الدهرُ عرشَنا فتداعى ... فبلينا إذ كلُّ شىءٍ بالى

إذ دعانا زواله فأجبنـــــا ... كلُّ دنيا ونعمةٍ لزوالِ

أم قضينا حاجاتنا فإلى المو ... تِ مصيرُ الملوكِ والأقيالِ(٥)

وفى إحدى قصائد عبيد الله بن قيس الرقيات(٦) ، نلمح الحب الصادق للوطن ، وألم الغربة الرهيب ، الذى سيطر عليه ، حتى راح يبعث همومه بلوعة وحزن . فسيطر ذكرياته ، حين كان بديار عامر ، حين كان يقف حول أبن شانشة قومه بأرضهم ، والملوك قد أفردوا الشاعر . حتى لعبت به صروف الأيام والليالى . فيسأل الطلول فى الماطرون وحوران عنهم . فلاتجيبه . فيبكى ويتذكر معشره ، حين كانوا ملوكا فى سالف الزمان . قال(٧) :

---

(١) شعر ابن مفرغ : ١٢٤ — ١٢٥ .

(٢) الخبت : موضع :

(٣) نجائبى : جمع نجيب ونجيبة ، الناقة الكريمة .

(٤) جنتى : كل ما وقاك ، والجنان والجنانة والجن والجنة : الترس .

(٥) الاقيال : جمع قيل ؛ وهو الملك ، أو من هو دون الملك الأعلى .

(٦) توفى عام ٧٥ هـ تقريباً .

(٧) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : ١١٣ — ١١٤ .

واغترابى عن عامرِ بن لؤىٍّ ... ببلادٍ كثيرةِ الأقتالِ [1]

كلَّ يومٍ ألقى ابن شانئةٍ ليس ... عن الشرِّ ما استطاع بآلى [2]

حولَه قومُهُ وقومى بأرض ... حَرَمٍ دونهم حنينُ الشمالِ

وملوكٌ فارقتهم أفردونى ... وصُروفُ الأيامِ بى والليالى

أقفلتْ منهم الفراديسُ فالغو ... طةُ ذاتُ القرى وذاتُ الظلالِ [3]

فضميرٌ فالماطرونَ فحورانُ ... فقفارٌ بسابسُ الأطلالِ [4]

لم تُجبنى منها الطلولُ ولم أملك ... دموعاً تسيلُ كالأوشالِ [5]

وتذكرتُ معشرى وهُمْ كانوا ... ملوكاً فى سالفِ الأحوالِ

وحين يجتاز الشاعر القناطر فى حوران مغترباً ، يسمع النسوة اللائى يخشين من تكليمه . وقد أخفين دموعهن البراقع ، وهن يهمسن فيما بينهن (شط بالحبيب المزار) . فهو يذكرهن حين استقلوا من فلسطين ، وغادروها مهاجرين عنها . قال[6] :

أن عهدى بهم غداةَ استقلوا ... من فلسطينَ والدموع غزارُ

واستحازَتْ على القناطرِ من حو ... ران عِينٌ نواعمٌ أبكارُ [7]

---

(١) الأقتال : الأعداء . (٢) شانئة : مبغضة ، وآلى : من والاء مقصر .

(٣) الفراديس : البساتين . والفراديس : موضع بالشام جمع فردوس . الغوطه : موضع .

(٤) ضمير والماطرون وحوران : كلها مواضع . بسابس : جمع بسبس وهو القفر .

(٥) الأوشال : مياه تسيل من أعراض الجبال .

(٦) الديوان : ١١١ .

(٧) العين : بقر الوحش ويعنى بها هنا النساء ذوات العيون الواسعة .

لم يكُن مَن خشيةَ العينِ ذا اللبُّ ... وغطَّى الدموعَ منها الخمارُ[1]

غير أنى سمعت حين انصرفنا ... قولَهم : شَطَّ بالحبيبِ المزارُ[2]

ولأبى قطيفة أشعار شاهدة بحنينه إلى وطنه ، وهو يقول[3] :

بكى «أُحدٌ» لما تحمَّل أهلُهُ ... «فسلعٌ» فدارُ المالِ أمستْ تصدَّعُ

وبالشامِ إخوانى وجلُّ عشيرتى ... فقد جعلت نفسى إليهم تطلَّعُ

ويقول — أيضاً — متمنياً عودة إلى الدار ، وإلى القصور المشيدة ، التى بها الآطام ، والتى يبلغها سلامه وتحياته ، بعد طول الفراق والبعاد . قال[4] :

ليتَ شعري وأين منى ليتٌ ... أعلى العهدِ يلبنٌ فبرامُ ؟

أم كعهدى العقيقُ أم غيَّرته ... بعدى الحادثاتُ والأيامُ ؟

وبأهلى بُدلتُ عَكّاً ولخماً ... وجذاماً وأين منى جذامُ[5]

وتبدلتُ من مساكن قومى ... والقصورِ التى بها الآطامُ

كلُّ قصرٍ مشيَّدٍ ذى أواسٍ ... يتغنى على ذراه الحمامُ

اقرَ منى السلامَ ان جئتَ قومى ... وقليلٌ لهم لدىَّ السلامُ

ويزيد الزهير بن بكار ، على هذه الأبيات ، أبياتاً أخرى ، تظهر اكتئاب هذا الشاعر الذى يقطع الليل بالزفير والأرق ، حنيناً إلى أهله ووطنه ، وخشية أن يصيبهم الدهر بمصائبه[6] :

---

(١) الخمار : النقاب الذى يغطى الوجه .
(٢) شط : بعد .
(٣) الأغانى : ١/٣٨ .
(٤) المصدر السابق : ١/٣٩ .
(٥) عك ولخم وجذام : أسماء قبائل عربية .
(٦) الأغانى : ١/٣٨ ومابعدها .

أقطعُ الليلَ كلَّه باكتئابٍ وزفيرٍ فما أكادُ أنامُ

نحو قومى إذ فرّقت بيننا الدارُ وحادت عن قصدِها الأحلامُ

خشية أن يصيبَهم عنتُ الدهرِ وحربٌ يشيبُ منها الغلامُ

ولقد حان أن يكونَ لهذا الدهر عنا تباعد وانصرام

وله — أيضاً — تساؤل عن الدار ، هل غيرتها نوب الأحداث ؟ وهل سيراها مرة أخرى ؟ لأنه فى غربته ، كلما لمح سحابة وبرقاً ؛ دعاه شوقه إلى الدار والأوطان .

قال[1] :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا
جبوبُ المصلَّى أم كعهدى القرائن[2]

وهل أدؤرٌ حول البلاطِ عوامرٌ من الحىِّ أم هل بالمدينةِ ساكن[3]

إذا برقت نحو الحجازِ سحابةٌ دعا الشوقَ منى برقُها المتيامنُ

فلم أتركْها رغبةً عن بلادِها ولكنه ما قدرَ اللهُ كائنُ

ويحن أبو قطيفة إلى بلاده ، وقد طرد عنها ، ونفى إلى الشام . وكان ابن الزبير هو الذى نفاه . فلم يخرج من دياره رغبة منه ، وإنما كان مرغماً على ذلك . لذلك فهو يحن إلى دياره ، وإلى أحبابه . قال[4] :

وما أخرجتنا رغبةٌ عن بلادِنا ولكنه ما قدَّرَ اللهُ كائنُ

أحنُّ إلى تلك الوجوهِ صبابةً كأنى أسيرٌ فى السلاسلِ راهنُ

---

(١) المصدر السابق : ١/٤١ .
(٢) جبوب المصلى : الحجارة والأرض الصلبة .
(٣) أدؤر : جمع دار . (٤) الأغانى ١/٤٢ .

ونصيب بن رباح(١) ؛ شاعر يمتاز شعره بالعذوبة والسلاسة ، والرقة ، ويمتاز بتمكنه من رسم الصور الفنية ؛ التي يريد رسمها ، حن إلى وطنه الذي ابتعد عنه ، وهو رقيق في حنينه . رقته في شعره .

أنه يطلب من رفيقيه أن يقفا ، لأنه استغرب لحال الدار ، إذ ليست كما عهدها في ليالي وصله مع ليلى ، حين كان أهل ليلى يقطنونها . لقد رحلوا عنها ، وباتت الدار لا تستبين لسائلها جواباً . ويظل صاحباه واقفين . ويظل دمعه يجرى على خديه ، تجود به جفونه . حتى إذا بدا له اليأس منها ، برحها . ولم يستطع الناس أن يلوموه فيها . لأنه إنما يحن إلى الوطن ، حنينه إلى حبيبته ليلى ، حين كانت ساكنة فيه . قال(٢) :

قفا أَخَوىَّ أن الدارَ ليستْ كما كانت بعهدِ كما تكونُ
ليالىَ تعلمانِ وآلُ ليلى قطينُ الدارِ فاحتمل القطينُ(٣)
فعوجا فانظرا أتبينُ عمّا سألناها به أم لا تبينُ(٤)
فظلاّ واقفينِ وظلَّ دمعى على خدَّى تجودُ به الجفونُ
فلولا إذ رأيت اليأسَ منها بدا أن كدتَ ترشقُك العيونُ(٥)
برحتَ فلم يلمكَ الناسُ فيها ولم تغلقْ كما غلِقَ الرهينُ(٦)

ويحن عبد الله بن الزبير ، هو وقلوصه . إذ هيجت القلوص طربه وصبابته . لقد نزح عن داره ، فتذكرها . وبعد عن أحبابه ، فعادت به الذكريات إليهم . وحنت ناقته لترجعه خلفه . لكنه صمم أن يسير أمامه . قال(٧) :

---

(١) توفى عام ١٠٨ هـ تقريباً . (٢) شعر نصيب : ١٣٥ .
(٣) القطين : سكان الدار . (٤) تبين : تفصح .
(٥) ترشقك العيون : تحد النظر إليك ، كأنها ترميك بالسهام .
(٦) لم تغلق كما غلق الرهين : لم تصبح ملكاً لها ، لعجزك عن فكاك نفسك .
(٧) الأغانى : ٢١٦/١٤ .

حنت قلوصى وهناً بعد هدأتها ... فهيّجت مغرماً صبّاً على الطربِ[1]

حنت إلى خيرِ من حُثّ المطى له ... كالبدر بين أبى سفيان والعتبِ

تذكرت بقرى البلقاء نائله ... لقد تذكرته من نازح عزبِ[2]

واللهِ ما كان بى لولا زيارتهُ ... وأن ألاقى أبا حسان من أربِ

حنت لترجعنى خلفى فقلت لها ... هذا أمامك فألقيه فتى العربِ

لا يحسب الشر جاراً لا يفارقه ... ولا يعاقب عند الحِلم بالغضبِ

والراعى النميرى[3] بالغربة ، حين يجاور عمراً ومالكاً . فيثنى عليهم ثناء عطراً ، لأنهم كرام ، يعفون عن بيت الغريب المجاور . قال[4] :

إذا انسلخ الشهرُ الحرامُ فودعى ... بلادَ تميمٍ وانظرى أرضَ عامرِ

واثنى على الحيّين عمروٍ ومالكٍ ... ثناءً يوافيهم بنجدٍ وغائرِ

كرامٌ إذا تلقاهم عن جناية ... أعفّاء عن بيتِ الغريب المجاورِ[5]

وعمر بن ربيعة[6] ، يبلغ به اليأس منتهاه ، وهو بعيد عن وطنه . حين يظن أنه لن يرى منازله — مرة أخرى — فلا دار أحبابه داره . ولا موطنهم موطنه . ولا يملك من حقوق ، ومن مقدرة ، على حكم القاسى ، إلا أن يرسل صرخته ، التى تمثل أبعد ما يصل إليه إنسان يحن إلى وطنه ، حنين عمر ! حين يقول : « لا يبعدنك الله يا سكن » . قال[7] :

---

(١) القلوص من الإبل ، الشابة ، والوهن : نحو من نصف الليل . والهدأة والهدوء : السكون .

(٢) البلقاء كورة من أعمال الشام . ونازح وعزب : بعيد .

(٣) توفى عام ٩٠ هـ تقريباً . (٤) شعر الراعى النميرى وأخباره : ٨٨ .

(٥) قوله ، عن جناية : أى بعد غربة وبعد .

(٦) توفى عام ١٠٥ هـ تقريباً . (٧) ديوان عمر بن أبى ربيعة : ٢١٩ .

هيهات من أمة الوهاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدنِ

وحل أهلك أجياداً فليس لنا الا التذكر ، أو حظ من الحزنِ

لا داركم دارنا ياوهب أن نزحت نوالك عنا ، ولا أوطانكم وطنى

ولست أملك إلا أن أقول إذا ذكرت : لا يبعدنك الله ياسكنى

والطرماح[١] يطرب ويشوقه البرق اليمانى . لان هذا البرق يلمع من نحو أحبابه ، الذين هم بعيدون عنه . وأنه لرقيق ، سرعان ما يتذكر أحزانه ، حين يعرف الثريا ، التى طال ما كان يراها فى ليال الحجاز ، هذه الثريا تحزنه ، لانها تذكره بوطنه ، وهو بعيد عنه ، غريب عن دياره . قال[٢] :

طربتَ وشاقك البرقُ اليمانى بفجّ الريح فجّ القافرانِ[٣]

أضوء البرق يلمع بين سلمى وبين الهضبِ من جبلى أبانِ

أضواء البرق بتَّ تشيمُ وهناً لقد دانيتَ ويحك غيرَ دانِ

ألم تر أن عرفانَ الثريا يهيّج لى بقزوينَ احزانى

والأحوص[٤] ، يكون فى عمان ، ويطرب إلى أهل سلع . ويعلم أن هذا التشوق ليس نافعاً له . أنه معنى طال ماردده الشعراء قبله ، ثم يخاطب صاحبه ، هل أحزنته الرياح المريضة ، والبرق ؟ فإن غريب الدار ، تشوقه البروق ، وأنه حين يتطلع إلى ديارهم ، لا يستطيع نظره أن يراها . فيمضى ، وقد أربى به اليأس . فانهلت مدامعه ، وفضحته نظرته . ثم يختم أبياته ؛ بتساؤله عن المرء ، كيف اشتياقه وصبابته وبكاؤه ؛ إلى من بعد عن الدار باختياره . قال[٥]

---

(١) توفى عام ١٠٥ هـ تقريباً . (٢) ديوان الطرماح بن حكيم : ١٠٧ .

(٣) الفج : المضرب البعيد وهو الطريق الواسع بين جبلين ، وفج القافران : موضع .

(٤) توفى عام ١٠٥ هـ تقريباً .

(٥) شعر الأحوص الانصارى : ١٤٥ — ١٤٦ .

أقولُ بعمَّانٍ وهل طربى به ... إلى أهلِ سلعٍ أن تشوقت نافعُ

أصاحِ ألم تحزنك ريحٌ مريضةٌ ... وبرقٌ تلألا بالعقيقين لامعُ (١)

فان الغريبَ الدار مما يشوقُه ... نسيمُ الرياحِ والبروقُ اللوامعُ

ومن دون ما أسمو بطرفى لأرضهم ... مفاوزُ مَنيرٌ من التيهِ [illegible]

نظرت على فوت وأوفى عشيةً ... بنا منظرٌ من حصنِ عمَّانَ يافعُ (٢)

وللعينِ أسرابٌ تفيضُ كأنما ... تعلُّ بكحلِ الصَّابِ منها المدامعُ (٣)

لا بصرَ احياء بخاخ تضمنت ... منازلَهم منها التلاعُ الدوافعُ (٤)

فابدت كثيراً نظرتى من صبابتى ... وأكثر منها ما تجنُّ الأضالعُ (٥)

وكيف اشتياقُ المرء يبكى صبابةً ... إلى من نأى عن دارِه وهو طائعُ

ويخاطب الأحوص موقد النار بالعلياء . لأن هذا المرقد قد هاج شوقه ، حين وقف عليه ، فانثالت عليه الذكريات ، وقد أضاءها سنا النيران ، ويلومه اللائم ، فيقول له ، أن يرتدع عن لومه ، لأن حب هذه الدار ، وذكرياته فيها قد تشربت فى دمه ، وشفت جسمه مما أطربه . وما تأمله إلا لأنه حزين . قد انتابه الشجن . ثم

---

(١) العقيقان : موضع . وريح مريضة : لينة الهبوب رقيقة .

(٢) الفوت : السبق . وأوفى ، أشرف وارتفع . ويافع : المرتفع المشرف .

(٣) اسراب : واحدها سرب ، الماء السائل المتتابع . تعل : الشرب تباعاً . يريد أنها تكتحل مرة بعد أخرى . الصاب : عصارة الحنظل شجر مر .

(٤) خاخ : موضع . والتلاع ؛ أرض غليظة مرتفعة . مفردها تلعة . والدوافع جمع دفعة . وهى التلعة من مسايل الماء . تدفع ماءها فى تلعة أخرى ، إذا جرى فى صبب وحدور ، فترى له مواضع قد انبسط فيها شيئاً واستدار .

(٥) أجن [illegible] : ستره وأخفاه

ينتهي إلى أن لياليه بهذه الدار، بخاخ ومدى سلم، لن تعود، وأن أيامه فيها قد ذهبت إلى غير رجعة قال(١):

يا موقد النارِ بالعلياء من اضمٍ(٢) ... أوقدْ فقد هجتَ شوقاً غيرَ منصرِمِ

يا مُوقدَ النارِ أوقدها فإنَّ لها ... سناً يهيجُ فؤادَ العاشقِ السَّدمِ(٣)

نارٌ أضاء سناها إذ تُشَبُّ لنا ... سعديةٌ دأبُها يشفي من السَّقمِ

ولائمٍ لا مني فيها فقلتُ له ... قد شفَّ جسمي الذي ألقى بها ودمي

فما طربتُ لشجوٍ كنت تأمله ... ولا تأملتَ تلك الدارِ من أمَمِ

ليست لياليك في خاخٍ بعائدةٍ ... كما عهدتَ ولا أيامُ ذي سَلَمِ

وسعيد بن عبد الرحمن، يرى الحمام، ويسمع ترنمه، فيهتاج طرباً وشوقاً إلى الحجاز، لأن حبيبته هناك، وأنه ليذكر أنها خرجت تودعه، وقد غسل دمعها كحلها. وكم تمنت أن يقيم بجوارها، وتساءلت طويلا. كيف يطيق الحبيب فراقاً عن وطنه!. إن الحمام ليهيج له طرباً، وكذلك البرق، لأنه تجشم كل هذا العناء من أجل حبيبته، قال(٤):

علويةٌ أمست ودونَ وصالِها ... مضمارُ مصرَ، وعابدٌ والقلزمُ(٥)

خَوْدٌ تُطيفُ بها نواعمُ كالدُّمى ... مما اصطفى ذو النِّيقةِ المتوسمُ(٦)

حُلّينَ مَرجانَ البُحورِ وجوهراً ... كالجمرِ فيه على النحورِ ينظَّمُ

---

(١) شعر الأحوص: ٢٠١.

(٢) أضم: واد بجبال تهامة.

(٣) السدم شديد العشق.

(٤) الأغاني ٢٧٢/٨، — ٢٧٣.

(٥) عابد جبل بمصر، والقلزم: بلدة شرقي مصر قرب جبل الطور.

(٦) النيقة إسم التنوق، أي التخير.

قالت وماء العين يغسل كحلها عند الفراق بمستهل يسجم
ياليت انك يا سعيد بارضنا تلقى المراسى ثاويا وتخيم
فنصيب لذة عيشنا ورخاءه فنكون اجواراً فماذا تنقم
لا ترجعن إلى الحجاز فانه بلد به عيش الكريم مذمم
وهلم جاورنا، فقلت لها اقصرى عيش بطيبة ويح غيرك أنعم
أيفارق الوطن الحبيب لمنزل ناء ويشرى بالحديث الأقدم
أن الحمام إلى الحجاز يهيج لى طربا ترنمه إذا يترنم
والبرق حين اشيمه متيامنا وجنائب الأرواح حين تنسم
لو لج ذو قسم على ان لم يكن فى الناس مشبهها لبر المقسم
من اجلها ترك القرار وخفضه وتسجشمى ما لم أكن أتجشم
ولقد كتمت غداة بانت سابية فى الصدر لم يعلم بها متكلم

لا نظن أننا واجدون شعراً، بمثل هذه الروعة. وبمثل هذا الشمول، يصور حياة الغربة، من أجل حياة أفضل.

ويحن الفرزدق[1] إلى أهله ووطنه، حينما كان يبيت مع صحب له، بدير حسان فيتوهم أن ناقته تبكى حنيناً إلى الوطن. ويهيجه حنينها، فيذكر دياره وأهله فيحن حنيناً صادقاً، حتى يضنيه السهر، ، فتنهل دموعه. ولديه من دواعى الحنين، ما يتوف على دواعى حنين ناقته. قال[2].

وليلة بتنا دير حسان نبهت هجوداً وعيسا كالحنيات ضمرا[3]

---

(١) توفى عام ١١٠ هـ تقريباً.
(٢) ديوان الفرزدق: ١/٢٤٥.
(٣) الحنيات: القسى.

بكت لناقتي ليلا فهاج بكاؤها فؤاداً إلى أهل الوريعة أصورا[1]

وحنت حنيناً منكراً هيجت به على ذي هوى من شوقه ما تنكرا

فبتنا قعوداً بين ملتزم الهوى وناهى جمان العين أن يتحدرا[2]

تروم على نعمان في الفجر ناقتي

وان هي حنت كنتُ بالشوق اعذرا[3]

إنه حنين صادق مؤثر . ومثله تلك الصورة الجميلة التي نحسها بأعماق عواطفنا ، حينما يلوي ابن أبي الرقراق ، عينيه إلى دياره ، رجاء أن يرى سهيلا ، ذلك النجم الذي يطالع أهله — أيضاً — والذي كان الفرزدق وصحبه ، يستأنسون به ، ويشغلهم الحنين عن أنفسهم ، حتى تلهبهم الحمامة ، فتهيج تذكرهم . قال[4]:

لوى ابن ابي الرقراق عينيه بعدما دنا من اعالي ايلياء وغورا[5]

رجا أن يرى ما اهله يبصرونه سهيلا ، فقد واراه اجبال اعفرا[6]

فكنا نرى النجمَ اليمانيَّ عندنا سهيلا فحالت دونه ارضُ حميرا

وكنا به مستأنسين كأنه اخ او خليط عن خليطٍ تغيرا[7]

بكى ان تغنت فوق ساق حمامة شامية هاجت له فتذكرا

ولا يخطىء الملاحظ ، من يرى حنين الفرزدق إلى وطنه ، تلك الرابطة القوية بين حنينه وحنين ناقته . فكأن الشاعر يريد أن يثبت لنا عن طريق المقارنة ، أن حنينه

---

(١) الوديعة : موضع . وأصور : أميل .

(٢) أراد بجمان العين : دمعها . (٣) تروم : تطوف . تحن إلى وطنها .

(٤) ديوان الفرزدق ١ /١٩٦ — ١٩٧ .

(٥) أيلياء : بيت المقدس . غوّر : نزل الغور . (٦) أعفر : موضع

(٧) الخليط المخالط في الجوار والمرعى .

قوى عنيف ، حتى أنه ليبلغ فى شدته مبلغاً لايصله حنين النوق . وياليت حنين ناقته كان مرتبطاً بالمنازل ، التى يحن هو إليها . وانظر إلى الصورة الرائعة ، وشدة الشوق فيها فى قوله : « حنين عجول تبتغى البوّ رائم » ، والبو : جلد الحيوان يحشى بالتبن أو القش . وهم يفعلون هذا حين يموت فصيل الدابة ، ليقربوه منها ، فتشم رائحته ، فيدر لبنها . قال(١) :

تحنُّ بزوراءِ المدينةِ ناقتى ... حنينَ عجولٍ تبتغي البوَّ رائمِ (٢)

ويا ليت زوراءَ المدينةِ أصبحتْ ... بأجفارِ فلجٍ أو بسيفِ الكواظمِ (٣)

وجرير(٤) يغترب ، وكأن الحزن يتجسد فى غربته ، فهو فيها لايزار ولا يزور ، ويكفيه حزناً ، ذلك الفراق بينه وبين أهله ، وأحبابه ووطنه قال(٥) :

كأنى بالمديبرِ بين زكّا ... وبين قرى أبى صُفرى أسيرُ (٦)

كفى حزناً فراقهم وإنى ... غريبٌ لا أزارُ ولا أزورُ

وتحن قلوصه بعد هدأتها ، ويهيجها البرق، فيطلب منها أن يكون حنينها ، رويداً رويداً ، لأنه هو — أيضاً — يحن وينزع إلى أهل نجد ، قال(٧) :

تحن قلوصى بعد هدءٍ وَهاجها ... وميضٌ عَلَى ذاتِ السلاسلِ لامعُ

فقلت لها حنّى رويدًا فإننى ... إلى أهل نجدٍ من تهامةَ نازعُ

---

(١) الديوان : ٣٠٧/٢ .

(٢) العجول . الثكلى .

(٣) الزوراء : موضع عند سوق المدينة عند المسجد . وأجفار فلج وسيف الكواظم: موضعان .

(٤) توفى عام ١١٤ هـ تقريباً .

(٥) ديوان جرير ١٧٨ .

(٦) المديبر وزكا وقرى أبى صفرى : مواضع .

(٧) الديوان : ٢٩٠

ويذكر الشاعر فى هدأة الليل نرى النواظر والخزامى ، فيكاد قلبه أن ينصدع ، أنه موقف يزيده مرارة ، وأن اللوام ليلومونه على الصبابة والحنين ، وعلى تذكره لظعن أحبابه . قال(١)

ذكرتُ نرى نواظرَ والخُزامى فكاد القلبُ ينصدعُ انصداعا

ألامُ عَلَى الصبابةِ والمهارى تحنُّ إذا تذكرتِ النزاعا(٢)

رأينَ تنيرى فذعِرْنَ منه كذعرِ الفارسِ البقرَ الرتاعا

كأن الرحْلَ فوق قرا جفولٍ أقامَ الماتحانِ له الشراعا(٣)

ويحبذ جرير جبل الريان . ويحبذ ساكنه ، أيا كان ، ويحبذ النفحات اليمانية ، التى تأتيه من هذا الجبل . تهب شمالا ، فتذكره بالحب . وتدفعه إلى تمنى عودة أيامه فى هذا الجبل ، « عيش به طالما أحلولى وما لانا » قال(٤) :

يا حبذا جبلُ الريانِ من جبلٍ وحبذا ساكنُ الريانِ من كانا

وحبذا نفحاتٌ من يمانيةٍ تأتيك من قِبَلِ الريانِ أحيانا

هبت شمالا فذكرى ما ذكرتُكمُ عند الصفاة التى شرقى حورانا

هل يرجعن — وليس الدهر مرتجعاً — عيش به طالما أحلولى وما لانا

وذو الرمة(٥) ، تحن ناقته إلى أبله بالزرق ، أوطان أهلها ، فيحس بحنينها لأنه يحن مثلها قال(٦) :

---

(١) الديوان : ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢) النزاع ، الواحد ، نزيع : البئر القريبة القعر . والنزيع : الذى يحن إلى وطنه

(٣) قرا : ظهر . وجفول : أراد السفينة المسرعة . الماتحان : الذى يمد الشراع ويرفعه ، وأحدها ماتح .

(٤) الديوان : ٤٩٣ .

(٥) توفى عام ١١٧ هـ تقريباً

(٦) ديوان ذى الرمة : ٧٠٩ .

تحن إلى الدهنا بخفان ناقتى وأين الهوى من صوتها المترنم [١]

إلى إبل بالزرق أوطانُ أهلها يحلُّون منها كلَّ علياء معلم [٢]

والعرجى[٣] من شعراء الرقة والهوى، شأنه فى ذلك، شأن الأحوص، ونصيب أنه يضفى بما يملك من فن و قدرة، ورقيق عواطف وأحاسيس، على شعره، مسحاً من المشاعر التى يحسها دارس ديوانه.

وهو حين يذكر الديار، يحاول أن يخضعها لرقيق الأحاسيس، ورقيق العواطف، وأنه ليقرر، بإحساسه الأصيل للأشياء، ووعيه الكامل للحنين إلى الوطن، أن «ما يهيج ذا الهوى إلا الوطن». فهو يحس بهذه الرابطة الوثيقة، بين الإنسان ووطنه. يهيج قلبه بعد سكونه، يهيج لأنه لمح البرق يلح لائحاً من بلاد اليمن، فيعتريه الشوق إلى تلك الديار، لأنها أوطان ليلى، وهل كالأوطان مايثير الهوى والشجن؟! ويلحوه رفيقه حين يبكى، فيطلب من اللاحى أن يكف عنه، لأنه معنى غريب، يبكى حين يذكر أحبابه ودياره، آنذاك، يقتنع صاحبه فيكف، وكان العرجى قد ذكره بما كان نسى. قال[٤]:

هاج قلبى بعد ما كان سكنْ لبريقٍ لاح من نحو اليمنْ

فاعترانى الشوقُ لما خِلْتُهُ موهناً، قد لجّ وهناً والحزنْ [٥]

فالحمى منه حمى العرج إلى أظرُبِ الأحسا إلى القصرِ قمِنْ [٦]

تلك أوطانٌ لِلَيْلى ولنا ما يهيجُ ذا الهوى إلا الوطنْ

---

(١) الدهناء وخفان: موضعان. (٢) الزرق: أكثبة بالدهناء.

(٣) توفى عام ١٢٠ هـ تقريباً. (٤) ديوان العرجى: ٣٨ — ٣٩.

(٥) خلت البرق وتخيلته: توسمته. موهنا: متعلق بخلته، ووهنا متعلق بلج، وكلاهما ظرف زمان يدل على نحو منتصف الليل.

(٦) العرج: الوادى الذى ينسب إليه الشاعر. والأظرب: الروابى الصغيرة، والأحساء والقصر: موضعان. قمن: جدير.

بات يلحانى رفيق أن رأى — سَنَنَ الدمـــع وللدمع سَنَن[1]

قلت : يا صاحِ إذا مالم تُعِن — فدع اللوم هوى ليلى — فمن

يعتريهِ من مُحِبٍّ شـــوقُهُ — نازحُ الدارِ غريبٌ ذا شَجَن

فارعوى عن ذاك إذ فطنته — للذى نلقى ، وما كان فطن

وهذا الحنين يلازم العرجى فى قصائد كثيرة له ، بل وحتى فى واقع حياته . فهو يأرق ، لأنه مشوق . ويشيم سنا البرق من بعيد ، عسى أن تصدقه البروق فما يذوق النوم ، بانتظار جوابها ، وقد اعترته صبابة وشوق إلى أوطانه ، حتى يفقد الشعور عما حوله ، فينبه أصحابه ببكائه ،وأما ناله من الوجد ، فينتبهوا إليه ، ويعذله أحدهم. فيعذره العرجى لعذله ، لأن ذلك اللاحى ، لم يذق الهوى ، ولم يجرب الحنين . قال[2]:

أرقت بسلع[3] أن ذا الشوق يأرق — لبرق تبدَّى آخر الليل يخفق

أشيم سناه من بعيد وربمـــا — تشأم البروق من بعيد فتصدق[4]

فما ذقت من نوم ، وما زال عاملا — إلى الصبح ذاك البارق المتألق[5]

له تعترى المرء الغريب صبابة — وشوق إلى أوطانه حين يبرق

فنبهت لما شفنى الوجد والبكا — أخا للذى قد غالنى وهو مطرق

عزوفا عن الأهواء لم يحى ليلة — لشوق ولم يرفع إلى الجنب مرفق[6]

---

(١) يلحانى : يلومنى . وسنن الدمع : مساربه وطرقه .

(٢) الديوان : ٢٠ — ٢١ . (٣) سلع : جبل بالمدينة .

(٤) أشيم سناه : انظر نوره أين يتجه . (٥) عمل البرق : استمر خطفه .

(٦) العزوف : المنصرف . ويقال : رفع مرفق البعير إلى جنبه إذا عقل ، وانفتل مرفقه إذا أطلق من عقاله . يريد أن صاحبه هذا لم يقيده الهوى .

وبعد ، فمن الواضح الجلى ، أن لشعراء الحاضرة ، حنيناً طاغياً إلى أوطانهم ، وشوقاً شديداً إليها ، وقت البعاد والفراق ، نقلوه إلينا فى صور جميلة ، وعواطف رقيقة ، فى أشعارهم التى وصلتنا ، وتناولناها بالبحث والدرس . ولكن هناك مايلفت النظر ، فى دراستنا لشعر الحضر ، فى الحنين إلى الوطن ، ذلك هو قلة هذا الشعر فى هذا الباب ، إذا ماقيس هذا بشعر البدو ، فى الباب ذاته ، وفى الحقبة ذاتها . وسبب ذلك — فيما نرى — هو أن الحضرى أقل ابتعاداً عن وطنه فى عامة أحواله وحياته ، من البدوى ، الذى يقيت حياته على التنقل وعدم الاستقرار . حتى لكأن الإقامة طارئة على البدوى ، والترحال هو الأصل فى حياته . ومن هنا قل أن نجد شاعراً حضرياً جاهلياً ، قال شعراً فى الحنين إلى الوطن . كذلك ، فإن معظم الشعراء فى العصر الإسلامى ، كانت تغلب عليهم سمة البداوة على الرغم من عيشهم فى الحاضرة ، أو اتصالهم بها . يضاف إلى ذلك ، أننا لم نتطرق إلى أى لون من ألوان التقليد الشعرى ، الذى يظهر فيه الحنين إلى الوطن . من آن لآخر ، كشعر الأطلال عند شعراء الحاضرة .

الفصل الثالث

الحنين الى الوطن فى شعر المرأة

تمتاز المرأة برقة الإحساس ، ورهافة الشعور ، وشدة العاطفة . وقد انعكست هذه العواطف والانفعالات ، على سلوكها اليومى ، وإنتاجها الفكرى . ولما كان الشعر ، هو المترجم الحقيقى لما فى نفس قائلة من عواطف وانفعالات ، فقد جاء شعر المرأة رقيقاً سهلا ، يحمل جوانب كثيرة مما تتركب منه طبيعتها . فهى ضعيفة إذا ما قيست بالرجل ، كثيرة البكاء ، شديدة الحزن إذا ما فجعت بفقد حبيب أو قريب ، حريصة كل الحرص ، على البقاء عند أهلها ، وبالقرب منهم ، نافرة ، رافضة للبعد عنهم ، قاصرة عن القيام بسبل القتال والغزو ، مبتعدة عن الفحش والهجاء والسباب لأسباب ذاتية ، أهمها : الحياء والحشمة والعفة .

والمرأة تحمل هذا كله ، مختارة تارة ، مجبرة أخرى . وربما كانت هذه العوامل ، هى التى أدت إلى أن يسير شعر المرأة ، فى لون واحـــد تقريباً وهو الرثاء والحزن والبكاء(1) . وكانت هى السبب — أيضاً — فى أن يكون هناك تشابه كبير بين أشعار كثير من النساء ، لدرجة أن المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد قال : « فمن الجائز أن تجمع شعر النساء كله فى ديوان واحد ، وتخلط بعضه ببعض ، ولا يرى فيه القارىء ما يمنعه أن يقول : أنه ديوان شاعرة واحدة . فهى « أنوثة » واحدة ، تكاد أن تلبس بشخصية واحدة وتعبر عن سليقة واحدة (1) » .

وقال فى مكان آخر : « فى رثاء المرأة ، « أنثى » واحدة تسمع منها عولة الجنس الأنثوى على وتيرة متشابهة . وتستطيع بغـــير جهد أن تخلط بين عشرين قصيدة ، لعشرين شاعرة ، فلا ترى بينها ، ما يضطرك إلى استغراب هذا الخلط بين عباراتها ومعانيها . ولكنك تشعر بهذه الغرابة ، إذا خلطت بين قصائد ثلاث ، فى موضوع

---

(1) بين الكتب والناس للعقاد : ٧٤

واحد من موضوعات الرثاء ، التى ينظمها شعراء الرجال [1] . وربما كانت هذه العوامل ، هى السبب فى قلة شعر النساء ، أو فى قلة ما وصلنا من شعرهن — على أقل تقدير . إذ أن الرواة ، اهتموا بحفظ الشعر الذى كثر فيه الغريب ، أو الذى فيه المدح والفخر بالقبيلة ، والذم والهجاء لخصومها أوما يتصل بالحروب والغارات ، والحماسة عامة ، أو بما فيه الفحولة والجزالة . وشعر النساء خلو من هذه المميزات ، التى امتلأت بها قصائد كتب المختارات الأولى من الشعر ، كالمعلقات التى اختارها حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ ه ، وجمهرة أشعار العرب للقرشى المتوفى عام ١٧٠ ه ، والمفضليات للمفضل الضبى المتوفى عام ١٧٨ ه ، والأصمعيات للأصمعى المتوفى سنة ٢١٦ ه . إذ جاءت هذه الكتب خالية من شعر النساء إلا فيما ندر [2] .

ولئن كان الرجل يحن إلى وطنه ، وعشيرته وأهله ، فيقف على ديارهم وأطلالهم ، يبكى ويستبكى ، بصدق حيناً ، وتكلف حيناً آخر ، فإن المرأة أعنف شعوراً بالحنين إلى الوطن ، رغم أنها لم تقف على الأطلال ، المرأة — فى رأينا — أرق عاطفة ، وأرهف احساساً من الرجل لذلك كان حنينها إلى وطنها وأهلها حنيناً مليئاً باللوعة والأسى ، وذلك بفعل عوامل كثيرة ، مردها الأول والأخير ، رهافة حسها ، ورقة عاطفتها .

ففى جميع النصوص التى بين أيدينا ، نلحظ أن المرأة تحن إلى الواطن ، مفضلة إياه على الزوج وعلى الديار التى تسكنها معه . ونلحظ خلو شعر النساء — الذى وصلنا — خلواً تاماً ، من ظاهرة سبق أن توضحت لنا فى شعر الرجل ، سواء فى الجاهلية ، أم فى الإسلام ، أم فيما تلاهما من عصور ، ألا وهى ظاهرة ذم الأوطان ، والدعوة إلى الاغتراب . وذلك مما يوضح لنا أن المرأة أشد من الرجل فى عمق اتصالها بوطنها وإحساسها التياع بالغربة ، فى حين يدعو الرجل من آن لآخر إلى الغربة عن الوطن وهجره . ولعل مرد موقف المرأة هذا ، يعود بالدرجة الأولى ، إلى قوة الرابطة التى تشدها بوالديها ، وعائلتها ، وعشيرتها . ففى الوقت الذى تعود فيه البدوى الهجرة عن وطنه ، سعياً وراء العشب ، أو التجارة ، أو الحروب ، أو التروح ، كانت المرأة أقل منه مشاركة فى هذه الحياة العامة . فلا غرو بعدئذ أن يعنف حنينها ، وتعمق عواطفها ، وترتبط ارتباطاً قوياً بوطنها .

---

(١) المصدر السابق (٢) ينظر ما كتبه الدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه «المرأة فى الشعر الجاهلى» ص ٦٠٦ .

ولقد أشار الدكتور أحمد محمد الحوفى إلى الحنين إلى الوطن عند المرأة ، وأشار إلى قوته وعنفه . لكنه عند عاطفتها وعاطفة الرجل سواء فى هذا الحنين(١) .

وبينما نرى أن الرجل — بعد ظهور الإسلام — قد انشغل نوعاً ما بالفتوحات ، وبتعاليم الدين الجديد ، نرى أن النساء ، مع مساهمة قسم منهن فى الحياة العامة ، إلا أنهن ، فى الغالب ، لم يتغيرن تغيراً كبيراً . إذ بقيت عواطفهن هى هى . كما أن الإسلام قد عمل على توكيد هذه العواطف . فظلت المرأة هى هى ، من حيث ارتباطها بعائلتها ، أبيها وأمها وأخوتها ، والوطن الذى يعيشون فيه ، والذى كانت تعيش معهم فيه . كما ظلت المرأة هى هى ، من حيث رقة عواطفها ، وعمق شعورها ، وارتباطها بطفولتها وبقاعتها لذلك ، كان من العسير عليها ، إن لم يكن من المستحيل ، أن تنسجم مع الحياة الجديدة ، التى تختلف اختلافاً كلياً عن حياة البادية ، ذلك حين ينتقل بها زوجها إلى القرى والأرياف والحواضر . فيشتد وجيب قلبها ، ويشتعل حنينها ، كلما سمعت هديل الحمام ، أو مرت عليها نسمات الريح ، أو كلما لاح لناظريها البرق المتلألىء فى السماء من ديارها .

ونظراً لعدم تغير المرأة ، واستمرار عواطفها على الوتيرة ذاتها من جهة ، وعدم تمكننا من فرز الشواعر حسب التسلسل الزمنى — رغم الجهد الكبير الذى بذلناه فى هذا المجال — من جهة أخرى ، فإننا آثرنا أن نجعل موضوع المرأة دون تمييز بين الجاهليات والإسلاميات ، لعدم تصريح المصادر التى بين أيدينا بالزمن الذى عاشت فيه هؤلاء الشواعر . كما أننا لن نبحث شعر المرأة على الأساس الذى سبق أن بحثناه فى شعر الرجال ، بأن نقسمه إلى شعر البادية ، وشعر الحاضرة ، وذلك لأن معظم الشعر الذى بين أيدينا ، من شعر نساء البادية ، وقليل جداً ذلك الشعر الذى فيه حنين إلى الوطن عند شواعر الحاضرة .

والآن نحلل جمهرة من القصائد ، التى وقعت بين أيدينا ، مما يدلك على صحة الآراء التى أثبتناها فى مطلع هذا الفصل .

هذه رامة بنت حصين الأسدية ، يلومها الحضر إذ تساكنهم على حنينها المتكاثر إلى نجد . فتعجب أن تلام على حنينها . وترى كل شىء تساكنه يذكرها بنجد ويزيد

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى : ٦٥٠ .

حنينها إليه ، فترى ريح الجنوب تذكرها به وهي تحمل إليها الرائحة من هناك ، وترى البرق يهيجها حين يلمع ، كأنه يلمع من نواحي نجد ، ثم يأخذها الحنين فتذكر أخص ما يهيجها من نجد ، تتذكر الخو ، وتذكره وهو مربع ، مثمر الشجر ، وتتذكر صوت المكاكي وهو تردد صدى صوته بعد منتصف الليل ، وسمعه الأرق السهران. فانظر إلى ذكرها الأرق والسهر بعد منتصف الليل ، فهو دليل على ماتعانيه من تلك الحالة التي تعيشها ، تقول(١) :

ألامُ عَلَى نجد ومن يكُ ذا هوًى ... يهيِّجه للشوق شيء يرابعه

تُهيِّجهُ الجنوبُ حين تغدو بنشرها ... يمانيةً والبرق إن لاح لامِعُه

ومن لامني في حب نجد وأهله ... فليم عَلَى مثلي وأُوْعِبَ جادِعُه(٢)

لعمركَ للغمران غمراً مقلَّدٍ ... فذو نَجَبٍ غُلَّانُه فدوافعه(٣)

وخوٌّ إذا خوٌّ سقته ذهابه ... وأمرعَ منه تينه ورباعه(٤)

وصوتُ مكاكيٍّ تجاوبَ موهِناً ... من الليلِ من يأرق له فهو سامعه(٥)

أحبُّ إلينا من فراريجَ قريةٍ ... تزاقى ومن حي تَنِقُّ ضفادعه

وماجدة البكرية ، تخاطب جبال الغور ، وتطلب منها أن تخلى بينها وبين الصبا ، لأنها طالما حالت ذراها بينها وبين ذرى نجد تلك البلاد التي فيها وطنها ، وأهلها وعشيرتها ، تقول(٦) :

---

(١) معجم البلدان : ٢١١/٤ .

(٢) أوعب جادعه : قطع لسانه ، وفي الشتم يقال : جدعه الله جدعاً موعباً .

(٣) الغمران : تثنية الغمر ، وهو الماء الكثير المغدق ، وهو اسم موضع في بلاد بني أسد .

(٤) خو : موضع . (٥) المكاكي : طائر صغير يزقو في الرياض .

(٦) معجم البلدان : ٤١٧/٢ .

ألا يا جبالَ الغور خلِّينَ بيننا ... وبين الصبا يجرى علينا شنينها[١]

لقد طال ما جالت ذرا كنَّ بيننا ... وبين ذرى نجدٍ فما نستبينها[٢]

وترد رامة بنت الحصين الحضر ، فلا تستطيع أن تنسجم معه ، لذلك نجدها تتمنى أن تعود إلى الريف ، وإلى القرى التى ليست بها دور ، وهى تأسى لأنها تبدلت من نجد وساكنة أرضاً بها يزقو الديك وتموء السنانير ، وهذا شىء غريب عليها . تقول[٣] :

ياليت شعرى وليت أصبحت غصصا ... هل أهبطَنَّ قريةً ليست بها دورُ

لقد تبدلت من نجدٍ وساكِنِهِ ... أرضاً بها الديك يزقو والسنانيرُ

وزينب الصيبية تتزوج فيحملها من البادية إلى الحضر ، وتسأل يوماً : أليس هذا الحضر أطيب مما كنت فيه فى البادية ؟ فتنكر ذلك ، وتفضل مظاهر البداوة الخشنة ، ورياح نجد على حياة الحضر وملاعبه . وتقسم أنها مهما طال بها المدى فلن تنسى أبداً ديارها فى البادية ، وذكرياتها فى نجد . وانظر إلى الصورة الفنية الرائعة فى البيت الأول . تقول[٤] :

أقول لأدنى صـــاحبىَّ أسِرُّهُ ... وللعين دمعٌ يحدرُ الكحلَ ساكبه

لعمرِى لنهى باللِّوى نازح القذى ... نقىُّ النواحى غيرُ طرقٍ مشاربه[٥]

أحبُّ إلينا من صهاريج مُلِّئَتْ ... للعبِ ولم تملُح لدىَّ ملاعبه[٦]

---

(١) الشنين : هنا المصبوب .

(٢) جالت ، كذا فى معجم البلدان ، وأظنها « حالت » .

(٣) شاعرات العرب : ١٢٧ .

(٤) رسائل الجاحظ : ٢/٢٩٨ — ٢٩٩ . ومحاضرات الأدباء : ٤/٦٢١ — ٦٢٢ .

(٥) الطرق ، بالفتح : المطروق الذى تبول فيه الإبل وتبعر .

(٦) الصهاريج : كالحياض يجتمع فيها الماء .

وريحُ صبا نجدٍ إذا ما تنسمت ضحىً أو سرت جُنحُ الظلام جنائبه[1]

فيا حبذا نجدٌ وطيبُ ترابه إذا هضبته بالعشيّ هواضبُه[2]

وأقسم لا أنساه ما دمت حية وما دام ليلٌ من نهارٍ يعاقبُه

ولا زال هذا القلبُ يسفر لوعة بذكراه حتى يترك الماء شاربه

وتسائل امرأة من بنى الصادر، رفقة من دير بصرى، عن الصادرى، وتحملهم التحيات إليه. وتتساءل هل يمن الدهر عليها يوماً برؤيته، وهل تتيح لها الأيام أن ترد ماء وقيعة؟ فانظرها وهى تصور حال الصادرى — وكأنه أبوها أو أخوها، أو حبيب لها — وهو مكبل من حبها، وانظرها وهى تتمنى أن ترى جانب الحمى وهو ملىء بالخصب والنماء. ثم هى تتمنى أن ترد ماء وقيعة — ماء فى ديارها — أنها العاطفة الصادقة، التى تذكيها نار الشوق والحنين. تقول[3]:

أيا رفقة من دير بُصرى تحملت تؤمُّ الحمى لقيتِ من رفقةٍ رشدا[4]

إذا ما بلغتم سالمين فبلّغوا تحيةَ من قد ظنّ أن لا يرى نجدا

وقالوا تركنا الصادرىَّ مكبلا بكبل الهوى من حبكم مضمراً وجدا

فياليت شعرى هل أرى جانب الحمى وقد أنبتت أجراعه نفلا جعدا[5]

وهل أردنّ الدهرَ ماء وقيعةٍ كأن الصبا تندى على متنه بردى

---

(١) الجنائب: جمع جنوب، وهى الريح التى تقابل ريح الشمال.

(٢) يقال هضبتهم السماء أى أمطرتهم.

(٣) شاعرات العرب: ٤١٧. (٤) دير بصرى، والحمى، موضعان.

(٥) الجرعة: الرملة الطيبة المنبت. والنفل هنا: نبت من أحرار البقول زهره أصفر طيب الرائحة، تسمن عليه الخيل.

ويذكر الرواة أن رجلا من طى ، ارتحل مع زوجته إلى ديار أهله ، بعد قحط أصاب ديار أهلها . فحين وصلت إلى دياره ، نظرت إلى السدر ، فسألته عنه . فأخبرها . ثم نظرت إلى النخل ، فلم تعرفه ، فسألته . فأخبرها . فأنشأت تعبر عن حنينها إلى وطنها ، وتبين أن حبها لنبت البادية ، أكثر من حبها لنبت الحاضرة . وأنها تحب هذا النبت أن تسقيه الغوادى ، ولا تحب أن يروى بغيرها . وترى شفاءها بضغث من الآلاء ، وهو نبت الصحراء . تقول[1] :

ألا لا أحبُّ السدر ألا تكلفا ... ولا لا أحبُّ النخلَ لما بداليا

ولكننى أهوى أراضىَ مُطعم ... سقاهنَّ ربُّ العرشِ مزناً عواليا

فيا صاعدَ النخلَ المشيةَ لو أتى ... بضغثٍ ألاء كان أشفى لمابيا

وامرأة أخرى من تميم ، هى العيوف بنت مسعود ، تهب عليها الأرواح ؛ فتهيج صبابتها ، ويبرّح الهم فؤادها . فتتمنى ألا تهب على صحراء فلج — موطنها — ريح الجنوب . وتود أن يظل هبوبها شمالا ، وذلك لأن ريح الجنوب ليست مما يشتهى عندهم ، وأن ريح الشمال هى المشتهاة . ثم هى تتمنى أن تحمل لها هذه الريح نفحة من رمث حزوى — والرمث نوع من الحمض تشتاقه الإبل وتحن إلى رعيه ، وفى أساس البلاغة للزمخشرى[2] :

ألا حنّت المرقالُ واشتاقَ ربُّها ... تذكّرُ ارماثاً واذكرُ معشرى

ولو عُلّمت صرفَ البُيوع لسرَّها ... بمكة ان تبتاعَ حمضاً بإذخر[3]

تقول : تهب الريح ، فتهيج صبابتها وتقول[4] :

إذا هبت الأرواحُ هاجت صبابةً ... علىَّ وبرحاً فى فؤادى همومها

---

(١) معجم البلدان : ١٤٩/٥ .

(٢) أساس البلاغة للزمخشرى : ٣٦٩/١ .

(٣) الإذخر : حشيش طيب الريح . (٤) معجم البلدان : ٢٧٢/٤ .

ألا ليت أن الريحَ ما حلَّ أهلُها بصحراء فالج لا تهبُّ جنوبها

وآلت يمينا لا تهب شمالها ولا نُكْبُها ألا صبا تستطيبها

تؤدي لنا من رمثِ حزوى هديةً إذا نال طلاًّ حزنُها وكثيبُها

وتقول وجيهة بنت أوس الضبية ، أن إحدى العاذلات قد لامتها على مايبدو منها من شوق وصبابة لوطنها ؟ فتستغرب وجيهة هذا العذل . فماذا في الأمر من مستنكر ، حين تحن إلى أرض عشيرتها ، وتحب ديار أهلها ؟! . ثم تؤكد هذا المعنى حين تذكر أن الرياح لو كانت تعقل وتفهم ، لخاطبتها وناجتها ، وحملتها تحيتها ، وطلبت إليها أن تبقى هذه التحية نقية خالصة ، نابعة من القلب ، غير مختلطة بتراب الريح . وانظر إلى الصورة التي رسمها حينا تسأل ريح الشمال ، التي تهب من ناحية وطنها ، وهل ازداد قرب صداح النميرة — وطنها — نتيجة هبوب هذه الريح من ناحيته !! . تقول[1] :

وعاذلةٍ تغدو عليَّ تلومني على الشوق لم تمح الصبابةَ من قلبي

فما لي أن أحببتُ أرض عشيرتي وأبغضتُ طرفاء القصيبة[2] من ذنبِ

ولو أن ريحاً بلغت وحيَ مرسلٍ حفيٍّ لناجيتُ الجنوبَ على النقبِ

وقلت لها أدّي إليهم تحيتي

ولا تخلطيها — طال سعدُك — بالتربِ

فإني إذا هبّت شمالاً سألتها هل ازداد صداحُ النميرةِ من قربِ[3]

وتتزوج أم موسى بنت سدرة الكلابية رجلا من حجر ، وتنتقل معه إليها . لكن فرحة الزواج لا تشغلها طرفة عين عن الحنين إلى وطنها وأهلها . وتفضل الموت

(١) المنازل والديار : ٢٠٨ . (٢) طرفاء القصيبة : موضع

(٣) صداح النميرة : موضع .

بوطنها على الموت بحجر ، وتكره العيش فى دار ذات حيطان فى الحاضرة ، وتحبذ « العرف الاعلى » — وطنها — ولكن ما حيلتها ، غير أن تبيت ترقب نجم الليل قاعدة حتى الصباح ، وهى فى لوعة وحسرة من الحنين . تقول(١)

قد كنتُ أكرهُ حجراً أن أموتَ بها ... وأن أعيشَ بأرضٍ ذاتِ حيطانِ

يا حبذا العرفُ الأعلى وساكنُه ... وما تضمن من قرب وجيران(٢)

وهذا الحنين يدفعها إلى الدعاء « على الشيخ بن حيان » الذى كان السبب فيما يبدو فى هذه الهجرة فتقول :

لولا مخافةُ ربى أن يعذبنى ... لقد دعوتُ على الشيخ بن حيانِ(٣)

فاقرَ السلامَ على الاعرافِ مجتهداً ... إذا تأطَّمَ دونى بابُ سيدانِ(٤)

وتدعو امرأة من كلب ، بالسقيا لمنازلها وديارها بين شرج ، ونواظر ، وأوساط الشقيق . وكيف لاتدعو إلى هذه الديار ، وهى لو تركت على هواها ، لاطالت فيها المقام ، وانظر إلى حالة الضعف التى تبديها ، وهى المرأة العربية القديمة التى لاحول لها ولا قوة ، أمام الرجل — زوجها — فهى تقول : لو أننا نطاع ! متمنية الطاعة لها ولكن أنى لها ذلك ! وحينما تيأس من ذلك لاتنفك تهدى سلامها إلى هذه الديار ولمن يحلها ، شوقاً وحنيناً لها ولمن فيها . تقول(٥) :

سقى اللهُ المنازل بين شرج ... وبين نواظرٍ ديماً رهاما

وأوساطَ الشقيقِ شقيقَ عبسٍ ... سقى ربى أجارِعَها الغماما

(١) معجم البلدان : ٤/١٠٥ — ١٠٦

(٢) العرف : بسكون الراء : موضع فى ديار كلاب

(٣) ابن حيان : أبوها .

(٤) الأعراف . كل عال مرتفع . وتأطم : تكسر . وسيدان : زوجها .

(٥) المنازل والديار : ٣٤ .

فلو أنّا نطاعُ إذا أمَرنا أطلنا في ديارِهم المقاما

فأني لا أني ما عشتُ أهدى لها ولمن يحلُّ بها السلاما

وما يغني السلامُ إذا نزلنا لوى لامٍ ألامَ الله لاما[١]

وتتزوج تماضر بنت مسعود ، في مصر من الامصار ، فتحن إلى وطنها بطبيعة الحال ، إذ لاتستطيع ، فيما يبدو ، الانسجام مع الحياة الجديدة في القرية ، إذ أنها قد نشأت في بيئة صحراوية بدوية ، لاتستطيع ، بعد ذلك ، أن تحبس في قرية ، وهي بنت البادية تقول [٢].

لعمري لجمٌّ من جواء سويقةٍ أو الرملِ قد جرّت عليه سيولُها[٣]

أحبُّ إلينا من جداولِ قريةٍ تموّضُ من روضِ الفلاةِ فسيلُها[٤]

ألا ليت شعري لا تُحبستُ بقيّةَ عمرٍ قد أتاها سبيلُها

وتقول مرة أخرى ، أنها تحب المكاكي وأصواتها ، وصوت الصبا في مجمع الرمث والرمل ، وصوت الشمال التي تهيج بسويقة ألاء وأسباطاً ، أنها تحب هذه المظاهر البدوية ، لأنها قد تغلغلت في مشاعرها منذ الطفولة . أما حياة القــرية ، وصياح الدجاج والديكة ، وأصوات الريح في سعف النخيل ، فأنها طارىء جديد لاتستطيع أن تنسجم معه أو تحبه ، أنها وفية لمظاهر حياتها الاولى . تقول[٥] :

لعمري لأصخابُ المكاكيَّ بالضحى

وصوتُ صباً في مجمعِ الرمث والرملِ

---

(١) لوى لام : موضع . (٢) معجم البلدان : ٢٨٧/٣ .

(٣) جم : كثير . وبئر جمة وجموم : كثير الماء . وهنا تعني ماء للشاعرة .

(٤) الفسيلة : الصغيرة من النخل ، والجمع فسائل وفسيل .

(٥) معجم البلدان : ٢٨٧/٣ .

وصوتُ شمالٍ هيّجتْ بسويقةٍ ... ألاءً وأسباطًا وأرطى من الحبلِ

أحبُّ إلينا من صياح دجاجةٍ ... وديكٍ وصوتِ الريحِ من سَعَفِ النخلِ

وتكره امرأة من بنى عبد الله بن دارم ، مظاهر الإقامة فى البصرة ، فتخاطب نخلتى ثروان ، بأنها شاءت أن يفارقها حفيفهما ، الذى يوقد فى قلبها نار الشوق والحنين ويذكرها بديارها وأهلها . تقول[١] :

أيا نخلتى ثروان شئت مفارقى ... حفيفكما ، ياليتنى لا أراكما[٢]

أيا نخلتى ثروان لا مرَّ راكبٌ ... كريمٌ من الأعراب إلا رماكما

ويبلغ الحنين عند المرأة أوجه ، حين تكره كرهاً على الخروج من دارها ، خاصة حين تكون أمة تباع وتشترى . يحدثنا ياقوت ، أن هشام بن الوليد ، حدث عن أبيه قال : خرج قوم من مكة نحو الشام ، وكنت فيهم فبينا نحن نسير فى بلاد الأردن الأردن من أرض الشام ، إذ رفع لنا قصر . فقال بعضنا لبعض : لو ملنا إلى هذا القصر ، فأقمنا بفنائه حتى نستريح ، ففعلنا . فبينا نحن كذلك ، إذ انفتح باب القصر ، وانفرج عن امرأة مثل الغزال العطشان فرمقها كل واحد منا بعين وامق ، وقلب عاشق . فقالت من أى القبائل أنتم ، ومن أى البلاد ؟ قلنا نحن أخلاط من حيا وهنالك فقالت : أفيكم من أهل مكة أحد ؟ قلنا : نعم . فأنشأت تقول :

من كان يسألُ عنا : أين منزلنا ... فالاقحوانة منا منزلٌ قمِنُ[٣]

وإن قصرىَ هـذا مابه وطنى ... لـكن بمكة أمسى الأهلُ والوطنُ

إذ نلبس العيشَ صفوًا ما يكدره ... قولُ الوشاةِ ، وما ينبو به الزمنُ

من كان ذا شجن بالشام يَنزله ... فبالأباطح أمسى الهم والحزن[٤]

---

(١) المصدر السابق : ٧٧/٢ .

(٢) ثروان : جبل لبنى سليم .

(٣) منزل قمن : أى جدير أن تسكنه .

(٤) الأباطح : موضع .

ثم شهقت شهقة ، وخرّت مغشياً عليها ، فخرجت عجوز من القصر ، فنضحت الماء على وجهها وجعلت تقول :

في كل يوم لك مثل هـذا مرات تالله الموت خير لك من الحياة (كذا)

فقلنا : أيتها العجوز ، ما قصتها ؟ فقالت : كانت لرجل من أهل مكة ، فباعها فهي لاتزال تنزع إليه حنيناً وشوقاً[١] . أرأيت كيف ترفض العيش في القصر العظيم لأنه ليس وطنها ، وإنما وطنها في مكة حيث الأهل والأحباب ، وحيث الديار التي نشأت فيها ، وحيث العيش صفو ما به كدر . إنه الوطن ، وأنه الحنين الطاغي إليه .

وتفصح إحدى النساء ، حين تتزوج وتحن إلى وطنها ، عن السبب الذي حداها إلى الحنين . ذلك أنها مرتبطة بأمها ، وبشيء آخر لايقل عن أمها حباً وتقديراً ، وهو ماء أبضع وضبيع ، وهي مياه في ديارها ووطنها ، تتمنى من هذه المياه ، شربة تروى بها ظمأها ، وتطفئ نار شوقها وحنينها . قالت[٢]

ألا ليت لي من وطب أمي شربةً تُشاب بماءٍ من ضُبَيْعٍ وأبضعِ[٣]

وتقول إحدى النساء ، وقد انتقلت إلى الشام ، حين زوجها عمها رجلا شامياً ، فلا تستطيع أن تتخذ موقفاً من ديارها إلا الحنين إليها . وماذا بيدها أن تفعل ، وعليها أن تنتقل إلى الشام بصحبة زوجها ؛ فتخاطب خليليها — وتصفهما بأنهما موضع ثقتها — أنها تدعو بالسقيا لبلادها ، لأنها تحبها . وتحب ساكنها . كما أنها تتمنى أمنية أبعد من هذه ، ألا وهي أن تتبدل من عمها بعم آخر ، لأنه هو السبب — فيما يبدو — فيما جرى لها . وتتمنى أن تتبدل بأبناء عمها بغـــيرهم من الموالي ، فكأنهم رفضوا الزواج منها وإبقاءها في وطنها بين أهلها وعشيرتها . تقول هذا رغم أنها — فيما يبدو — تحب زوجها الشامي ، إلا أنها أكثر حباً لوطنها منه . تقول[٤]

---

(١) معجم البلدان : ١ / ٢٣٤ .

(٢) المصدر السابق : ١/٧٣ .

(٣) أبضع وضبيع : ماءان لبني بكر . ووطب : سقاء اللبن . وتشاب : تخلط

(٤) المنازل والديار : ٢٤٩ .

ألا يا خليـــــــلىَّ اللذين أراهما ... ذوى ثقتى من دون من كان حافا

سقى الله — والسقيا إليه — بلادَنا ... بحزمِ قناوين الذهاب الغواديا

بلادٌ جميعٍ والعظيمِ أحبُّهم ... وإن كنتُ قد أيقنت ألاَّ تلاقيا

ألا ليت لى عمًا بصحى وليتَ لى ... مكانَ بنيه من مَعَدٍّ مواليا

أناسًا إذا خافوا علىَّ ظلامـةً ... وضيمًا أحاطوا بالقنا من ورائيا

فلا باركَ الرحمنُ فى وجهِ حُرَّةٍ ... يمانيةٍ بعـــدى تحبُّ شآميا

وكما خاطبت الدارمية نخلى ثروان، تخاطب أسماء المرية جبلى نعمان، أن يخليا نسيم الصبا يصل إليها، أن نسيم الصبا إذا هب على قلب محزون، يتخلى عن همومه وحزنه، كما أنها تجد لها بردًا؛ وتشفى حرارة كبدها. ثم تتجه إلى جبلى عويمرة، أن يتركا الجنوب تمر، لعل هذه الجنوب تداوى علتها؛ ولكن كيف تداوى الريح الشوق الماطل، والعين التى طال سجام دموعها؟ وانظر إلى ما يتركه قولها وأنها غريبة من أثر فى النفس، ودلالة عما تعانى من تلك الغربة، من شوق وحنين إلى أهلها ووطنها! أنها مقطعة الأحشاء من جوى الهوى، ومن تباريح الشوق، الذى يعكف عليها، ولا يريمها تقول[1]

يا جبلَىْ نعمانَ باللهِ خلِّيا ... نسيمَ الصَّبا يخلُصْ إلىَّ نسيمها

فأن الصبا ريحٌ إذا ما تنفست ... على قلبِ محزونٍ تجلَّتْ همومها

أجِدْ بردَها أو تشفِ منى حرارةً ... على كبدٍ لم يبقَ إلا صميمها

أيا جبلى وادى عُوَيْمِرَةَ التى ... نأتْ عن نوى قومٍ وحُمَّ قدومها[2]

ألا خَلِّيا مجرى الجنوب لعله ... يداوى فؤادى من جواه نسيمها

---

(١) شاعرات العرب لعبد البديع صقر : ٨ .

(٢) عويمرة : نخل لبنى ربيعة باليمامة .

وكيف تداوى الريح شوقاً مماطلاً　　وعيناً طويلاً بالدموع سجومها

وقولا لركبانٍ تميمية غدت　　إلى البيت ترجو أن تحط جرومها[1]

بأن بأكناف الرغام غريبة　　مولهة ثكلى طويلاً نئيمها[2]

مقطعة أحشاؤها من جوى الهوى

وتبريح شوق يعاكف ما يريمها

وتخاطب جمل المدلية دار يلجأ، بأنها أحب ديار الله إليها، لأنها أول أرض بها عق الشباب تمائمها ومس جسمها ترابها، فبلادها أحب بلاد الله إليها فى حالتى الخصب والجدب !! تقول[3] :

ألم تعلمى يا دار بلكجاء أننى　　إذا أخصبت أو كان جدباً جنابها

أحب بلاد الله ما بين منعجٍ　　إلى وسلمى أن يصوب سحابها[4]

بلاد بها عق الشباب تميمتى　　وأول أرضٍ مس جسمى ترابها[5]

وتحن ناقة زينب، فتهيج هواها، ويذكرها ذلك الحنين بوطنها، فما لها حينئذ إلا أن تشكو حالها إلى ناقتها، بما تعانى من الشوق والبعد والحنين إلى قومها ووطنها تقول[6] :

إذا حنت الشقراء هاجت لى الهوى　　وذكرنى للحرتين حنينها[7]

شكوت إليها نأى قومى وهجرهم　　وتشكو إلى أن أصيب جنينها

---

(١) جرومها : جمع جرم وهو الذنب　(٢) النئيم : الصوت الضعيف الخفى
(٣) شاعرات العرب : ٤٨　(٤) منعج وسلمى : موضعان .
(٥) عق : نشأ . ويقال للصبى إذا نشأ مع حى حتى شب وقوى فيهم : عقت تميمته فى بنى فلان　(٦) شاعرات العرب : ١٤٦　(٧) الحرتان : موضع

وفتاة أعرابية ، يحملها زوجها إلى مكان قصى ، فأصبح هواها يمانياً ، وراحت تسائل عن جبل نعمان وواديه — وطنها — الذى تكتنفه الظلال والمشارب ، فيرتوى به القلب الصادي . فكأنها لم ترتو بما عندها من ماء ، ولا يوجد الماء الذى يروى ظمأها ، إلا فى وطنها ، تقول[1] :

ألا أيها الركبُ اليمانون عرِّجوا ... علينا فقد أضحى هوانا يمانيا

نسائلكم هل سال نعمانُ بعدنا ... وحُبَّ إلينا بطنُ نعمانَ وادِيا[2]

فإنَّ بهِ ظِليــــــــلاً ومشرباً ... به ننقع القلبَ الذى كان صاديا

وتحن قلوص أم المثلم الهذلية ، بعد هدوء صبابتها ، فيرتاع قلبها ، كما يرتاع قلب قلوصها ، لكنها تحاول تصبرها وتعزيها ، وتعزى نفسها ، بأن كل قرينة لابد أن تفارق قرينها ، لكن هذه القلوص لا ترعوى ، وهل لها ذلك ، وهى يغلبها الشوق والحنين ، وكأن هذه هى حال أم المثلم كذلك . تقول[3] :

وحنَّتْ قلوص بعد هدء صبابةٍ ... فيا روعةً ما راع قلبي حنينها

حَنَتْ فى عقاليها وشبَّ لعينها ... سنا بارقٍ يسرى فجُنَّ جنونها

فقلت لها صبراً فكلُّ قرينةٍ ... مفارِقُها لا بد يوماً قرينُها

وما برحت حتى أرعوينا لصوتها ... وحتى أبرى منا معينٌ يمينها

وقلت لها حنى رويداً فأنني ... وأياك تبدى عولة ضنينها

وميسول بنت بحدل الكلابية ، يتزوجها الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان ، ويسكنها القصور المنيفة ، ومافى هذه القصور من ناعم المأكل والملبس ، والحيوانات الأليفة ، ونقر الدفوف ، والعيش الطريف ، لكنها لاتعجبها كل مظاهر الحضارة هذه ، بل تحن إلى الخشونة فى حياة البادية ، وذلك لأن مظاهر الخشونة قد أشربتها

---

(١) شاعرات العرب : ٣٠٧ .

(٢) نعمان : هو نعمان الأراك ، وهو واد بين مكة والطائف .

(٣) شاعرات العرب : ٣٨٩ .

في دمها وأحاسيسها ، حتى أصبح مفهوم الوطن الشريف عندها ، يرتبط ارتباطاً كلياً بالخشونة في الحياة . وكيف لا ؟! وتلك الحياة حياتها ، وطنها ، وطفولتها ، ويفاعتها ، أمها وأبوها وأهلها وعشيرتها ! تقول[1] :

لبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيه — أحبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ

وبكرٌ يتبعُ الأظعانَ سقباً — أحبُّ إليَّ من بغلٍ زفوفِ[2]

وكلبٌ ينبحُ الطرّاقَ عني — أحبُّ إليَّ من قطٍّ أليفِ

ولبسُ عباءةٍ وتقرُّ عيني — أحبُّ إليَّ من لبسِ الشفوفِ[3]

وأكلُ كُسيرةٍ في كِسرِ بيتي — أحبُّ إلى من أكلِ الرغيفِ[4]

وأصواتُ الرياحِ بكلِّ فجٍّ — أحبُّ إلى من نقرِ الدفوفِ

وخرقٌ من بني عمي نحيفٌ — أحبُّ إليَّ من علجٍ عليفِ[5]

خشونةُ عيشتي في البدوِ أشهى — إلى نفسي من العيشِ الطريفِ

فما أبغي سوى وطني بديلاً — فحسبي ذاكَ من وطنٍ شريفِ

أرأيت كيف أنها تفضل كسرة الخبز في وطنها ، على الرغيف في غيره ، وكيف أنها ترفض البديل لوطنها ، إذ أنه هو الوطن الشريف ، على حد تعبيرها ! .

---

(١) المصدر السابق : ٣٩٦ .

(٢) البكر : الفتى من الإبل . والسقب : الذكر من ولد الناقة . وزفوف : مسرع .

(٣) الشفوف . جمع شف ، بكسر الشين وفتحها وهو الثوب الرقيق .

(٤) الكسيرة : القطعة من الخبز . والكسر : طرف الخباء من الأرض .

(٥) الخرق : الكريم . والعلج : الصلب الشديد ، وبه سمي حمار الوحش ، وهي تقصد هنا معاوية زوجها .

وتحن امرأة من بنى عامر، إلى ديارها وأيامها، حين تأتى الرياح الهيف — من ناحية هذه الديار — التى يلذ لها جسم هذه المرأة، فتداعبه حين هبوبها. وكم حاولت هذه المرأة أن تنسى قومها وأرضها، لكنها تفشل فى خداع نفسها، إذ هى فى خداعها لنفسها، كالسكران الذى يخادع الصاحى، تقول[1]:

سقياً ورعياً لأيامٍ تشوقنا ... من حيث تأتى رياحُ الهيفِ احيانا[2]

تبدو لنا من ثنايا الضُّمر طالعةً ... كأن اعلامها جُلّان تيجانا[3]

هيفٌ يلذُّ لها جسمى إذا نُسمت ... كالحضرمىّ هنا مسكاً وريحانا

يا حبذا طارقٌ وهناً الَمّ بنا ... بين الذراعينِ والأخرابِ من كانا[4]

شبهتَ لى مالسكْراً يا حبذا شبهًا ... اما من الأنس او ما كان جنّانا

ماذا تذكّرُ من ارضٍ يمانيةٍ ... ولا تذكّرُ من أمسى بجوزانا[5]

عمداً أخادع نفسى عن تذكّركم ... كما يخادعُ صاحى العقلِ سكرانا

ويرق شعر الحنين إلى الوطن عند المرأة، أكثر فأكثر، حين نطالع أبيات ليلى الخفيفة[6]، التى تصور فيها عذابها وعناءها، وهى بعيدة عن أهلها، فى قصيدتين جميلتين، ذكرهما صاحب شعراء النصرانية، تذكر الأولى منهما، رغم أنها لا تضم

---

(١) شاعرات العرب: ٤٠٢.

(٢) الهيف: ريح حارة تأتى من نحو اليمن.

(٣) الضمر: جبل ببلاد بنى قيس.

(٤) الذراعان: هضبتان فى بلاد عمرو بن كلاب. والأخراب: موضع بنجد.

(٥) جوزان: بلدة باليمن.

(٦) هى ليلى بنت لكيز بن مرة بن أسد بن ربيعة بن نزار. كانت تامة الحسن كثيرة الأدب ولها شعر كانت وفاتها نحو سنة ٤٧٣ م.

حنينا واضحاً إلى الوطن . وإنما فيها لوعة وعذاب ، لستطيع أن نردهما إلى هذا الاغتراب الذى عنيت به . تقول[1] :

ليت للبراق عيناً فترى ... ما أقاسى من بلاء وعنا
يا كليباً يا عقيلاً إخوتى ... يا جنيداً ساعدونى بالبكا
عذبت أختكم يا ويلكم ... بعذاب النكر صبحاً ومسا
يكذب الأعجم ما يقربنى ... ومعى بعض حساسات الحيا
قيدونى غللونى وافعلوا ... كل ما شئتم جميعاً من بلا
فأنا كارهة بغيتكم ... ومرير الموت عندى قد حلا

ولها قصيدة ثانية ، نلمح فيها التعبير الواضح الصريح ، الذى يصور رقة حنينها إلى وطنها وهى غريبة ، وقد ابتعدت عن أحبابها . وهى ، فيما يلوح لنا . تجهل أخبار أهلها وأحوالهم ، فيتربع الشوق فى قلبها ، وتذوب كما يذوب الرصاص ، الذى يصلى بالنار . تقول[2] :

قد كان بى ما كفى من حزن غرسان ... والآن قد زاد فى همى وأحزانى
ما حال براق من بعدى ومعشرنا ... ووالدىّ وأعمامى وأخوانى
قد حال دونى يا براق مجتهداً ... من النوائب جهد ليس بالفانى
كيف الدخول وكيف الوصل وآسفا ... هيهات ما خلت هذا وقت إمكانى
لما ذكرت غريباً زاد بى كمدى ... حتى هممت من البلوى بإعلان

(١) شعراء النصرانية : ١٤٩/١ .
(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها .

تربع الشوقُ فى قلبي وَذبت كما ... ذاب الرصاص إذا أصلى بنيران
فلو ترانى — وأشواقى — تقلبنى ... عجبت برّاق من صبرى وكتمانى

وهذه امرأة من تميم، تتزوج رجلا من حجر، وينقلها إليها، فيغلبها الحنين إلى وطنها وأهلها، فى ديار بنى تميم، وإذا بها ترى فرش الحرير فى ديار غير ديارها، وفى وطن غير وطنها، كفراش الجمر!! تقول(١):

لقد كنت عن حجر بعيدا فساقنى ... صروف النوى والسابقات إلى حجرِ
يقولون فرشٌ من حرير وإنما ... أرى فرشهم عندى كحاميه الجمرِ

أنها اللوعة الحقة، والحنين الصادق قد صورا فى هذين البيتين، وكيف لا؟ وهى ترى فرش الحرير، كحامى الجمر المتوهج!.

وأعرابية تمرض، وهى بعيدة عن وطنها وأهلها، فتطلب من خليليها أن يقرءا السلام منها على «حرّة ليلى»، وهى البلاد التى ولدت فيها، ونمت وترعرعت، وبقى قلبها معلقاً بها، حتى وهى على فراش الموت. تقول(٢):

خليلىَّ إن حانت بمورة ميتتى ... وأزمعتما أن تحفرا لى بها قبرا(٣)
ألا فاقريا منى السلامَ على فتى ... وَحَرَّةَ ليلى لا قليلاً وَلا نزرا(٤)
سلام الذى قد ظن أن ليس رائياً ... رماحا ولا من حرتيه ذرى خضرا(٥)

وتغترب امرأة فى زواجها من أبان بن دارم بن حنظلة، هى وبكرها، فتراها تناجيه، وتبثه همومها. فهو يحن — وهو أشد حنين الإبل إلى أوطانها وأولادها — وهى تحن. فهما (على البلوى لمصطحبان): وماشر الزمان، إلا ذلك الذى صيّرهما فى كلب، بعيداً عن الأهل والوطن. تقول(٦):

---

(١) المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها: ١٨٥.
(٢) معجم البلدان: ٦٥/٣. والمرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها: ١٨٥.
(٣) مورة: موضع. (٤) حرة ليلى: بلادها. (٥) رماح: موضع.
(٦) رسائل الجاحظ: ٤٠٠/٢. وحماسة ابن الشجرى: ١٧٣.

ألا أيها البكر الأبانيُّ أنني ... وإياكَ في كلبٍ لمغتربانِ
تحنُّ وأبكي ذا الهوى لصبابةٍ ... وإنّا على البَلْوى لمصطحبانِ
وأن زمانًا أيها البكرُ ضمَّني ... وإياكَ في كلبٍ لشرُّ زمانِ

وهند بنت عصم السدوسية، تحن إلى وطنها حتى لاترى ماء المصبح شافياً لنفسها، وتتمنى شربة من ماء السيال، التي فيها راحة للنفس، وشفاء للغليل. ولم لا؟ وهي المياه التي عليها نمت وشبت؟ ثم انظرها وهي تتصور شدة وجدها وشوقها حينما تصبح مطاياهم في لينة، وهي البلاد التي هم بها، ظالعا، وذلك لاختلاف البيئة التي عاشت فيها هذه المطايا. تقول[1]

ألا لا أرى ماء المصبِّح شافيا ... نفوسًا إلى أمواهِ بقعاء نزعا[2]
فمن جاء من ماء السَّيالِ بشربةٍ ... فإنَّ له من ماء لينةَ أربعا[3]
وقد زادني وَجداً ببقعاء أنني ... رأيتُ مطايانا بلينةَ ظُلَّعا

وأخيراً نحن مع الزرقاء بنت زهير — كاهنة قضاعة — التي تكهنت، لقومها بمغادرة تهامة، ونزولهم بهجر، وليس لها إلا أن تتجه نحو تهامة وتبدأ في وداعها، مؤكدة أنها لم تغادرها إلا مجبرة وتطلب من هجر أن لا تنكرها وهي الغريبة فيها، داعية مرة أخرى لتهامة بالرخاء. تقول[4]:

وَدِّعْ تِهامَةَ لا وداعَ مخالفٍ ... بذمامهِ لكن قِلىً وملامِ
لا تنكري هجراً مقامَ غريبةٍ ... لن تعدمي من ظاعنينَ تهامِ

* * *

---

(١) المرأة في الشعر الجاهلي: ٦٥١.
(٢) بقعاء: ماء بالبادية. والمصبح: موضع.
(٣) السيال ولينة: موضعان. (٤) تاريخ ابن خلدون: ٥٠٣/٢.

نخرج من هذا كله بأن المرأة كثيراً ما كانت تحن إلى وطنها وتفضله على غيره سواء كانت جاهلية ، أم إسلامية . فهى قليلا ما تغيرت بالتأثير الذى طرأ على العرب بعد الإسلام ، وذلك لإنها مرتبطة بعائلتها ، أكثر من الرجل . فهى تستوحش لبعدها عنهم وتحن إليهم حنيناً صادقاً .

ولقد لاحظنا أن الرجل كان يتخذ من الحنين إلى الوطن — أحياناً — ذريعة لصنع القصيدة الجاهلية ، خاصة فى ظاهرة الأطلال . أما المرأة ، فلم يكن عندها شىء من ذلك ، فهى لم تتحايل ، وإنما كانت تصور عواطفها بصدق وإخلاص ، لأنها تخوض تجربة فعلية ، ألا وهى الزواج والانتقال من بيئة عاشت فيها ، حتى تمشت مظاهرها فى دمها ، ثم انتقلت إلى بيئة أخرى . لم تستطع الانسجام معها . ثم هى أرق عاطفة من الرجل ، يملأ قلبها حب عائلتها ، أمها وأبيها وإخوتها ، ومن ثم كل ما يذكرها بهم ، لأنها تربت فى كنفهم ، وقضت ليلها ونهارها معهم . وليس الحال كذلك مع الرجل . لذا نجد شعر الحنين إلى الوطن عند المرأة ، أكثر رقة ، وأدق وصفاً ، وأصدق عاطفة ، سواء كانت المرأة جاهلية بدوية ، أم إسلامية . فالموقف الذى كانت تتخذه أية امرأة جاهلية فى هذا الموضوع ، هو نفسه الذى اتخذته النساء المسلمات ، وعلى رأسهن ميسون زوجة معاوية بن أبى سفيان .

أنه موقف واحد ، تصوره آمنة بنت الشريد الثقفية ، وهى تقول لمعاوية بن أبى سفيان ، وهى فى السجن : « وأبى لأخرجن » . ولا تسمح لى شىء من الشام ، فما الشام لى بحبيب ، ولا أعرج فيه على حميم ، وما هى لى بوطن ، ولا أحن فيها إلى سكن ، وما قرت فيها عينى [1] !

وقد لاحظنا شيئاً آخر — سبق أن وجدنا بعضه عند الرجل ، إلا أنه عند النساء أكثر وضوحاً وترديداً — وهو أن النساء ، كثيراً ما رددن ذكر نجد على الرغم من أن قسما منهن ليس منها ، بدليل أنهن يذكرن أماكن أخرى غيرها . وكأن نجداً أصبحت تقليداً عند شعراء الحنين إلى الوطن ، يرددونها فى أشعارهم عند حنينهم إلى أوطانهم .

---

(١) أدباء السجون : ٦٩

الفصل الرابع

الحنين إلى الوطن في النثر العربي

العرب والنثر:

ظهر النثر العربي، بصورة واضحة وجلية، بعد ظهور الإسلام، ونزول القرآن الكريم نثراً — أو بتعبير أدق — على صورة النثر، ولم يحفظ النثر الجاهلي، لأن الشعر يسهل حفظه، وزنه ونغمه، ولا كذلك النثر. والعرب في جاهليتهم لم يكونوا أهل كتابة وكتب. فلم يكن النثر — قبل الإسلام — ذا قيمة أو اهتمام كبيرين عند العرب، وذلك لانصرافهم إلى الشعر بشكل رئيس. إذ أنهم بالشعر كانوا يعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم. وليس الحال كذلك في النثر — على العكس من الغربيين، الذين يكتبون نثراً، ويعبرون بهذا الفناء عن عواطفهم وانفعالاتهم، لا بالشعر فقط وإنما بالنثر كذلك — «وكان الشاعر في الجاهلية، يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم[1] على حد تعبير أبي عمرو بن العلاء، فلم يصلنا من النثر العربي القديم، إلا خطب معدودة، ونتف قليلة من الحكم والأمثال العربية القديمة. التي امتازت بالإيجاز التام، والعبارات القصيرة، وذلك لأن التكرار والإطالة من علامات العي عندهم، والإيجاز من علامات الفصاحة والتمكن في اللغة. فهذا الجاحظ يعقد في بيانه باباً فيما قال العرب من الحديث الحسن الموجز المحذوف القليل الفضول[2]

وهذا ابن سنان الخفاجي يقول في سر فصاحته: «ومن شروط الفصاحة والبلاغة الإيجاز، والاختصار، ... وحذف فضول الكلام، حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة... وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس[3].

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ: ٢٤١/١ (٢) المصدر السابق: ٢٧٦/١.

(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي: ١٩٧.

ومع قلة النثر العربي ، الذي وصلنا من الحقبة الجاهلية إلا أن هذه القلة القليلة ، والنتف القصيرة ، لم تخل من الحنين إلى الوطن ، لاهي ، ولا ما وصلنا من النثر ، فيما تلاها من عصور .

* * *

في القرآن الكريم والحديث الشريف :

نزل القرآن الكريم نثراً — أو على صورة النثر — رسالة سماوية ، من عند خالق هذا الكون ومنشئه ، ولم تكن لأمة دون أخرى ، من أمم الأرض ، أو لجزء دون آخر ، من هـذا الكون الفسيح . فالأرض أرض الله . والخلق خلق الله ، والعالم من عنده جل وعلا ، إلى كل هذا وذاك .

فالقرآن إذن رسالة أممية ، لاتقف عند حـد ولا يحيط بها قيد ، وأرض الله واسعة لخلقه ، لهم حرية الحركة والتنقل فيها ، وقد بين الله سبحانه وتعالى هذا في كتابه العزيز في قوله : « قل ياعباد الذين آمنوا ، اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »[1] . وقال تعالى في سورة أخرى : « ياعبادي الذين آمنوا ، إن أرضي واسعة ، فإياي فاعبدون »[2] . وفي سورة ثالثة ، يقول عز من قائل : « إن الذين توفاهم الملائكة ، ظالمي أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا ، كنا مستضعفين في الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ؟ »[3] . ويدعو الله عباده إلى الانتشار في الأرض ، إذا ما قضيت الصلاة ، وإلى السعي في رحابها ، والأكل من رزقه ، حيث يقول : « فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا في الأرض »[4] نقول : هذه رسالة السماء ممثلة في القرآن الكريم ، أممية ، كاملة ، شاملة ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن الله تعالى ، لم يغفل الوطن[5] . لمـا له من قيمة في نفوس العباد ، ولم يغفل الدعوة إلى التمسك به ، والدفاع عنه ، والحفاظ عليه . والله سبحانه وتعالى ، يقسم بين الفينة والفينة ، بالأمور

---

(١) الزمر : ١٠ .　　(٢) العنكبوت : ٥٦ .

(٣) النساء : ٩٦ .　　(٤) الجمعة : ١٠٨ .

(٥) لم ترد لفظة (الوطن) في القرآن الكريم صريحة ، إلا في آية واحدة ، بمعنى أماكن ، في قوله تعالى : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » . التوبة : ٢٥ .

العظيمة ، والأشياء التى لها منزلة رفيعة عنده . وكان يقسم بالوطن ، وبالبلد . وفى كتابه العزيز :

(لا أقسم بهذا البلد[١]) .

(وهذا البلد الأمين[٢]) .

والهجرة عن الوطن صعبة ، والحنين إليه قوى ، وكان هذا واضحاً فى القرآن الكريم . فوعد الله المهاجرين عن ديارهم ، وأوطانهم ، فى سبيل الله ، سعة ورخاء . ولمن أدركه الموت منهم أجراً كبيراً ، وغفراناً عظيماً . قال تعالى :

(ومن يهاجر فى سبيل الله ، يجد فى الأرض مراغماً[٣] كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً[٤]) .

ووعد آخر للمهاجرين — الذين هاجروا من أوطانهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيل الله ، وقاتلوا وقتلوا — من الله سبحانه وتعالى ، بأن يكفر عن سيئاتهم ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثواباً من عنده . قال تعالى :

(فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا . لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب[٥]) .

ووعد آخر من عند الله ، للمؤمنين الذين ظلموا ، وأخرجوا من ديارهم بغير حق ، إن الله ناصرهم ، فليقاتلوا فى سبيله . قال تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز[٦]) .

---

(١) البلد : ١ (٢) التين : ٣ (٣) مراغماً : مهرباً ومتسعاً .
(٤) النساء : ٩٩ . (٥) آل عمران ١٩٥ . (٦) الحج : ٣٩ — ٤٠

ونهى سبحانه عن قتل النفس ، وعن جريمة لا تقل عن هذه بشاعة ، ألا وهى الخروج عن الدار ، حتى أنه سبحانه وتعالى ، أخذ ميثاقه على عباده ، أن لا تسفك الدماء ولا يخرج من الديار . قال تعالى : (وإذا أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ، ولاتخرجون أنفسكم من دياركم[١]) .

والإخراج من الديار ، حافز قوى للقتال فى سبيل الله والوطن . قال تعالى : (قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) . وهذا القول ، حكاية عن بنى إسرائيل ، وكانوا طلبوا من نبى لهم — وهو يوشع ، أو شمعون ، أو أشمويل — أن يعين لهم أميراً ، يتولى قيادتهم ، فى حرب العمالقة ، وقد أجلوا الإسرائيليين ، وسبوا أولادهم . وكان النبى قال لهم : (هل عسيتم أن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا[٢]) . يقول ذلك ، متوقعاً جبنهم عن القتال ، فأجابوه بما فى هذه الآية[٣] .

وفى موضع آخر ، يبين الله سبحانه وتعالى ، كيف أخرج المؤمنون من بيوتهم بالحق ، وفريق منهم كارهون . قال تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وأن فريقاً من المؤمنين لكارهون[٤]) .

وتتجلى قيمة الوطن ، وعظمته عند خالقه ، عندما يعاقب الكافرين ، فى الحياة الدنيا ، بأن يخرجهم من أوطانهم ، ويشردهم من ديارهم ، ويشتت شملهم . فهو عقاب . وما أشده من عقاب !! أن يشرد الإنسان عن وطنه ، مرغماً ، عقاباً له ، على ما ارتكب من ذنب ، فى حق الله ، ومتى كان هذا الإخراج ، وهذا التشريد ؟ حينما ظن الكافرون ، أن حصونهم سوف تحميهم من ذلها . وقد أكد سبحانه وتعالى ، أنه لولا أن كتب عليهم الجلاء عن ديارهم ، لعذبهم فى الحياة الدنيا . فكأن الخروج عن الدار ، هو العذاب ، وأى عذاب أشد منه !؟ . قال تعالى : (هو الذى أخرج الذين كفروا ، من أهــل الكتاب ، من ديارهم لأول الحشر[٥] . ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ، من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا

---

(١) البقرة : ٨٤ . (٢) البقرة: ٢٤٦

(٣) الحيوان للجاحظ : ٢٢٨/٢ . (من الحاشية) (٤) الأنفال : ٥

(٥) لأول الحشر : أى ليوم الحشر .

يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ، لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار[١]) .

وبيوت الذين ظلموا خاوية ، يوم مكروا فكان عذابهم أن أخرجوا منها وشردوا عنها وفى ذلك عظة وعبرة لقوم يعلمون . قال تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا . إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون[٢] » .

وحينما بغى قارون — من قوم موسى — على قومه ، بعد أن آتاه الله مالا وسلطانا ، عاقبه الله سبحانه وتعالى ، بأن خسفت به الأرض وبداره . قال تعالى : (فخسفنا به وبداره الأرض[٣]) .

ويورث سبحانه وتعالى ، المؤمنين مرة أخرى ، أرض الذين كفروا وأموالهم وديارهم بعد أن أنزلهم من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب . قال تعالى : (وأنزل الذين ظاهروهم[٤] من أهل الكتاب ، من صياصيهم[٥] ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون ، وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وأرضاً لم تطئوها . وكان الله على كل شىء قديراً[٦]) . فالله سبحانه وتعالى يبين أنه أورث المؤمنين ديار الكافرين وأرضهم — التى هى أوطانهم — وأموالهم . فكأنه يبين ، أنه يجردهم من كل عزيز يملكونه !

ويكون الحافز والمبرر عند الكافرين ، من قوم فرعون ، لمحاربة موسى ، عليه السلام ، هو تخوفهم منه ، لئلا يخرجهم من ديارهم ويبعدهم عن أوطانهم . قال تعالى : (قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون[٧] ؟) .

وفى سورة أخرى يقول سبحانه : (قال للملأ حوله ، إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون[٨] ؟) .

ومرة ثانية ، يخاف قوم فرعون أن يخرجهم موسى وأخوه من أرضهم . قال تعالى : (قالوا : إن هذان لساحران ، يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما[٩]) .

---

(١) الحشر : ٢ — ٣ . (٢) النمل : ٥٢ (٣) القصص : ٨١ .
(٤) ظاهروهم : عاونوهم .
(٥) صياص البقرة : قرونها . وصياص هنا : حصون .
(٦) الأحزاب : ٢٦ — ٢٧ . (٧) الأعراف : ١٠٨ — ١٠٩ .
(٨) الشعراء : ٣٤ — ٣٥ . (٩) طـه : ٦٣ .

وثالثة ، مع فرعون نفسه ، يخاطب موسى عليه السلام ، قائلا : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا ياموسى ؟ متهماً إياه ، بالتهمة ذاتها ، وهى السحر !! . قال تعـالى : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ »(١) .

ويمتدح الله سبحانه وتعالى ، البلاد الطيبة ، ذات الجنات الجميلة ، داعياً أهلها ، إلى أن يأكلوا ، ويشربوا من رزق ربهم ، وأن يشكروا نعمته عليهم ، قال تعالى : « لقـــد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ، ورب غفور »(٢) .

ودعا سبحانه وتعالى ، إلى عدم الخروج من الديار ، بطراً ، ورئاء للناس . قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم ، بطراً ورئاء(٣) الناس »(٤)

ودعا إبراهيم ، عليه السلام ، إلى الوطن ، بالخير والأمن والرزق . قال تعالى : « قال ابراهيم . رب اجعل هذا البلد آمناً ، وارزق أهله من الثمرات »(٥) .

وقال جل شأنه ، على لسانه عليه السلام ، فى سورة أخرى : « وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً »(٦) .

وينهى الله سبحانه وتعالى ، المؤمنين عن الكافرين الظالمين ، الذين قاتلوهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، أن يتولوهم ، ومن يتولهم ، فهو من الظالمين . قال تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »(٧) .

* * *

---

(١) طه : ٥٧ .
(٢) سبأ : ١٥ .
(٣) رجل رءاء كثير الرؤية .
(٤) الأنفال : ٤٨ .
(٥) البقرة : ١٢٦ .
(٦) ابراهيم : ٣٥ .
(٧) الممتحنة : ٨ — ٩ . (هذه الآية الشريفة هى التى حذفها الصهاينـــة من المصحف الذى طبعوه فى إسرائيل مؤخراً ، وذلك لما فيها من حث على قتال الكافرين المعتدين ، المحتلين لأرضنا ، المخرجين لشعبنا من دياره ! .

والرسول الأعظم ، عليه صلاة الله وسلامه ، كان محباً لوطنه ، كثير الحنين إليه في هجرته من مكة إلى المدينة ، فعيناه صلى الله عليه وسلم تغرورقان بالدموع حنيناً إلى مكة وشوقاً إليها ، حينما يسمع أباناً ، يصف له مكة وقد قدم منها . ينقل إلينا الغزنوي هذا الخبر ، حينما قال : « روى أن أبان قدم على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة ، فقال له : يا أبان كيف تركت مكة ؟ قال : تركتهم وقد حيدوا ، وتركت الأذخر وقد أغدق ، وتركت الثمام وقد خاص(١) . فاغرورقت عينا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم(٢) .

يكون حزن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، شديداً ، مرة أخرى ، وفي خبر آخر ، ينقله إلينا الأزرقي في كتابه : أخبار مكة ، حينما يحدثه أصيل الغفاري عن مكة ، وكيف أصبحت ، ويدعوه عليه السلام ، إلى الكف عن الحديث ، لئلا يزداد حزنه قال الأزرقي : « ... عن شهاب قال : قدم أصيل الغفاري قبل أن يضرب الحجاب على أزواج النبي (ص) ، فدخل على عائشة ، رضي الله عنها ، فقالت له : يا أصيل ، كيف عهدت مكة ؟ قال : عهدتها قد أخصب جنابها (٣) ، وابيضت بطحاؤها (٤) قالت : أقم حتى يأتيك النبي (ص) ، فلم يلبث أن دخل النبي (ص) . فقال له : يا أصيل كيف عهد مكة ؟ قال : والله عهدتها قد أخصب جنابها ، وابيضت بطحاؤها ، وأغدق أذخرها ، وأسلت ثمامها ، وأمشى سلمها(٥) . فقال : حسبك يا أصيل ، لاتحزنا(٦) . فكان النبي عليه السلام ، يغلبه الشوق والحنين ، فلم يعد يحتمل السماع . فيدعو أصيلا إلى الكف عن [illegible] ، لأن في [illegible] حزناً » .

ويظهر حب النبي (ص) لوطنه مكة ، وحرصه على البقاء فيها ، لا يبرحها ، لولا لولا أن يخرج منها مضطراً مرغماً . قال (ص) عن مكة : « والله انك لخير أرض الله

---

(١) سبق أن فسرت في مكان آخر . (٢) مطالع البدور : ٢/٢٩٢ .
(٣) الجناب ، والجانب : الناحية والفناء وما قرب من محلة القوم .
(٤) البطحاء : مسيل فيه دقاق الحصى .
(٥) أسلت : نما . ثمامها : نبت بها :
(٦) أمشى : مسح . سلمها : شجر من العضاه ورقها القرظ الذي يدبغ به الأديم .
(٧) أخبار مكة للأزرقي : ٢/١٥٥ .

إلى الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ماخرجت (١) .

وحينما يهم رسول الله (ص) بالخروج من وطنه ، والهجرة عنه إلى مكان آخر ، يلتفت إلى البيت العتيق — وكله حب إليه ، وحزن عليه ، ولوعة من فراقه — قائلا أن ما فى الأرض بلد أحب إليه منه . مكررا قوله ، فى أنه لو لم يخرج من وطنه ، لما خرج . روى « ... عن عبد الرحمن بن سابط قال لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم ، أن ينطلق إلى المدينة ، واستلم الحجر ، وقام وسط المسجد ، التفت إلى البيت فقال : إنى لأعلم ، ما وضع الله عز وجل ، فى الأرض بيتا ، أحب إليه منك ، وما فى الأرض بلد ، أحب إلى منك ، وما خرجت عنك رغبة ، ولكن الذين كفروا ، هم أخرجونى (٢) .

وفى الغربة ألم ممض ، ولوعة محرقة ، وللوطن حب كبير ، وحنين إليه — فى البعاد عنه — شديد . يؤكد هذا رسولنا الأعظم ، وصحابته الكرام . حينما هاجروا عن مكة إلى المدينة . فعلى الرغم من هجرتهم فى سبيل الله ، إلا أن هذا ، لم يفقدهم الشعور بالغربة ، وعدم الألفة ، واختلاف البيئة ، التى جاءوا إليها . مما أدى إلى إصابتهم بالأمراض فى هذه البيئة الجديدة . ولم يفقدهم كذلك ، حب وطنهم ، وحنينهم إليه شأنهم فى ذلك ، شأن القرآن الكريم ، وما سبق أن أوضحناه قبل قليل . وهو أن للوطن قدسية خاصة ، وحبه متشرب فى النفوس ، والحنين إليه أمر لا يغلب . روى « ... عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : لما قدم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة ، وعك (٣) أبو بكر وبلال . قالت : فدخلت عليهما . فقلت : يا أبت ، كيف تجدك ، ويا بلال ، كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر ، إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى ، يرفع عقيرته (٤) ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بواد وحولى أذخر وجليل (٥)

وهل أردن يوما مياه مجنة ... وهل يبدون لى شامة وطفيل (٦)

---

(١) أخبار مكة : ١٥٥/٢/٢ . وفضائل مكة للحسن البصرى ، مجلة كلية الآداب ، ١٤/٥٦٥ — ٥٦٦ .

(٢) المصدران السابقان وصفحاتهما .

(٣) وعك : أصيب بوعكة .

(٤) عقيرة الرجل : صوته إذا غنى أو قرأ أو بكى

(٥) أذخر وجليل : موضعان بمكة

(٦) شامة وطفيل : موضعان بمكة أيضا

قالت عائشة : فجئت رسول الله ، ﷺ ، فأخبرته . فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة ، أو أشد . وصححها ، وبارك لنا فى صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة(١) (٢) . وهكذا يدعو النبي صلى الله عليه وسلم . الله ، أن يحبب إليهم المدينة كحبهم مكة .

ومرة أخرى ، يدعو عليه الصلاة والسلام ، ربه أن يوفى أصحابه هجرتهم ، وأن لا يردهم على أعقابهم ، حين قال : « اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم » . ويعلق ابن خلدون على ذلك بقوله : « ومعناه أن يوفقهم لملازمة المدينة وعدم التحول عنها . فلا يرجعهم عن هجرتهم التى ابتدؤا بها ، وهو من باب الرجوع على العقب ، فى السعى إلى وجه من الوجوه . وقيل أن ذلك كان خاصاً ، بما قيل قبل الفتح ، حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة ، لقلة المسلمين . وأما بعد الفتح ، وحين كثر المسلمون واعتزوا ، وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس ، فإن الهجرة ساقطة حينئذ ، لقوله ﷺ : لاهجرة بعد الفتح(٣) » . أرأيت إذن ! فدعوة النبى عليه السلام لأصحابه ، للبقاء فى المدينة وحبها ، كانت قبل الفتح ، وحينما كان مرغماً على الهجرة . وأما بعد الفتح ، فلا هجرة .

ومثلما كانت شفاعة الله وثوابه للذين هاجَروا للجهاد فى سبيله ، نرى شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين المهاجرين ، الذين بقوا فى المدينة ، وصبروا على شدتها ، بعيداً عن أهلهم ووطنهم . روى « ... عن قطن بن وهب ، عن يحنس : أن مولاة لابن عمر أتته ، فقالت : عليك السلام يا أبا عبد الرحمن . قال : وما شأنك ؟ قالت أردت الخروج إلى الريف . فقال لها ، اقعدى ، فإنى سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد ، ألا كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة(٤) » .

---

(١) الجحفة : قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة .

(٢) أخبار مكة : ١٥٥/٢ — ١٥٦ . والسيرة النبوية : ٥٨٨/١ — ٥٨٩ . وصحيح البخارى : ٨٤/٥ .

(٣) تاريخ ابن خلدون : ٢١٧/١ .

(٤) المسند لابن حنبل : ٣٣/٩ — ٣٤ . وصحيح مسلم : ١٥١/٩ .

والمهاجرون الذين هاجروا ، فى سبيل الله ، وماتوا ، وحاجتهم فى صدورهم ، فى العودة إلى الوطن ، والعيش بين الأهل والأحباب ، هؤلاء يبشرهم النبى ﷺ بأنهم سيأتون يوم القيامة ، ونورهم كضوء الشمس . قال صلاة الله وسلامه عليه : «سيأتى أناس من أمتى يوم القيامة ، ونورهم كضوء الشمس . قلنا : من أولئك يارسول الله ؟ فقال : فقراء المهاجرين ، الذين تتقى بهم المكاره . يموت أحدهم وحاجته فى صدره ، يحشرون من أقطار الأرض[1]» .

ويبشرهم عليه السلام ، بدخول الجنة — فى حديث آخر — بتفصيل أكثر ، وإيضاح أجلى ، وتصوير أعظم . . « — عن رسول الله ، ﷺ ، أنه قال : هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله ، الفقراء والمهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور ، ويتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم : وحاجته فى صدره ، ولا يستطيع لها قضاء . فيقول الله عز وجل ، لمن شاء من ملائكته ، ائتوهم فحيوهم . فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك . أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ، فنسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدونى لايشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، ويتقى بهم المكاره . ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، لايستطيع لها قضاء . قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب : (سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار[2]» . يا للجهاد فى سبيل الله ورسوله . وللبعد عن الوطن ، والهجرة عن ربوعه ، ويالحكمة الله فى خلقه . ويا لجزائه لمن أحسن عملا : تحية من ملائكته ، وجنات من عنده ، وسلام من الله عز وجل وعلا !! كل هذا للفقراء والمهاجرين عن ديارهم ! .

وللغرباء نصيب من العطف والدعاء ، من النبى (صلى الله عليه وسلم) . قال عليه السلام : « طوبى للغرباء[3] » . وتأكيد جديد ، على قيمة الوطن ومكانته فى النفوس ، ليس عند ذويه حسب ، وإنما عند الله ورسوله . فحبه من الإيمان . قال صلى الله عليه وسلم . « حب الوطن من الإيمان[4] » .

---

(١) المسند : ١٠ / ١٧٩ .

(٢) المسند : ١٠/١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) نفسه : ١٠/١٧٨ .

(٤) مطالع البدور : ٢/٢٩٢

والنبي حريص على أن ينام كل مسلم في بيته مطمئناً ، وإذا سمع صوتنا ، يرتاع له فيقال له في ذلك ، فيرد عليه السلام قائلا : ظننت أن ساكناً أزعج من منزله ، والخروج عن الوطن عقوبة ،(١) كما قال رسول الله (ص) . لما فيه من عذاب النفس ، ولوعة على الأهل ، وحنين إلى الوطن .

وفي الغربة ذلة . و « من رضي بالذل فليس منا (٢) . عند رسولنا الأعظم ، عليه صلاة الله وسلامه .

وفي السفر وحشة ، وله محاذير ، والعودة منه فرحة وسرور ، وحمداً لله على السلامة . لهذا ، كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إذا سافر قال : « اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل . اللهم إني أعوذ بك من وعثاء(٣) السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال . اللهم أطو لنا الأرض ، وهون علينا السفر وإذا رجع قالهن ، وزاد فيهن ، آئبون تائبون ، عابدون لربنا حامدون (٤) .

وخير ما نختتم به حديثنا ، عن حديث رسول الله (ص) في الوطن والحنين إليه . هو قوله عليه السلام : « جنة الرجل داره »(٥) . أي أن دار الرجل ووطنه هما جنته في حياته الدنيا . وصدق رسول الله .

* * *

[illegible] في القرآن الكريم . والسنة النبوية [illegible] في الحديث الشريف . وموقفهما من حب الوطن ، والحنين إليه . وها هم الصحابة والتابعون — رضوان الله عليهم — يسيرون على السبيل نفسه ، والمنهاج ذاته . فكان تقديرهم للوطن وإجلالهم له ، وحنينهم إليه .

---

(١) المسند : ٢٧٩/٨ (٢) المحاسن والأضداد للجاحظ : ٩٨

(٣) الوعثاء : من الوعث وهو الدهس على الرمال الرقيقة ، والمشي يشتد فيه على صاحبه

(٤) المسند : ١٥٨/٨ . وصحيح مسلم : ١١٢/٩ وصحيح الترمذي : ٣/١٣ — ٤ وسنن ابن ماجه : ١٢٧٩/٢ — ١٢٨٠ وسنن أبي داود ٢ /٣٢ .

(٥) زهر الآداب للحصري : ٢٤/١ .

هذا أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب — رضى الله عنه يبين لنا ما للوطن من قيمة ، وما له من حب عند أهله على الرغم من السوء فى المكان ، والضيق فى العيش ، والمشقة فى الحياة ، والعسر فيها . وما أكثر بلاد السوء ! وما أشد تعلق أهلها بها ! كالصحارى القاحلة ، والأراضى الجرداء ، التى فيها من حرارة الشمس ، ونزرة المياه ما هو كفيل بأن يجعل الإنسان يتخلى عنها بكل بساطة ، ولكنه حب الوطن ، هو الغالب لكل الظروف ، القاهر لكل الصعاب ، المبقى للإنسان فى بلده ، بلد السوء ! ، قال رضى الله عنه : لولا حب الوطن ، لخرب بلد السوء (١) .

وهذه أم المؤمنين — عائشة ، رضى الله عنها ، تجل مكة ، وقد اضطرت إلى الهجرة عنها مع المسلمين . فهى لم تر السماء قط بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة . ولم يطمئن قلبها ببلد مثلما اطمأن بمكة ولم تر القمر بمكان أحسن منه بمكة . أنه الوطن الذى استحوذ حبه على تفكيرها قطعى ! . قالت رضى الله عنها : « لولا الهجرة ، لسكنت مكة . أنى لم أر السماء بمكان قط ، أقرب إلى الأرض منها بمكة . ولم يطمئن قلبي ببلد قط ، ما أطمأن بمكة . ولم أر القمر بمكان ، أحسن منه بمكة (٢) » .

والحسن بن على — رضى الله عنهما — يستعيذ بالله من ملل معافاته فيسأل فى ذلك فيجيب ، لئن يكون الرجل فى خفض ، فتدعوه نفسه إلى سفره ومغادرة الأهل والوطن . قال رضى الله عنه ، فى دعائه ، « اللهم إنا نعوذ بك أن تمل معافاتك . قيل له فى ذلك ، فقال : أن يكون الرجل فى خفض فتدعوه نفسه إلى سفر » (٣)

وعبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — يجعل حب الوطن ، والقناعة به مقياساً ، وذلك حينما يقول : « لو قنع الناس بأرزاقهم ، قناعتهم بأوطانهم ، ما اشتكى أحد من الرزق (٤) » .

وابن الزبير — رضى الله عنهما يؤكد ما سبق أن أكده ابن عباس ، حينما يقول : « ليس الناس بشىء من أقسامهم ، أقنع منهم بأوطانهم (٥) » .

* * *

(١) المحاسن والأضداد : ٩٣ . والمحاسن والمساوىء للبيهقى : ٢/٢٢٦ .
(٢) أخبار مكة : ٢/١٥٣ . (٣) محاضرات الأدباء : ٦١٤ .
(٤) محاضرات الأدباء : ٦٢٠ ومطالع البدور : ٢/٢٩٢
(٥) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٦

في الأمثال والقصص :

قلنا في مفتتح هذا الفصل : أن النثر العربي ، وصلنا نتفا قصيرة ، من العصر الجاهلي ، ولم تخل هذه النتف ، من الحنين إلى الوطن . وقد كانت على شكل حكم وأمثال ومواعظ ، تتلى وتقال ، بين الحين والآخر ، أو على شكل قصص وحكايات ، يتناقلها الرواة ، في العصر الجاهلي ، وما تبعه من عصور .

ويظهر لنا الحنين إلى الوطن ، في الحكم والأمثال ، بوضوح وجلاء . فما دام الطائر يحن إلى وكره ، فأولى بالإنسان أن يحن إلى وطنه . كقول أحدهم : «إذا كان الطائر يحن إلى أوكاره ، فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه[1]» .

والأسد يحن إلى الغابة — وطنه — ولا يستطيع الاستغناء عنها . ومثله في ذلك ، يحن الكريم الأبي إلى وطنه . وما أجمل أن يشبه الرجل الكريم ، بسيد الحيوانات ومليكها ، حتى في الحنين إلى الوطن ! . قال «يحن الكريم إلى جنابه ، كما يحن الأسد إلى غابه[2]» .

وللبلد الذي ولد الإنسان فيه ، وتربى في رحابه ، وأكل من خيراته — قدسية وفضل كبير عليه ، وهو أحق البلدان بالحب والحنين . قالوا : «أحق البلدان بنزاعك إليه ، بلد أمصك حلب رضاعه[3]» .

ومن سمات الشرف والأصالة عند الإنسان ، أن يكون ميالا إلى وطنه ، حانا إليه ، قالوا : «ميلك إلى بلدك ، من شرف محتدك[4]» وقالوا : «يحن اللبيب إلى وطنه ، كما يحن النجيب إلى عطنه[5]» .

ولولا حب الأوطان ، ما عمرت البلدان . خاصة بلاد السوء منها ، والتي سبق أن أشرنا في حديث أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه . قالوا : «بحب

(١) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٦ .
(٢) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٦ . وزهر الآداب : ٢/٦٨١ .
(٣) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٨ .
(٤) نفسه : ٢/٣٨٦ . ومحاضرات الأدباء : ٤/٦٢٠ .
(٥) زهر الآداب : ٢/٦٨١ . وديوان المعاني : ٢/١٩٠ .

الأوطان ، عمرت البلدان[1] ، وبالمعنى نفسه ، يورد الجاحظ فى حيوانه قولهم : «عمر الله البلدان بحب الأوطان[2]» .

و «حب الوطن من طيب المولد[3]» ، و «من إمارات العاقل ، بره لإخوانه ، وحنينه لأوطانه[4]» ، «وتربة الصبا تغرس فى القلب حرمة وحلاوة ، كما تغرس الولادة فى القلب ، رقة وحفاوة[5]» .

ماسبق من الأمثال ، أظهرت ماللوطن من قيمة . وماله من حب ، وصفات حسنة ، وميزات فريدة . كما أظهرت أوجه الشبه بين الإنسان ، وغيره من المخلوقات ، فى حبها جميعاً للوطن ، وحنينها إليه . وما فى محب الوطن ، من السمات الحميدة ، والأصل العريق ، والأخلاق الحسنة .

وهناك نموذج آخر من الأمثال ، التى لها تماس بالحنين إلى الوطن ، والتقاء معه ، وإن كان بصورة تختلف عن تلك . فهى هنا لا تبين وتظهر طريق الرشاد حسب ، وإنما تدعو الإنسان ، دعوة صريحة ، إلى التمسك بالوطن ، والحفاظ عليه ، والحنين إليه .

فللوطن فضل كبير على الإنسان ، إذ فيه نما ، ومنه تغذى ، وفى فنائه نشأ ، وبين ظهرانية أهله وقبائله ، ومن مياهه شرب ، ومن غذائه أكل . قالوا : «لاتنشك بلداً فيه قبائلك : ولا تجف أرضاً فيه قوابلك[6]» . وقالوا : «احفظ بلداً رباك[7]» . وقالوا : «إذا وجدت بعض القوت ، فالزم قعر البيوت[8]» .

وقالوا : «الغربة ذلة ، والذلة قلة[9]» . وقالوا : «القلة ذلة ، فإن ردفتها علة ، وأن أعقبتها قلة ، فتلك نفس مضمحلة[10]» . وقالوا : «إذا كنت فى

---

(١) المحاسن والاضداد : ٩٣ . والمحاسن والمساوىء : ٢/٣٢٦ ومحاضرات الأدباء : ٤/ ٦٢

(٢) الحيوان : ٣/٢٢٧

(٣) محاضرات الأدباء : ٤/٦٢٠

(٤) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٩

(٥) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٦

(٦) المحاسن والاضداد : ٩٣ . وديوان المعانى : ١٨٧

(٧) محاضرات الأدباء : ٤/٦١٤

(٨) المصدر والصفحة نفسها .

(٩) المحاسن والاضداد : ٩٤ والمحاسن والمساوىء : ٢/٢٢٧ ومحاضرات الأدباء ٤/٦١٤ .

(١٠) المحاسن والمساوىء ٢/٣٢٧

غير قومك، فلا تنسى نصيبك من الذل(١). وقالوا: الغريب النائى عن بلده، المتنحى عن أهله، كالثور النادّ(٢) عن وطنه الذى هو لكل رام قنيصة(٣)، وقالوا: وما دار من يشتاق إلى السفر، بدار سلامة(٤).

وما أشد الفراق، وما أطول يومه! لما فيه من تشتت الشمل وتفرق عن الأهل، وبعاد عن الوطن، ونأى عن المحب، ووداد فى القبول، ورغبة فى الإياب. لذلك قيل: «أطول من يوم الفراق»(٥).

ومثلما حمل إلينا النثر العربى، حنيناً إلى الوطن، فى الحكم والأمثال، فقد حمل إلينا حنيناً وحباً للوطن، فيما وصلنا منه، من القصص والحكايات، التى رويت فى عصور مختلفة، وأزمان متباعدة، من تاريخ أدبنا العربى.

فهذا أعرابى يجيب — حينما يسأل: أيشتاق إلى وطنه؟ — قائلا: كيف لا أشتاق إلى رملة كنت جنين ركامها(٦)، ورضيع غمامها»(٧).

ويسأل إعرابى — آخر — عن الغبطة. فيقول: «الكفاية فى الأهل، ولزوم الأوطان، والجلوس مع الاخوان»(٨). وهل هناك غبطة أعظم من تلك!؟ أن يكون للإنسان أهل كثير — لما لذلك من أهمية بالغة، فيما مضى من عصور — واستقرار فى الوطن وملازمة له، وحياة رغدة بين الأهل والأحباب، كلها سعادة وسمر معهم.

وإذا سئل — الاعرابى نفسه — عن الذل. يقول: «التنقل فى البلدان، والتنحى عن الأوطان(٩). أرأيت إذن. فعزه أن يكون فى وطنه، وبين أهله، وذله أن يبتعد عن وطنه وأهله!.

---

(١) محاضرات الأدباء: ٣٨٥/٢

(٢) ندّ يند ندوداً: شرد وذهب على وجهه.

(٣) رسائل الجاحظ: ٣٨٥/٢ (٤) محاضرات الأدباء ٦١٤/٤

(٥) جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى: ١٣/٢

(٦) ركامها: الركام: السحاب المتراكم. والرمل المتراكم.

(٧) ديوان المعانى: ١٨٧ ومطالع البدور: ٢٩٢/٢

(٨) المحاسن والاضداد: ٩٤ والمحاسن والمساوىء: ٣٢٧/٢

(٩) المحاسن والاضداد: ٩٤ والمحاسن والمساوىء: ٣٢٧/٢

وفي البعد عن الوطن ، نقصان من الكرامة ، وضيم من الوحدة. قالوا : ولا تنهض عن وطنك ووكرك ، فتنقصك الغربة ، وتصمتك(١) الوحدة(٢) : أنه الوطن الذى يملأ القلب حباً ، والنفس هدوءاً ، والضمير راحة ، والإنسان قناعة على الرغم مما فيه من شظف العيش ، وقسوة الحياة — وهل هناك أقسى من حياة وسط الصحراء القاحلة ، وتحت الشمس المحرقة ؟ ! — أنظر إلى قول الاعرابي — وهو يجيب عما يصنعه في البادية ، إذا انتصف النهار ، وانتعل كل شيء ظله — : « وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلا ، فيرفض عرقاً كأنه الجمان ، ثم ينصب عصاه ، ويلقى عليها كساء ، وتقبل الرياح من كل جانب ، فكأنه في إيوان كسرى ! (٣)

« ولولا أن الله — تعالى — أقنع بعض العباد ، بشر البلاد ، ما وسع خير البلاد ، جميع العباد(٤) . هـذا ما يجيب به أعرابي ، حينما يسأل عن كيفية صبرهم على جفاء البادية وضيق العيش فيها .

وكانت العرب ، إذا سافرت ، تأخذ معها من تراب بلدها ، فتنشقه عند نزلة أو صداع (٥) .

وهذا أبو عمرو بن العلاء يقول : مما يدل على كرم الرجال ، وطيب غريزته : وحنينه إلى أوطانه ، وحبه متقدمي أخوانه ، وبكاؤه على ما مضى من زمانه (٦)

والاصمعي يقول : « دخلت البادية . فنزلت على بعض الاعراب ، فقلت: أفدني ، فقال : إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل ، وحسن عهده ، وكرم أخلاقه ، وطهارة مولده ، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وتشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه(٧) .

---

(١) تصمتك : صمت الرجل : شكا إليه فنزع إليه من شكايته . والصمات : سرعة العطش في الناس والدواب .

(٢) المحاسن والاضداد : ٩٤ . والمحاسن والمساوىء : ٢/٣٢٧

(٣) المصدران السابقان وصفحاتهما . وديوان المعاني : ١٨٩

(٤) محاضرات الادباء ٤/٦٢٠

(٥) نفسه ٤/٦٢١ . ومطالع البدور : ٢/٢٩٢

(٦) محاضرات الادباء ٤/٦٢٠ (٧) مطالع البدور : ٢/٢٩٢

وأشد مايكون الشوق إلى الوطن فى العلة والمرض ، فهذا أعرابى يعتل — وهو بعيد عن وطنه — «فقيل له : ما تشتهى ؟ قال : حسل فلاة[1] ، وحسى قلاة[2] [3] وآخر يعتل بالحضر ، فقيل له : ماتشتهى ؟ قال : مخيضاً روياً [4]، وضباً مشوياً[5]».

والجاحظ ينقل إلينا خبراً عن بعض بنى هاشم، وهو يسأل أعرابياً عن البادية، وأين يسكن منها ، وما طعامه فيها . فيجيبه بجواب، إن دل على شىء فإنما يدل على ما للوطن فى قلب هذا الاعرابى من حب وتقديس . قال الجاحظ : «وحدثنا بعض بنى هاشم . قال : قلت لاعرابى : من أين أقبلت ؟ قال : من هذه البادية . قلت : وأين تسكن منها ؟ قال : مساقط الحمى ، حمى ضرية[6] . ماأن — لعمر الله — أريد بها بدلا ، ولا أبتغى عنها حولا . حفتها الفلوات ، فلايملولح ماؤها ولا تحمى تربتها ليس فيها أذى ، ولا قذى ، ولا وعك[7] ولا موم[8] . ونحن بأرفه عيش ، وأوسع معيشة ، وأسبغ نعمة . قلت : مم طعامكم ؟ قال : بخ بخ : الهبيد[9] ، والضباب واليرابيع مع القنافذ ، والحيات . وربما — والله — أكلنا القد واشتوينا الجلد . فلا نعلم أحداً ، أخصب منا عيشاً . فالحمد لله على مارزق من السعة ، وبسط من حسن الدعة[10]».

والبيهقى ينقل الخبر — نفسه — ولكن بصورة أوضح ، وتفصيل أدق . قال «وحدث عن بعض بنى هاشم ، قال : قلت لإعرابى : من أين أقبلت ؟ قال : من هذه البادية . قلت وأين تسكن منها ؟ قال : مساقط الحمى ، حمى ضرية ، لعمر الله ، مانريد بها بدلا ، ولا نبغى عنها حولا . تفحتها العذاوات[11] ، وحفتها الفلوات

---

(١) الحسل : ولد الضب

(٢) الحسى : الرمل المتراكم . (٣) محاضرات الأدباء ٦٢١/٤

(٤) مخض اللبن يمخضه فهو مخيض : أخذ زبده .

(٥) المحاسن والاضداد : ٩٣ . والمحاسن والمساوىء : ٢ / ٣٢٦ .

(٦) حمى ضرية : موضع . (٧) الوعك : الألم .

(٨) الموم : الحمى . (٩) الهبيد : الحنظل .

(١٠) المحاسن والاضداد : ٩٣ — ٩٤

(١١) العذاوات : جمع عذاة وهى الأرض البعيدة من الانهار والبحور ولا تكون ذات وخامة ولا وباء .

فلا يعلولج(١) ترابها ؛ ولا يتمعزج جنابها(٢) ؛ ولا يملولح ماؤها . ليس بها أذى ؛ ولا قذى ؛ ولا موم . فنحن فيها بأرفه عيش ؛ وأنعم معيشة ؛ وأرغد نعمة . قلت : فما طعامكم ؟ قال بخ بخ ! عيشنا عيش تعلل جاذبة ؛ وطعامنا أطيب طعام وأهنأه وأمراه : الفث ؛ والهبيد والصليب ؛ والعنكث ؛ والعلهز ؛ والذآنين ؛ والينمة ؛ والعراجين(٣) ؛ والحسلة ؛ والضباب ؛ واليرابيع ؛ والقنافذ ؛ والحيات ؛ وربما — والله — أكلنا القد ؛ واشتوينا الجلد . فما نعلم أحداً أخصب منا عيشاً ؛ ولا أرخى بالا ؛ ولا أعمر حالا . أو سمعت قول شاعر ؛ وكان — والله — بصيرا برقيق العيش ولذيذه ؟ قلت وما قال : قال : قوله :

إذا ما أصابنا كل يوم مذيقة ... وخمس تميرات صغار كوانز

فنحن ملوك الناس خصباً ونعمة ... ونحن أسود الناس عند الهزاهز

وكم متمن عيشنا لا ينـــاله ... ولو ناله أضحى به حق فائز

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ، ورزق من السعة ، وإياه نسأل تمام النعمة(٤) » .

وأبو على القالى ، يحدثنا عن أبي عمرو بن العلاء ، حديثاً قريباً فى معناه من حديث الجاحظ ، والبيهقى : « قال أبو على : وحدثنا أبو بكر ، محمد بن الحسين بن دريد ، قال : حدثنا أبو حاتم ، عن الأصمعى ، عن أبي عمرو بن العلاء قال : لقيت أعرابياً بمكة . فقلت له : ممن أنت ؟ قال : أسدى . قلت : ومن أيهم ؟ قال : نمرى . قلت : ومن أى البلاد ؟ قال : من عمان . قلت : فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : إنا سكنا قطرا ، لا نسمع فيه ناجخة(٥) التيار . قلت : صف لى أرضك ؟ قال :

---

(١) يعلولج ترابها : لا يتراكم رملها ويدخل بعضه فى بعض .

(٢) يتمعزج جنابها : يصيبها الجدب .

(٣) الفث والهبيد والصليب والعنكث والعلهز والذآنين واليمنة والعراجين : هذه من نباتات الصحراء .

(٤) المحاسن والمساوىء : ٣٢٦/٢ .

(٥) سيل ناجخ : شديد الجرى ، ناجخة الماء ونجيخه : صوته .

سيف أفيح(١) ، وفضاء صحصح ، وجبل صردح(٢) ، ورمل أصبح . قلت : فما مالك ؟ قال : النخل . قلت : فأين أنت عن الإبل ؟ قال : أن النخلة حملها غذاء ، وسعفها ضياء ، وجذعها بناء ، وكربها صلاء(٣) ، وليفها رشاء(٤) ، وخوصها وعاء ، وقروها(٥) إناء(٦) » .

ففي هذه النصوص ، ظهر لنا مدى تعلق هؤلاء الأعراب بأوطانهم ، وتقديرهم لها . تجلى ذلك ، في هذا الوصف الدقيق ، والرضا التام ، عما فيها من حياة ، والإعجاب اللامحدود بديارهم ، والقناعة الحقة بما قسم لهم من الأوطان ، ورزقوا من المكان . والتي نتجت كلها ، عن صدق في العاطفة ، ورهافة في الحس ، ورقة في الشعور ، وجمال في الأسلوب ، وحسن في البيان .

* * *

ويكون اشتداد الغربة على المرء بضيقه بالبلد الجديد ، فيزداد حنينه لوطنه . فهذا عبد الحميد — الشهير بالكاتب — ورسائله المشهورة ، التي بعث بها إلى أهله وأقاربه ، من فلسطين . والتي يظهر فيها ألمه في الفراق ، وشكواه من الدهر ، الذي أبعده عن الوطن والأهل — في أسلوب سلس ، عذب ، رقيق ، ينم عن عاطفة صادقة . قال : أما بعد : فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالمكره والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها . فمن درّت له بحلاوتها ، وساعده الحظ فيها ، سكن إليها ، ورضى بها ، وأقام عليها . ومن قرصته بأظفارها ، وعضته بأنيابها ، وتوطأته بثقلها ، قلاها ، نافراً عنها . وذمها ساخطاً عليها . وشكاها مستزيداً منها . وقد

---

(١) السيف : كل ما كان ملتصقاً بأصول السعف .

(٢) الصردح : المكان الواسع الأملس .

(٣) الكرب بالتحريك : أصول السعف الغلاظ العراض .

(٤) الرشاء : شجرة تسمو فوق القامة ورقها كورق الخروع .

(٥) القرو : شبه حوض ممدود مستطيل إلى جنب حوض ضخم يفرغ فيه من الحوض الضخم ترده الإبل والغنم .

(٦) ذيل الأمالي للقالي : ١٦ .

كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها . وأرضعتنا من درّها أفاويق(١) استحليناها . ثم شمست(٢) منا نافرة وأعرضت عنا متنكرة ، ورمحتنا(٣) مولية . فلح عذبها . وأمر حلوها . وخشن لينها . فرقتنا(٤) عن الأوطان ، وقطعتنا عن الاخوان . فدارنا نازحة ، وطيرنا بارحة(٥) . قد أخذت كل ما أعطت ، وتباعدت مثل ما تقربت . وأعقبت بالراحة نصبا(٦) ، وبالجذل(٧) هما ، وبالأمن خوفا ، وبالعز ذلا ، وبالجدة(٨) حاجة ، وبالسراء ضراء ، وبالحياة موتا . لا ترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له ، منفيين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحياء(٩) .

* * *

في التـأليف :

ونظراً لما لأدب الحنين إلى الوطن ، من كثرة ، وجودة ، وأهمية فى الأدب العربي بصورة خاصة ، والآداب الإنسانية ، بصورة عامة ، فقد وجدنا كثيراً من المؤلفين والكتاب ، ألفوا كتبا فى الحنين إلى الوطن أو أفردوا فصولا ضمنوها كتبهم ، تختص بالحنين إلى الوطن .

فالجاحظ يكتب رسالة فى الحنين إلى الأوطان ، ويذكر السبب الذى حداه إلى تأليف هذه الرسالة ، فقال : « وأن السبب الذى بعث على جمع نتف من أخبار العرب فى حنينها إلى أوطانها ، وشوقها إلى تربها وبلدانها ، ووصفها فى أشعارها ، توقد النار فى أكبادها — أنى فاوضت بعض من انتقل من الملوك ، فى ذكر الديار ، والنزاع

---

(١) الأفاويق : ما يجمع فى الضرع من اللبن بعد الحلب .

(٢) شمست : نفرت .

(٣) رمحتنا : الرمح : ضرب الناقة برجلها ، كالرفس بالنسبة للفرس .

(٤) فرقتنا : أخرجتنا .

(٥) بارحة : البارحة : الريح الحارة فى الصيف .

(٦) نصبا : الاعياء والتعب . (٧) الجذل : الفرح .

(٨) الجدة : الميسرة .

(٩) الوزراء والكتاب للجهشيارى : ٧٢ — ٧٣ . ورسائل البلغاء : ٢٢١ .

على الأوطان ، فسمعته يذكر : أنه اغترب من بلده إلى بلد آخر ، أمهد من وطنه ؛ وأعمر من مكانه ؛ وأخصب من جنابه ، ولم يزل عظيم الشأن ، جليل السلطان ، تدين له من عشائر العرب ساداتها وفتيانها ؛ ومن شعوب العجم أنجادها وشجعانها يقود الجيوش ؛ ويسوس الحروب[1] ، وليس ببابه إلا راغب إليه ؛ أو راهب منه. فكان إذا ذكر التربة والوطن ، حن إليه ؛ حنين الإبل إلى أعطانها[2] فيا له من سبب قوى ومنطق ! .

ولم يكتف الجاحظ برسالته — تلك — بل عاد وأفرد فصلا فى كتابه المحاسن والأضداد ، سماه « الحنين إلى الوطن »[3].

ومحمد بن سهل بن المرزبان الكرخى البغدادى يؤلف كتاباً اسمه « الحنين إلى الوطن » : وكتاباً آخر اسمه « الشوق والفراق »[4].

والوشاء يؤلف كتاباً اسمه « الحنين إلى الوطن »[5] :

ويذكر ياقوت فى معجم البلدان أن القاضى الشريف أبا طاهر الحلبى ألف كتابه « الحنين إلى الأوطان »[6].

والبحترى فى حماسته ، وأبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى ، والحصرى فى زهر الآداب ، والراغب الاصبهانى فى محاضرات الأدباء والبيهقى فى المحاسن والمساوىء ، والمرتضى فى أماليه ، والغزولى فى مطالع البدور ، كل هؤلاء أفردوا فصولا فى مؤلفاتهم باسم « الحنين إلى الوطن »[7].

وهناك قسم آخر من المؤلفين ، بلغ من حبه لوطنه ، أن ألف فيه كتاباً خاصاً ذكر فيه محاسن هذا الوطن ، وما قيل فيه من أشعار وأقوال ، ودحض ما قيل فيه من ثلب وذم ، وقد أسبغوا على أوطانهم صفات ومناقب ، لايعرفها المار بها ، أو الذى ليس منها .

---

(١) يسوس الحروب : يقودها . (٢) رسائل الجاحظ : ٢/٣٨٣—٣٨٤

(٣) المحاسن والاضداد : ٩٣ وما بعدها .

(٤) هدية العارفين لاسماعيل البغدادى : ٢/٢٧ .

(٥) المصدر نفسه : ٢/٢٤ (٦) معجم البلدان : ١/٢٣٤ .

(٧) تنظر مؤلفاتهم .

فالأزرقي(١) يؤلف كتاباً في أخبار مدينـــة مكة ، يظهر فيه فضلها ، وقدرها ، وقدسيتها ، ومكانتها في الإســلام ، وتاريخها ، وما ورد فيها من آيات بينات ، وأقوال للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأقوال للشعراء والعلماء ، من مدح لها ، وتبيان لفضائلها .

والخطيب البغدادي يؤلف كتاباً ضخماً ، يقع في أربعة عشر جزءاً ، في مدينة بغداد . ذكر فيه أقوال العلماء في أرضها ، وحكمها ، ووصفها ، بل وكل ما يتصل بها . كما ذكر فيه الأحاديث التي فيها ثلب بها ، وطعن بأهلها وفندها وبين فسادها(٢) .

ويضع ابن الخطيب في فضل البلدان ، وهو يعني دياره التي عاش في أحيائها . ورتع في أرجائها ، كتاباً سماه : « معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار » . فإذا هو يسوقها بلداً بلداً ، في أسلوب يفيض بالإكبار لتلك المعاهد والديار ، يصور لك قدرها في نفسه ، ونبلها على حسه(٣) » .

وابن عساكر يؤلف كتاباً ضخماً ، في مدينته دمشق يقع في ثمانين مجلدة (٤) ذكر فيه فضل دمشق والشام ، وما فيها من جمال وروعة ، إضافة إلى كل ما يتصل بها من التاريخ والأدب وغيرها . ويقول الأستاذ محمد كرد علي فيه : ما حظيت مدينة في الإسلام بتاريخ يضاهي تاريخ دمشق هذا ، في المجلدتين الأولى والثانية ، تخطيط دمشق . وسورها . وأبوابها . وخططها . وأنهارها . ومصانعها . ومساجدها . وآثارها . وفضائلها . وخصائصها . وما يتصل بذلك من تقويمها وتخطيطها . وترجم المؤلف في بقية المجلدات ، لكل من يصح أن يترجم له ، من أهل دمشق ، وخلفائها . وأمرائها ، وحكامها ، وقضاتها ، وعلمائها ، وأدبائها ، وشعرائها . ممن ولد أو أقام بها ، أو زارها وحل بها ، منذ الفتح الإسلامي إلى زمان المؤلف . وقد يترجم لمن قبل الإسلام . وبذلك جمع أعظم عدد من رجال الثقافة الإسلامية ، وأعلام حضارة

---

(١) ولد بمكة في القرن الثاني للهجرة ، وتوفي في منتصف القرن الثالث تقريباً .
[أخبار مكة : ١/١٢ — ١٥]

(٢) أنظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .

(٣) الوطن في الأدب العربي لإبراهيم الإبياري : ٩١

(٤) أنظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر

العرب . بحا. كتابه أشبه بعملة إسلامية . وقد يكون تاريخ دمشق ؛ أوسع تواريخ المدن(١) .

فكل هذه الكتب والفصول ؛ لم يكن الدافع إلى تأليفها ، أو تضمينها فى الكتب — فيما نرى — إلا حب الوطن ، والحنين إليه ، أو الشعور بهما على أقل تقدير .

ولم تكن كتابتنا لهذه الرسالة ، إلا بدافع الحنين إلى الوطن السليب «فلسطين» الذى شردت عنه ، منذ الطفولة المبكرة وغلبنى الشوق والحنين إليه ! .

* * *

(١) تاريخ مدينة دمشق : ١ / د .

الخاتمة

لكل بحث نتائجه، ولكل دراسة جديد، تضيفه إلى ماهو موجود من البحوث والدراسات. وإلا فلا قيمة لهذا البحث، أو تلك الدراسة، إن لم تضف جديداً على ماهو سابق وحاصل.

وفى بحثنا هذا، لا نجدنا مغالين إذا قلنا: إننا أضفنا جديداً به. فالحنين إلى الوطن فى الأدب العربى موضوع جدير بالدراسة؛ منذ أقدم عصور الأدب العربى حتى يومنا هذا. ولم يحظ هذا الموضوع؛ بالدراسة الجادة؛ لا فى الشعر؛ وهو فن رقيق – فى رأينا – عبّر فيه الشعراء عن صدق عواطفهم؛ ورقيق مشاعرهم؛ وبعد خيالهم. ولا فى النثر؛ وقد عبر فيه الأدباء؛ والحكماء؛ والفلاسفة، عما يختلج فى نفوسهم؛ وأنتجته قرائحهم بأقوال أو كتب تجاه وطنهم.

وقد تبين لنا، من خلال البحث والدراسة، أن الحنين إلى الوطن، ظاهرة إنسانية عامة، وجدت فى جميع آداب الأمم، قديمها وحديثها وقد تجلى لنا هذا الشعور عند العرب، بدوهم وحضرهم، رجالهم ونسائهم، شعرائهم وأدبائهم، قدمائهم ومحدثيهم.

فالبدو، على الرغم من حياة الترحال والتنقل، وعدم الاستقرار فى مكان، كانوا يحنون إلى كل بقعة حلوا فيها – فهى وطنهم، فى مفهوم معين. فى ظرف معين، كظرفهم آنذاك. وماشعر الأطلال إلا دليل على شوقهم إلى ديارهم، وحنينهم إليها، على مافيه من عوامل التقليد، ليس فى رأينا حسب، وإنما فى رأى من سبقنا من النقاد والباحثين.

والحضر، كانوا على ارتباط وثيق بأوطانهم، وقد تجلى لنا هذا فى شعرهم.

والمرأة كانت أشد عاطفة. وأكثر لوعة فى حنينها إلى وطنها من الرجل، وذلك لانتقالها عن أهلها ووطنها، مرغمة، خاصة عند زواجها من غريب. أضف إلى ذلك، ما تمتاز به من رقيق الشعور، ورهافة الحس.

وفى النثر العربى، حث الله سبحانه وتعالى، فى مواضع عديدة، من كتابه العزيز،

على التمسك بالوطن ، وعدم الرحيل عنه . وكان ذلك عند رسول الله ﷺ ، وصحابته الكرام . كما كان فى أمثال العرب وقصصهم ، وفى تآليفهم وكتبهم .

والوطن ذو شأن عظيم عند الإنسان ، كل إنسان . ومن هنا كانت الأهمية فى دراسة هذا الموضوع ، ليس فى الحقبة التى درسناها حسب ، بل فى العصور كافة . ولنا وطيد الأمل . أن يعيننا الله ، على استكمال الدراسة ، فنكون بها قد أخرجنا دراسة كاملة متكاملة ، فى موضوع شيق رقيق ، يحظى باهتمام كبير ، من رجال هذا العصر خاصة ، لما له من ارتبـــاط مباشر بالوطن ، وهو الشغل الشاغل للأمم والشعوب ، فى كل زمان ومكان ، وربما كانوا أكثر اشتغالا به فى أيامنا هذه لأنهم يشعرون أنهم يزاحمون فى أوطانهم أو فى بعضها على الأقل ، فيدعوهم هـذا إلى شدة التعلق بالوطن وإلى الدفاع عنه ، وإلى الحنين إليه حين يباعد بينهم وبينه .

المصادر والمراجع

(١) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي تحقيق رشدي الصالح ملحس . مطابع دار الثقافة ، بمكة المكرمة ، ط ٢ ، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥ م .

(٢) الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة : لسليم حسن . ط ١ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ م .

(٣) الأدب الهيليني للدكتور محمد غلاب . مطبعة الحلبي ، بمصر ، ط ١ ، ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م

(٤) أدباء السجون لعبد العزيز الحلق . دار الكاتب العربي ، بيروت ، .

(٥) آراء وأحاديث في الوطنية والقومية لساطع الحصري . ط ٣ . دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٧ م .

(٦) أساس البلاغة لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري . دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ — ١٩٢٣م .

(٧) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني . دار الثقافة ، بيروت ، . ط ٢ ، ١٣٧٦هـ — ١٩٥٧ م .

(٨) أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني . مطبعة مرسلي اليسوعية ، بيروت ، ١٨٨٩ م

(٩) الياذة هوميروس بقلم سليمان البستاني . مطبعة الهلال ، بمصر ، ١٩٠٤ م

(١٠) أمالي المرتضى للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . مطبعة الحلبي . ط ١ ، ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

(١١) أندلسيات شوقي للدكتور صالح الأشتر . ط ١ مطبعة ، جامعة دمشق ، ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٩ .

(١٢) أوديسة هوميروس . ترجمة أمين سلامة . بنك الأدباء ، القاهرة ، ١٩٦٠ م

(١٣) إيميه سيزير لليان كيستلوت . ترجمة أنطون حمصي . وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٠ م

(١٤) بابلونيرودا لجان مرسيلتال . ترجمة أحمد سويد . دار المعجم العربى ، بيروت .

(١٥) البيان والتبيين للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م .

(١٦) البيئة والمجتمع الدكتور محمد السيد غلاب : ط ٤ مكتبة الانجلو المصرية . ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

(١٧) بين الكتب والناس لعباس محمود العقاد ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ م .

(١٨) تاج العروس فى جواهر القاموس . لمحمد مرتضى الزبيـــدى ، دار مكتبة الحياة . ، بيروت .

(١٩) تاريخ ابن خلدون مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر . ط ٢ ، . ، بيروت ، ١٩٦١ م

(٢٠) تاريخ الأدب السريانى للدكتور مراد كامل ، والدكتور محمد حمدى البكرى مطبعة المقتطف والمقطم ، مصر ، ١٩٤٩ .

(٢١) تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ — ١٩٣١م .

(٢٢) تاريخ مدينة دمشق لأبى القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى المعروف بابن عساكر . تحقيق صلاح الدين . المنجد . مطبوعات المجمع العلمى العربى ، بدمشق ، .

(٢٣) تهذيب اللغة لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى الجزء الرابع تحقيق . عبد الحليم النجار . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

(٢٤) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى . دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م .

(٢٥) جمهرة اللغات لابن دريد أبى بكر محمد بن الحسن الأزدى البصرى مكتبة المثنى ، بغداد ، .

(٢٦) جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى . حققه وعلق على حواشيه محمد أبو الفضل ابراهيم . وعبد المجيد قطامش المؤسسة العربية الحديثة . : ط ١ ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

(٢٧) الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية للأمير شكيب أرسلان .
المطبعة الرحمانية ط ١ «بمصر» — ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م .

(٢٨) الحماسة الشجرية لابن الشجرى هبة الله على بن حمزة العلوى الحسنى .
تحقيق عبد المعين الملوحى . وأسماء حمصى . وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٠ .

(٢٩) الحنين والغربة فى الشعر العربى الحديث للدكتور ماهر حسن فهمى .
معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية ١٩٧٠ م .

(٣٠) الحيوان للجاحظ . تحقيق وشرح عبد السلام هارون مكتبة الحلبى .
ط ١ «مصر» ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٨ م .

(٣١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف . ط٣ دار المعارف «بمصر» .

(٣٢) ديوان ابن الفارض . تحقيق فوزى عطوى . الشركة اللبنانية للكتاب .
«بيروت» ١٩٦٩ .

(٣٣) ديوان بن مقبل تحقيق د . عزت حسن . وزارة الثقافة والإرشاد القومى .
«دمشق» ١٣٨١ — ١٩٦٢ .

(٣٤) ديوان أبى بكر الأزدى تحقيق السيد محمد بدر الدين العلوى .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر «القاهرة» ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م .

(٣٥) ديوان أبى تمام . بشرح الخطيب التبريزى . تحقيق محمد عبده عزام .
دار المعارف ، بمصر ، ١٩٦٤ م .

(٣٦) ديوان ابن نواس . حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالى .
دار الكتاب العربى ، بيروت ، .

(٣٧) ديوان أسامة بن منقذ حققه وقدم له د . أحمد أحمد بدوى ، وحامد عبد المجيد .
المطبعة الأميرية ، بالقاهرة ، ١٩٥٣ م .

(٣٨) ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) تحقيق د . محمد محمد حسين .
المطبعة النموذجية ، القاهرة ، .

(٣٩) ديوان امرئ القيس تحقيق أبو الفضل ابراهيم . دار المعارف «بمصر» ١٩٥٨م .

(٤٠) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدى تحقيق د . عزت حسن .
وزارة الثقافة والارشاد القومى . « دمشق » ١٣٧٩هـ — ١٩٦٠م

(٤١) ديوان جرير . دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر .
« بيروت » ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

(٤٢) ديوان جميل جمع وتحقيق د . حسين نصار . ط ٢ ،
مكتبة مصر . « القاهرة » . ١٩٦٧ م .

(٤٣) ديوان حاتم الطائى . دار صادر . « بيروت » ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م .

(٤٤) ديوان حميد بن ثور الهلالى . تحقيق عبد العزيز الميمنى . دار الكتب
المصرية . « القاهرة » ١٣٧١ هـ — ١٩٥١ م .

(٤٥) ديوان الخمائل لإيليا أبو ماضى . ط ٢ ، مكتبة صادر . «بيروت» .

(٤٦) ديوان ذى الرمة . تحقيق وطبع ببيلى . المكتب الإسلامى للطباعة والنشر .
«دمشق» ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

(٤٧) ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس تحقيق عبد العزيز الميمنى . دار الكتب المصرية
« القاهرة » ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠م .

(٤٨) ديوان سراقة البارقى . تحقيق وشرح حسين نصار . لجنة التأليف والترجمة
والنشر . ط ١ . « القاهرة » ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

(٤٩) ديوان الشماخ بن ضرار . حققه وقدم له صلاح الدين الهادى . دار المعارف
« بمصر » ١٩٦٨ م .

(٥٠) ديوان طرفة بن العبد . مطبعة برطرند بشالون ، ١٩٠٠ م ودار صادر
ودار بيروت للطباعة والنشر . « بيروت » ١٣٨٠ هـ — ١٩٦١ م .

(٥١) ديوان الطرماح . حققه د . عزت حسن . وزارة الثقافة والسياحة والارشاد
القومى . « دمشق » ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

(٥٢) ديوان الطفيل الغنوى تحقيق محمد عبد القادر أحمد . ط ١ ، دار الكتاب
الجديد . «بيروت» ١٩٦٨ م .

(٥٣) ديوان العباس بن الأحنف تحقيق وشرح د . عاتكة الخزرجى .
دار الكتب المصرية . «القاهرة» ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م .

(٥٤) ديوان العباس بن مرداس السلمي ، جمعه وحققه د . يحيي الجبوري ، دار الجمهورية . « بغداد » ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

(٥٥) ديوان عبد الله بن الدمينة تحقيق أحمد راتب النفاخ . مكتبة دار العروبة . « القاهرة » ١٣٧٩ هـ .

(٥٦) ديوان عبد الله بن المعتز . قام على طبعه وحل غريبه المرحوم الشيخ محي الدين الخياط . المكتبة العربية « بدمشق » .

(٥٧) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات تحقيق د . محمد يوسف نجم . دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر . « بيروت » ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م .

(٥٨) ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق وشرح د . حسين نصار . ط ١ ، مطبعة الحلبي « بمصر » ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧ م .

(٥٩) ديوان الجرجي . شرحه وحققه خضر الطائي ورشيد العبيدي . الشركة الإسلامية للطباعة والنشر المحدودة ، « بغداد » ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .

(٦٠) ديوان عمر بن أبي ربيعة . تحقيق ابراهيم الاعرابي . مكتبة صادر « بيروت » ١٩٥٢ م .

(٦١) ديوان عنترة . دار بيروت ودار صادر . « بيروت » ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م .

(٦٢) ديوان الفرزدق تحقيق كرم البستاني . دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر . « بيروت » ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م .

(٦٣) ديوان القطامي . طبع ليدن ١٩٠٢ م برلين . تحقيق « بيروت » .

(٦٤) ديوان مجنون ليلى . شرح عبد المتعال الصعيدي . مطبعة حجازي « القاهرة » .

(٦٥) ديوان المزرد بن ضرار . تحقيق خليل ابراهيم العطية . مطبعة أسعد « بغداد » ١٩٦٢ م .

(٦٦) ديوان النابغة الذبياني . صنعه ابن السكيت . تحقيق د . شكري فيصل . مطابع دار الهاشم . « بيروت » ١٩٦٨ م .

(٦٧) ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي علق عليه وراجعه محمد عبد المنعم خفاجي . مطبعة محمد علي صبيح . « مصر » ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م

(٦٨) ديوان الحماسة لأبي عبادة البحتري . تحقيق كمال مصطفى . ط ١ المطبعة الرحمانية « بمصر » ١٩٢٥ م .

(٦٩) ديوان سقط الزند لأبي العـــلاء المعري . شرح وتعليق د . ن . رضا . منشورات دار مكتبة الحياة « بيروت » .

(٧٠) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري . مكتبة القدس ، « القاهرة » ١٣٥٢ هـ .

(٧١) ديوان المفضليات عنى بطبعه كارلوس يعقوب لايل . مطبعة الآباء اليسوعيين . « بيروت » ١٩٢٠ م .

(٧٢) ديوان المفضليات تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط ٣ دار المعارف « بمصر » .

(٧٣) ذيل الأمالي والنوادر . لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي . ط ٣ . دار الكتب المصرية . « القاهرة » .

(٧٤) رسائل البلغاء لمحمد كرد علي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ط ٤ ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٤م .

(٧٥) رسائل الجاحظ تحقيق وشرح عبد السلام هارون . مطبعة السنة المحمدية . « القاهرة » ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م .

(٧٦) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري . تحقيق د . بنت الشاطئ . دار المعارف « بمصر » ١٩٥٠م .

(٧٧) زهر الآداب لأبي اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني . تحقيق علي محمد البجاوي . ط ١ ، مطبعة الحلبي « بمصر » ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م .

(٧٨) الزهرة لأبي بكر محمد بن سليمان الأصفهاني . اعتنى بنشره د . لويس نيكل البوهيمي ، مطبعة الآباء اليسوعيين « بيروت » ١٣٥١هـ — ١٩٣٢م .

(٧٩) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي . شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي . مكتبة محمد علي صبيح . « القاهرة » ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩م .

(٨٠) سنن ابن ماجة للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . مطبعة الحلبي . « القاهرة » ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٢ م .

(٨١) سنن أبي داود لأبي داود بن الأشعث بن اسحاق الأزدي السجستاني . علق عليه أحمد سعد علي . ط ١ ، مطبعة الحلبي ، بمصر ، ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م .

(٨٢) السيرة النبوية لابن هشام . تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي . ط ٢ ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م .

(٨٣) شاعرات العرب . جمع وتحقيق عبد البديع صقر . منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .

(٨٤) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

(٨٥) شرح ديوان عنترة بن شداد تحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي . المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .

(٨٦) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري . حققه وقدم له . د . احسان عباس . وزارة الارشاد والأنباء في ، الكويت ، ١٩٦٢ م .

(٨٧) شعر ابن مفرغ الحميري . جمع وتقديم د . داود سلوم . مطبعة الإيمان . ، بغداد ، ١٩٦٨م .

(٨٨) شعر أبي زبيد الطائي . جمع وتحقيق د . نوري حمودي القيسي . مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٧ م .

(٨٩) شعر الأحوص الأنصاري . جمعه وحققه عادل سليمان جمال . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

(٩٠) شعر الراعي النميري . جمعه وقدم له وعلق عليه ناصر الحاني . مطبوعات المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م

(٩١) شعر عروة بن حزام تحقيق د . ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب . نشر في مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد الرابع حزيران ١٩٦١ م .

(٩٢) شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام . للنعمان عبد المتعال القاضي . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .

(٩٣) شعر المثقب العبدي تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين . مطبعة المعارف . ، بغداد ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .

(٩٤) الشعر والإنشاد للدكتور جميل سعيد. مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الرابع عشر ١٩٦٧ م .

(٩٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة . تحقيق أحمد محمد شاكر . ط ٢ ، دار المعارف «بمصر» ١٩٦٨ م .

(٩٦) شعراء النصرانية جمعه الأب لويس شيخو اليسوعي . مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين في «بيروت» ١٨٩٠ م .

(٩٧) الصحاح لاسماعيل بن حماد الجوهري . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار . مطابع دار الكتاب العربي «بمصر» .

(٩٨) صحيح البخاري لأبي محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري . مطبعة الحلبي «بمصر» ١٣٧٧ هـ .

(٩٩) صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي . المطبعة المصرية بالأزهر ، ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ .

(١٠٠) صحيح مسلم بشرح النووي «مصر» ١٣٤٩ هـ .

(١٠١) طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار أحمد فراج . دار المعارف «بمصر» .

(١٠٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي للدكتور نوري حمودي القيسي . دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع «بيروت» ط ١ ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

(١٠٣) العرب والشعر . محاضرات ألقاها الدكتور جميل سعيد على طلبة قسم الماجستير بكلية الآداب بجامعة «بغداد» ١٩٦٨ هـ — ١٩٦٩ م .

(١٠٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه . لابن رشيق القيرواني . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازي «بالقاهرة» ، ط ١ ، ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م .

(١٠٥) غرر الحكم ودرر الكلم جمعه عبد الواحد الآمدي التميمي . أشرف على تصحيحه أحمد شوقي الأمين . مطبعة النعمان . النجف الاشرف .

(١٠٦) فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين . ط ٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر . «القاهرة» ١٩٥٩ م .

(١٠٧) فضائل مكة والسكن فيها . للحسن البصري . تحقيق د . سامي مكي العاني نشر بمجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ، عدد ١٤ . المجلد الأول . ١٩٧٠ — ١٩٧١ م .

(١٠٨) القرآن الكريم .

(١٠٩) قصائد مختارة من الشعر العالمي . ترجمة بدر شاكر السياب .

(١١٠) قصة الأدب في العالم تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م . ج٢ ، ومكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٥٥ ج١ .

(١١١) قيس ولبنى شعر ودراسة جمع وتحقيق د . حسين نصار . دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠م .

(١١٢) لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري . دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر . بيروت ، ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

(١١٣) اللغة الشاعرة لعباس محمود العقاد . مطبعة مخيمر . القاهرة ، ١٩٦٠ .

(١١٤) المحاسن والأضداد للجاحظ . مطبعة الساحل الجنوبي . لبنان . ومكتبة الخانجي بمصر ١٣٢٤ هـ .

(١١٥) المحاسن والمساوىء للشيخ ابراهيم بن محمد البيهقي . مطبعة فردريك شوالي ١٣١٩ هـ

(١١٦) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الاصبهاني مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١ م .

(١١٧) المخصص لأبي الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيدة ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، .

(١١٨) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها . لعبد الله عفيفي . مطبعة الاستقامة . ، القاهرة ، .

(١١٩) المرأة في الشعر الجاهلي للدكتور أحمد محمد الحوفي ، ط٢ مطبعة المدني ، القاهرة ، .

(١٢٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر، لعلى بن الحسين بن على المسعودى . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . ط ٣، مطبعة السعادة، بمصر، ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م .

(١٢١) المسند لأحمد بن محمد بن حنبل . شرحه أحمد محمد شاكر ط ٤، دار المعارف، بمصر، ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م .

(١٢٢) مطالع البدور فى منازل السرور، لعلاء الدين الغزولى . مطبعة الوطن ١٣٠٠ هـ .

(١٢٣) معجم البلدان لياقوت الحموى . دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر . ببيروت، ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م

(١٢٤) معجم مقاييس اللغة لأبى الحسين احمد بن فارس بن زكريا . تحقيق عبد السلام هارون ط ١، مطبعة الحلبى، بمصر، ١٣٦٦ هـ .

(١٢٥) المعجم الوسيط قام باخراجه ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وزملاؤهما مطبعة مصر ١٣٨١ هـ — ١٦١

(١٢٦) من حديث الماء فى الأدب العربى للدكتور جميل سعيد . مقال نشر بمجلة المجمع العلمى العراقى المجلد الثالث عشر ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م

(١٢٧) المنازل والديار لأسامة بن منقذ . تحقيق مصطفى حجازى . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م .

(١٢٨) الموازنة بين أبى تمام والبحترى لأبى القاسم الحسن بن بشر بن يحيى البصرى الآمدى حققه محمد محيى الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية الكبرى . ط ٣، القاهرة، ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٩ م .

(١٢٩) هدية العارفين . أسماء المؤلفين وآثار المصنفين . لاسماعيل باشا البغدادى . ط ٣، المكتبة الإسلامية بطهران . ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م .

(١٣٠) الوزراء والكتاب . لمحمد بن عبدوس الجهشيارى . حققه مصطفى السقا . وابراهيم الابيارى . وعبد الحفيظ شلبي . مطبعة الحلبى «بمصر» . ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م .

(١٣١) الوصف فى شعر العراق . للدكتور جميل سعيد . «بغداد» ١٩٤٨ م .

(١٣٢) الوطن فى الأدب العربى لإبراهيم الابيارى . المؤسسة العامة للتأليف والطباعة والنشر . «القاهرة» ١٩٦٢ .

(١٣٣) يا لحياة المنفى من مهنة شاقة . لناظم حكمت . ترجمة د . أكرم فاضل . مطبعة النجوم . «بغداد» .

(١٣٤) The Oxford English Dictionary. Printed in Great Britain. 1961.

(١٣٥) Stedman's Medical Dictionary Printed in U.S.A. 1966.

(١٣٦) Webster's New International Dictionary Printed in U.S.A. 1953.